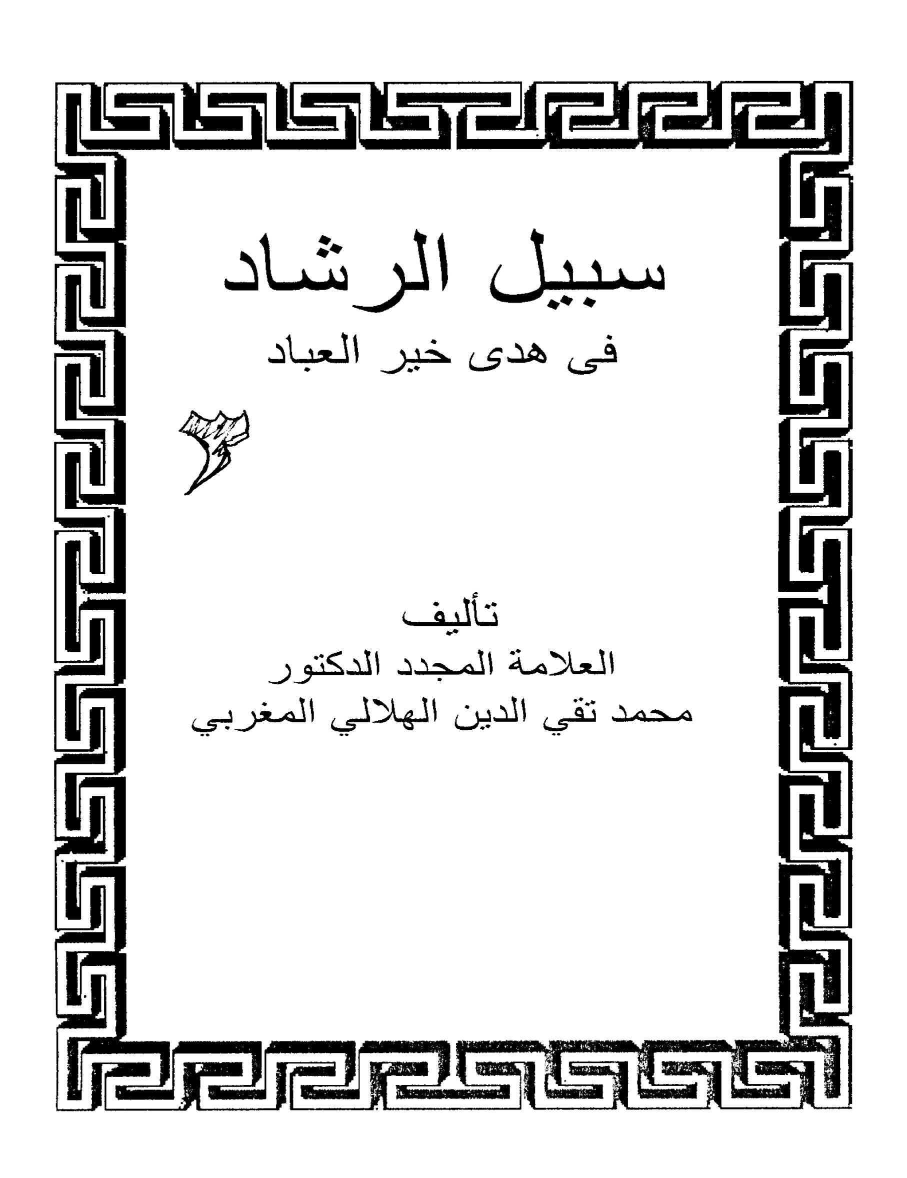
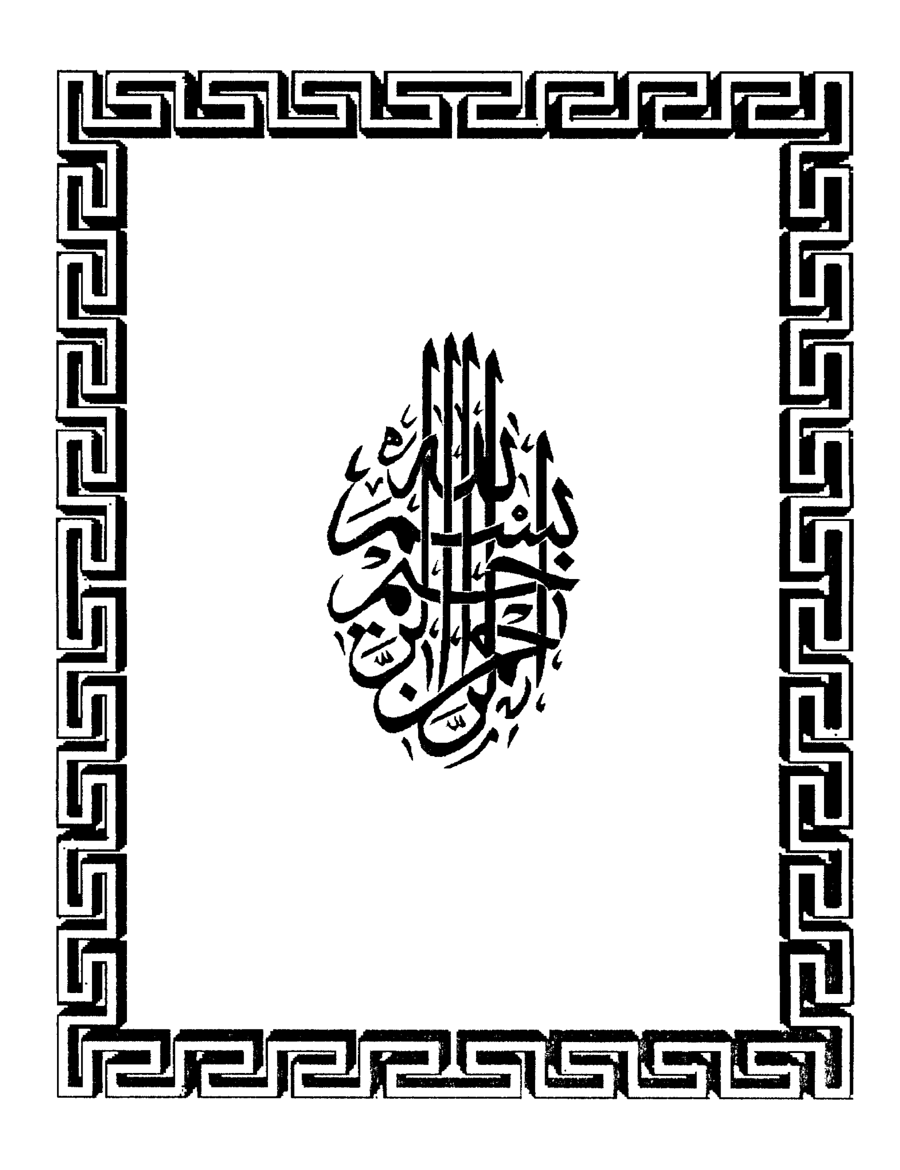


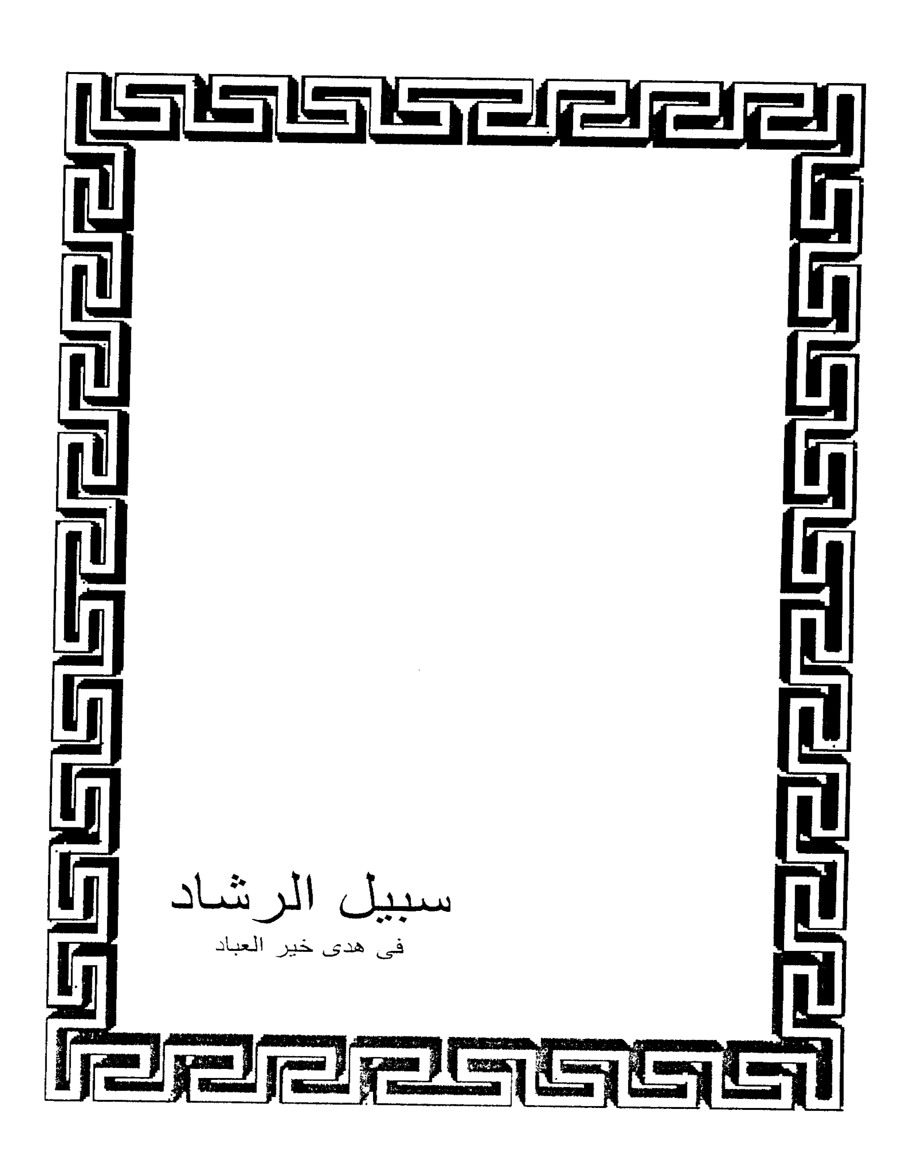
سبيل الرشاد

فى هدى خير العباد

تأليف

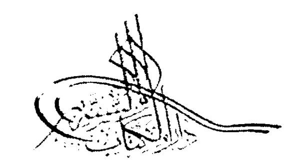
العلامة المجدد الدكتور
محمد تقي الدين الهلالي المغربي


بسم الله الرحمن الرحيم



سبيل الرشاد

في هدى خير العباد



الطبعة الأولي 19 /2007/2

لـ دار الكتاب والسنة

رقم الايداع بهيئة الكتب والوثائق القومية

2007/٤٦٥٩

دار الكتاب والسنة

للطباعة والنشر والتوزيع

المقر الرئيسي والإدارة ٩ شارع احمد اسماعيل متفرع من منشية التحرير من شارع جسر السويس عين شمس الشرقية – القاهرة جمهورية مصر العربية .

جوال : ٠٠٢٠١٠١٠٢١١٨٧ – 4671439 ٠٠٢٠١٠

فاكس : ٠٠٢٠١٠١٠٢١٠٥٢

موقعنا علي الإنترنت

www.dar-ketab-sunah.com

البريد الإلكتروني

Dar_alktabwalsunnah@hotmail.com

Dar_alketabwalsunnah@yahoo.com

info@dar-ketab-sunah.com

الحمد لله الذي أكرمنا بالإيمان برسوله وخليله محمد المبعوث رحمة للأنام، وهاديًا العباد إلى دار السلام. لم يترك شيئا من خير الدنيا والآخرة إلا دعا إليه وحث عليه ولا ترك شيئًا من شر الدنيا والآخرة إلا حذرنا منه ونبهنا عليه. اللهم صلى عليه وعلى آله وأصحابه وكل من اقتدى به.

أما بعد: فيقول العبد الفقير إلى رحمة ربه الكبير المتعالي: محمد تقي الدين بن عبد القادر الحسيني الهلالي، عفا الله عنه، وغفر ذنبه وستر في الدارين عيبه لقد من الله علي وأعانني على إنجاز القسم الأول من كتاب سبيل الرشاد، وهو في توحيد الربوبية والعبادة، فجاء في جزأين يشتمل على ثمان مائة وخمسين صفحة تقريبا وهاأنذا أقف خاضعا ذليلا بباب الغني الكريم أسأله من فضله أن يعينني على تأليف القسم الثاني ثم القسم الثالث، والقسم الثاني في توحيد الإتباع كما هو معلوم. والمراد إتباع الكتاب والسنة في جميع أمور الدين، من عقيدة وأعمال وأخلاق ومعاملات.

سورة الفاتحة

قال تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾... إلى آخرها.

أمر الله عباده أن يستعينوا به ولا يستعينوا بغيره، حين أمرهم أن يقولوا ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ فلا يعبد إلا الله، ولا يستعان إلا بالله في كل موطن أو حال لا قدرة للمخلوق أن يعين فيها بسبب من الأسباب، كإنزال المطر وشفاء المريض، وتسهيل الولادة على من أخذها الطلق، وتفريج الكروب وشرح الصدور وهداية القلوب، ولذلك أمر عباده أن يقولوا في كل ركعة ﴿ **اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ** ﴾ والصراط المستقيم جاء في القرآن العظيم في مواضع كثيرة، وهو طريق الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. وبالنسبة إلى هذه الأمة هو ما كان عليه رسول الله ﷺ في أمور الدين. أما أمور الدنيا فللمسلم أن يتصرف فيها كما يريد في الحرث والتجارة والزراعة فقد قال النبي ﷺ في قضية تلقيح النخل حين نهاهم عنه فتركوه ففسد التمر وصار شيصا فأخبر النبي ﷺ فقال: « إذا حدثتكم عن الله فخذوا به فإني لا اكذب على الله وأنتم أعلم بأمور دنياكم » فكل

مسلم يجب عليه أن يتبع رسول الله ﷺ في جميع أمور دينه بلا زيادة ولا نقصان ولا يجوز له أن يتبع فرقة بعينها قد اتخذت لها طريقًا خاصا تتعصب له توالي له وتعادي له وتعطي وتمنع لأجله وتحب وتبغض بسببه وتخالف القرآن وصحيح الحديث إذا لم يتفق مع أصولها وما خطه لها رؤساؤها ولذلك قال تعالى: ﴿ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ والمغضوب عليهم هم اليهود والضالون هم النصارى وقد أخبر النبي ﷺ أن بعض هذه الأمة المحمدية يتبع سنن اليهود وبعضهم يتبع سنن النصارى وبعضهم يتبع سنن المجوس وبعضهم يتبع سنن المشركين عبدة الأوثان ولا ينجو من ذلك أحد إلا من اتبع الكتاب والسنة الصحيحة بلا زيادة ولا نقصان وكان في اعتقاده وأعماله الدينية كما كان أصحاب رسول الله ﷺ ويلزم من ذلك أن لا يتقيد بمذهب أو طريقة أو نحلة من النحل قال الإمام محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني مؤلف كتاب سبل السلام شرح بلوغ المرام في القصيدة الدالية التي أرسل بها إلى الإمام المصلح محمد بن عبد الوهاب الدرعي ومطلعها:

سلامي على نجد ومن حل في نجد ... وإن كان تسليمي من البعد لا يجدي

والمراد نقله منها هو قوله:

وما كل قول بالقبول مقابل ... ولا كل قول واجب الرد والطرد
سوى ما أتى عن ربنا ورسوله ... فذلك قول جل ياذا عن الرد
وأما أقاويل الرجال فإنها ... تدور على حسب الأدلة في النقد

ومضى إلى أن قال:

سلامي على أهل الحديث فإنني ... نشأت على حب الأحاديث من مهدي
هم بذلوا في حفظ سنة أحمد ... وتنقيحها من جهدهم غاية الجهد
رأعني بهم أسلاف سنة أحمد ... أولئك في بيت القصيدة هم قصدي
أولئك أمثال البخاري ومسلم ... وأحمد أهل الجهد في العلم والجد
بحور أحاشيهم عن الجزر إنما ... لهم مدد يأتي من الله بالمد
رووا وارتووا من بحر علم محمد ... وليس لهم تلك المذاهب من ورد
كفاهم كتاب الله والسنة التي ... أتاهم بها صحب الرسول ذووا الجد

أأنتمُ أهدى من صحابة أحمد وأهل الكسا هيهات ما الشوك كالورد
أولئك أهدى في الطريقة منكم فهم قدوتي حتى أوسد في لحدي
وشتان ما بين المقلد في الهدى ومن يقتدي والضد يعرف بالضد
فمقتديا كن في الهدى لا مقلدا وخل أخا التقليد بالأسر في القد
على م جعلتم أيها الناس ديننا لأربعة لاشك في فضلهم عندي
هم علماء الدين شرقًا ومغربا وهم عند ذكر الفضل واسطة العقد
ولكنهم كالناس ليس كلامهم دليلاً ولا تقليدهم في غد يجدي
ومن قلد النعمان أصبح شاربا نبيذا وفيه القول للبعض بالحد

وقال الإمام الحافظ أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١ في كتابه إعلام الموقعين عن رب العامين بعد فاتحة الكتاب ما نصه: أما بعد: فإن أولى ما يتنافس فيه المتنافسون وأحرى ما يتسابق في حلبة سباقه المتسابقون، ما كان بسعادة العبد في معاشه ومعاده كفيلاً وعلى طريق هذه السعادة دليلاً، وذلك العلم النافع والعمل الصالح اللذان لا سعادة للعبد إلا بهما ولا نجاة له إلا بالتعلق بسببهما فمن رزقهما فقد فاز وغنم، ومن حرمهما فالخير كله حرم. وهما مورد انقسام العباد إلى مرحوم ومحروم، وبهما يتميز البر من الفاجر، والتقي من الغوي والظالم من المظلوم (ولما) كان العلم للعمل قرينا وشافعًا وشرفه لشرف معلومه تابعًا كان أشرف العلوم على الإطلاق علم التوحيد، وأنفعها علم أحكام أفعال العبيد، ولا سبيل إلى اقتباس هذين النورين، وتلقى هذين العلمين إلا من مشكاة من قامت الأدلة القاطعة على عصمته وصرحت الكتب السماوية بوجوب طاعته ومتابعته، وهو الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى. (ولما) كان التلقي عنه ﷺ على نوعين نوع بواسطة ونوع بغير واسطة وكان بلا واسطة حظ أصحابه الذين حازوا قصبات السباق، واستولوا على الأمد فلا طمع لأحد من الأمة بعدهم في اللحاق. ولكن المبرز من اتبع صراطهم المستقيم، واقتفى منهاجهم القويم، والمتخلف من عدل عن طريقهم ذات اليمين وذات الشمال، فذلك المنقطع التائه في بيداء المهالك والضلال، فأي خطة خير لم يسبقوا إليها.

وأي خطة رشد لم يستولوا عليها، تالله لقد وردوا رأس الماء من عين الحياة عذبًا صافيًا زلالا، وأيدوا قواعد الإسلام فلم يدعوا لأحد بعدهم مقالاً، فتحوا القلوب بعدلهم وبالقرآن والإيمان، والقرى بالجهاد بالسيف والسنان، وألقوا إلى التابعين ما تلقوه من مشكاة النبوة خالصًا صافيًا، وكان سندهم فيه عن نبيهم ﷺ عن جبريل عن رب العالمين سندًا صحيحًا عاليًا، وقالوا هذا عهد نبينا إلينا وقد عهدنا إليكم وهذه وصية ربنا وفرضه علينا وهي وصيته وفرضه عليكم (فجرى) التابعون لهم بإحسان على منهاجهم القويم واقتفوا على آثارهم صراطهم المستقيم (ثم سلك) تابعوا التابعين هذا المسلك الرشيد، وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد. وكانوا بالنسبة إلى من قبلهم كما قال أصدق القائلين: ﴿ **ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ** ﴾ (ثم جاء) الأئمة من القرن الرابع المفضل في إحدى الروايتين كما ثبت في الصحيح من حديث أبي سعيد وابن مسعود وأبي هريرة وعائشة وعمران بن حصين: فسلكوا على آثارهم اقتصاصًا واقتبسوا هذا الأمر عن مشكاتهم اقتباسًا وكان دين الله سبحانه أجل في صدورهم وأعظم في نفوسهم من أن يقدموا عليه رأيا أو معقولا أو تقليدا أو قياسا فطار لهم الثناء الحسن في العالمين وجعل الله سبحانه لهم لسان صدق في الآخرين (ثم سار) على آثارهم الرعيل الأول من أتباعهم ودرج على منهاجهم الموفقون من أشياعهم زاهدين في التعصب للرجال واقفين مع الحجة والاستدلال يسيرون مع الحق أين سارت ركائبه ويستقلون مع الصواب حيث استقلت مضاربه إذا بدا لهم الدليل طاروا إليه زرافات ووحدانا وإذا دعاهم الرسول إلى أمر انتدبوا إليه ولا يسألونه على ما قال برهانًا ونصوصه أجل في صدورهم وأعظم في نفوسهم من أن يقدموا عليها قول أحد من الناس أو يعارضوها برأي أو قياس (ثم خلف) من بعدهم خلوف فرقوا دينهم وكانوا شيعًا كل حزب بما لديهم فرحون وتقطعوا أمرهم بينهم زبرا وكل إلى ربهم راجعون جعلوا التعصب للمذاهب ديانتهم التي بها يدينون ورؤوس أموالهم التي بها يتجرون (وآخرون) منهم قنعوا بمحض التقليد وقالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون، (والفريقان) بمعزل عما ينبغي اتباعه من الصواب ولسان الحق يتلوا عليهم ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب (قال) **الشافعي قدس الله روحه: أجمع**

المسلمون على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس (قال) أبو عمر وغيره من العلماء: أجمع الناس على أن المقلد ليس معدودًا من أهل العلم وأن العلم معرفة الحق بدليله وهذا كما قال أبو عمر رحمه الله تعالى: فإن الناس لا يختلفون أن العلم هو المعرفة الحاصلة عن الدليل وأما بدون الدليل فإنما هو تقليد، فقد تضمن هذان الإجماعان إخراج المتعصب بالهوى والمقلد الأعمى عن زمرة العلماء وسقوطهما باستكمال من فوقهما الفروض من وراثة الأنبياء فإن العلماء هم ورثة الأنبياء فإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر وكيف يكون من ورثة الرسول ﷺ من يجهد ويكدح في رد ما جاء به إلى قول مقلده ومتبوعه ويضيع ساعات عمره في التعصب والهوى ولا يشعر بتضييعه: تالله إنها فتنة عمت فأعمت ورمت القلوب فأصمت ربي عليها الصغير وهرم فيها الكبير واتخذ لأجلها القرآن مهجورًا وكان ذلك بقضاء الله وقدره في الكتاب مسطورًا ولما عمت بها البلية وعظمت بسببها الرزية بحيث لا يعرف أكثر الناس سواها ولا يعدون العلم إلا إياها فطالب الحق من مظانه لديهم مفتون، ومؤثره على ما سواه عندهم مغبون، نصبوا لمن خالفهم في طريقهم الحبائل، وبغوا له الغوائل، ورموه عن قوس الجهل والبغي والعناد، وقالوا لإخوانهم إنا نخاف أن يبدل دينكم، وأن يظهر في الأرض الفساد، فحقيق بمن لنفسه عنده قدر وقيمة أن لا يلتفت إلى هؤلاء ولا يرضى لها بما لديهم، وإذا رفع له علم السنة النبوية شمر إليه ولم يحبس نفسه عليهم، فما هي إلا ساعة حتى يبعثر ما في القبور، ويحصل ما في الصدور وتساوي أقدام الخلائق في القيام لله، وينظر كل عبد ما قدمت يداه، ويقع التمييز بين المحقين والمبطلين ويعلم المعرضون عن كتاب ربهم وسنة نبيهم أنهم كانوا كاذبين.

سورة البقرة

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨].

فصل

قال (ك) يقول تعالى: مخبرًا عما أنذر به آدم وزوجته وإبليس حين أهبطهم من الجنة والمراد الذرية أنه سينزل الكتب ويبعث الأنبياء والرسل كما قال أبو العالية الهدى الأنبياء والرسل والبينات، وقال مقاتل بن حيان الهدى محمد ﷺ وقال الحسن الهدي القرآن وهذان القولان صحيحان وقول أبي العالية أعم ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ ﴾ أي من أقبل على ما أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل ﴿ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي فيما يستقبلونه من أمر الآخرة ﴿ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ما فاتهم من أمور الدنيا كما قال في سورة طه ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى ﴾. قال ابن عباس فلا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ كما قال ههنا ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ أي مخلدون فيها لا محيد لهم عنها ولا محيص.

فصل

قال محمد تقي الدين: المراد بالهدى كل ما جاء من الله تعالى بواسطة الرسل وما عداه فهو ضلال وقوله اهبطوا: خطاب لآدم وحواء وإبليس وقوله سبحانه: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى ﴾ الخطاب هنا لآدم وحواء باعتبار ذريتهما لأن إبليس قد علم الله أنه لا يتبع الهدى وقد نفى الله الخوف والحزن عن كل من اتبع الكتاب والسنة في آيات البقرة ونفي الشقاء والضلال عنهم في سورة طه ويفهم من ذلك أن من لم يتبع الهدى بل أعرض عن الكتاب والسنة لتقليد مذهب أو شيخ طريقة أو رجال حزب أو تعصبًا وهذا هو الواقع وقد أكد ذلك سبحانه بقوله في سورة طه: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ قال صاحب القاموس: « الضنك » الضيق في كل شيء للذكر والأنثى ضنك ككرم ضنكا وضناكة وضنوكة ضاق وفلان ضناكة فهو ضنيك ضعف في رأيه وجسمه ونفسه وعقله.

قال محمد تقي الدين: فكل من أعرض عن ذكر الله وهو كلامه مع بيان رسوله الكريم ﷺ يعيش في ضنك وضيق في رأيه وجسمه ونفسه وعقله أو في بعضها وهو الرأي

والعقل والنفس وأن قوي الجسم فقد قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَروا بِآيَاتِنَا أُولَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ فيه وعيد شديد لمن لم يتبع كتاب الله وسنة رسوله وتسميته مكذبا لأن من صدق الرسول لابد أن يتبع ما جاء به. يزيد ذلك وضوحا قوله تعالى في توبيخ اليهود في هذه السورة رقم ١٠: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ فسماهم مكذبين بترك العمل وسيأتي توضيح ذلك قريبا إن شاء الله أ هـ.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٤٢].

قال ابن كثير يقول تعالى ناهيا اليهود عما كانوا يتعمدونه من تلبيس الحق بالباطل، بتمويهه وكتمانهم الحق وإظهارهم الباطل ﴿ وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فنهاهم عن الشيئين معا وأمرهم بإظهار الحق والتصريح به ولهذا قال الضحاك عن ابن عباس ﴿ وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ﴾ لا تخلطوا الحق بالباطل والصدق بالكذب، وقال أبو العالية ولا تلبسوا الحق بالباطل – يقول ولا تخلطوا الحق بالباطل وأدوا النصيحة لعباد الله من أمه محمد ﷺ ويروي عن سعيد بن جبير والربيع بن أنس نحوه.

فصل

قال محمد تقي الدين: كل مبتدع يحرف القرآن والسنة لنصر بدعته كالخوارج والمعتزلة والمتأخرين من الأشعرية المعادين لمذهب السلف وممن سار على مذهب السلف الصالح أبو الحسن الأشعري رحمة الله عليه وكل مدع للفقه متمذهب متعصب يحرف الكتاب والسنة لنصر مذهبه مع ظهور بطلانه، كمحمد الخضر بن مايابا الذي ألف كتابا سماه إبرام النقض في تقرير السدل وإبطال القبض وزعم أن أحاديث وضع اليمنى على اليسرى الصحيح منها منسوخ إذ لا يعقل أن يروي الإمام مالك حديثا صحيحا عن النبي ﷺ ورواه عنه البخاري ومسلم ولا شك في صحته ثم يفتي بخلافه فيما رواه عنه ابن القاسم في مدونة

سحنون وقد هيأ الله له عالما شنقيطيا من أهل بلده فألف كتابا في الرد عليه سماه الصوارم والأسنة في الذب عن السنة وتبرع بطبعه المجاهد الأكبر في المغارب كلها الذي أنقذ الله به أهل المغرب الأكبر من حدود السينغال إلى حدود مصر من ربقة الاستعمار وظلمته إلى حرية الاستقلال ونوره ألا وهو الملك محمد الخامس رحمة الله عليه ومن أجل المكارم أن شريكه في الجهاد الملك الحسن الثاني أطال الله بقاءه وأدام ارتقاءه لما نفذت نسخ هذا الكتاب أمر بطبعة ثانية أجزل الله ثوابه وجزاه أحسن الجزاء ومؤلف هذا الكتاب هو العلامة السفلى المحدث الأصولي المفسر الأديب الشاعر المتفنن محمد بن أبي مدين الأستاذ في معهد بوتيلمت من بلاد شنقيط وهذا الرجل نادرة زمانه يحتاج إلى أساتذة الأزهر وأساتذة الجامعة الإسلامية بالمدينة وكل جامعة عربية لا أقول الطلبة بل الأساتذة ومن سوء حظ العرب في هذا الزمان عموم الجهل والتقليد فيهم وسيرهم على صراط معوج لأنهم لا يعتبرون العلم وإنما يعتبرون الشهادات المزيفة التي يحصل عليها كثير من الدواب فيتسنمون أعلى المراتب في الجامعات وهم صم بكم عمى فوالله الذي لا إله إلا هو لو ظفر بهذا الرجل أساتذة الجامعات في أوربة لاستفادوا من علمه وبذلوا النفس والنفيس في خدمته ولكن كما قلنا من ضلالات العرب أنهم يتركون العين ويطلبون الأثر باعتمادهم على الشهادات فهم كما قال الشاعر:

ولو لبس الحمار ثياب خز ... لقال الناس يا لك من حمار

فكذلك الجاهل إذا اخذ الشهادة من الجامعة يقول الناس يا لك من عالم وإذا لم تكن له شهادة يقول أشباه الناس يا لك من جاهل فمن أراد أن يعرف تحريف المقلدين المتعصبين إلى أي حد بلغ في الإسفاف فليقرأ هذين الكتابين فيرى الأول ظلمة، ويرى الثاني نورا وصدق رسول الله ﷺ إذ قال لتتبعن سنن من كان قبلكم فقد وجد في هذه الأمة من يلبس الحق بالباطل ويكتمون الحق وهم يعلمون.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة: ١٩]

قال (ك) وقوله تعالى: ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ** ﴾ الآية هو صنف آخر من اليهود وهم الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله وأكل أموال الناس بالباطل والويل الهلاك والدمار وهي كلمة مشهورة في اللغة: وقال ابن عباس: يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتاب الله الذي أنزله على نبيه أحدث أخبار الله تقرؤونه غضًا لم يشب وقد حدثكم الله تعالى أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلاً. أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم ولا والله ما رأينا منهم أحدًا قط سألكم عن الذي أنزل إليكم رواه البخاري وقال الحسن ابن أبي الحسن البصري الثمن القليل الدنيا بجذافيرها، وقوله تعالى: ﴿ **فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ** ﴾ أي فويل لهم مما كتبوا بأيديهم من الكذب والبهتان والافتراء وويل لهم مما أكلوا به من السحت.

فصل

قال محمد تقي الدين: وقد وجد في هذه الأمة من اتبع طريقهم فكتبوا المجلدات في الأحكام الشرعية ونسبوها إلى الله ورسوله وليس فيها قال الله ولا قال رسوله، فحللوا بها الفروج ونقلوا الأموال من ملك شخص إلى شخص آخر وسفكوا بها الدماء افتراء على الله وهذا الوصف ينطبق على كل كتاب ألف فيما يسمونه الفقه وحشى بالمسائل المجردة عن الدليل من الكتاب والسنة وما أكثر هذه الكتب المظلمة ورحمة الله على عبد المؤمن بن على الملك الموحدي العالم الذي أمر بإحراق كتب الفروع في جميع أنحاء مملكته وأمر القضاة والمفتين ألا يقضوا ولا يفتوا إلا بدليل من الكتاب والسنة: قال صاحب الاستقصاء في الجزء الثاني ص ١٣٦ ما نصه: لما كانت سنة خمسين وخمسمائة أمر أمير

المؤمنين عبد المؤمن بن على بإصلاح المساجد وبنائها في جميع مملكته وبتغيير المنكرات ما كانت، وأمر مع ذلك بتحريق كتب الفروع ورد الناس إلى قراءة كتب الحديث واستنباط الأحكام منها، وكتب بذلك إلى جميع طلبة العلم من بلاد الأندلس والعدوة فجزاه الله خيرًا.
قال المحشي: الذي في كتاب المعجب لعبد الواحد المراكشي أن يعقوب المنصور هو الآمر بذلك. فانظر هل فعل هذا اقتداء بجده أم من ذاته لأول مرة، لكن الظاهر هو كلام المراكشي أن إحراق كتب الفروع ورد الناس إلى الكتاب والسنة كان مقصدا وعزما لعبد المؤمن وابنه يوسف إلا أنهما لم يظهراه، وأظهره يعقوب بعدهما أهـ. وما ذكره المؤلف هنا منقولا عن صاحب القرطاس، وكلام صاحب المعجب أولى بالاعتبار لقربه من الزمن المذكور ومشاهدته للواقع.

قال محمد تقي الدين: الرأي الأول عندي أرجح لأنه إذا ثبت أن هذا الأمر كان مقصوده فما الذي يمنعه من تنفيذه وقد كان أقوى وأشد تمكينا من حفيده والله أعلم أهـ. وقال صاحب الاستقصاء أيضا في الجزء نفسه صفحة (٢٠٠) في ذكر أخبار يعقوب المنصور ما نصه: وأمر برفض فروع الفقه وإحراق كتب المذاهب وأن الفقهاء لا يفتون إلا من الكتاب والسنة النبوية ولا يقلدون أحدا من الأئمة المجتهدين بل تكون أحكامهم بما يؤدي إليه اجتهادهم من استنباطهم القضايا من الكتاب والحديث والإجماع والقياس أ هـ وقال في صفحة (١٩٩) من الجزء نفسه وكان قد أمر لأول دولته بقراءة البسملة في أول الفاتحة في الصلوات أهـ.

قال محمد تقي الدين: وكنت قرأت في كتاب من كتب التاريخ أن أحد ملوك الموحدين أظنه عبد المؤمن بن على أو يعقوب المنصور أو غيرهما قال لوزيره وكان يدعى أبا بكر: يا أبا بكر أجد في المدونة في المسألة الواحدة أقوالا متعددة متناقضة فما المخرج في ذلك فقال يا أمير المؤمنين اختلف علماء الأصول في القول المشهور الذي يجب إتباعه في مذهب مالك فقيل هو ما وافق مذهب مالك في المدونة وقيل هو ما كثر القائلون به وقيل هو ما قوي دليله فأحضر ذلك الملك نسخة من سنن أبي داوود والمصحف وقال يا أبا بكر ما زدتني بجوابك إلا حيرة أنا ما عندي إلا هذا وهذا وأشار إلى كتاب الله وسنن أبي داوود أو هذا

وسل السيف وأظن أن هذا الخبر يوجد في كتاب المعجب لعبد الواحد المراكشي وهذا الذي قاله هذا الملك رحمة الله عليه هو الذي جاء به الرسول ﷺ وسار عليه الخلفاء الراشدون أهـ.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠]

قال (ك) يقول تعالى: وإذا قيل لهؤلاء الكفرة من المشركين اتبعوا ما أنزل الله على رسوله واتركوا ما أنتم عليه من الضلال والجهل قالوا في جواب ذلك بل نتبع ما ألفينا أي وجدنا عليه آباءنا أي من عبادة الأصنام والأنداد. قال الله تعالى منكرًا عليهم ﴿ **أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ** ﴾ أي الذين يقتدون بهم ويقتفون أثرهم ﴿ **لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ** ﴾ أي ليس لهم عقل ولا هداية وروي ابن إسحاق بسنده عن ابن عباس أنها نزلت في طائفة من اليهود دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام فقالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا فأنزل الله هذه الآية. وقال الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري في كتابه جامع بيان العلم وفضله في الجزء الثاني صفحة ١٠٩ ما نصه: وقال عز وجل: ﴿ **وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ** ﴾ فمنعهم الاقتداء بآبائهم من قبول الاهتداء فقالوا: ﴿ **إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ** ﴾ وفي هؤلاء ومثلهم قال الله عز وجل: ﴿ **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابَّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ** ﴾ وقال: ﴿ **إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ** ﴾ وقال عز وجل عائبًا لأهل الكفر وذامًا لهم: ﴿ **مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ** ﴾ وقالوا: ﴿ **إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا** ﴾ ومثل هذا في القرآن كثير من ذم تقليد الآباء والرؤساء وقد احتج العلماء بهذه الآيات في إبطال التقليد ولم يمنعهم كفر أولئك من

الاحتجاج بها لأن التشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما وإيمان الآخر وإنما وقع التشبيه بين التقليدين بغير حجة للمقلد كما لو قلد رجلاً فكفر وقلد آخر فأذنب فقلد آخر في مسألة دنياه فأخطأ وجهها كان كل واحد ملومًا على التقليد بغير حجة لأن كل ذلك تقليد يشبه بعضه بعضا وإن اختلفت الآثام فيه وقال تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ** ﴾ وقد ثبت الاحتجاج بما قدمنا في الباب قبل هذا وفي ثبوته إبطال التقليد أيضًا فإذا بطل التقليد بكل ما ذكرنا وجب التسليم للأصول التي يجب التسليم لها وهي الكتاب والسنة أو ما كان في معناهما بدليل جامع بين ذلك، ثم قال أبو عمر بسنده إلى عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إني لأخاف على أمتي من بعدي من أعمال ثلاثة قالوا وما هي يا رسول الله ؟ قال: أخاف عليهم من زلة العالم ومن حكم جائر ومن هوى متبع » وبهذا الإسناد عن النبي ﷺ أنه قال: « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة رسوله » ثم قال بسنده إلى زياد بن جدير قال: قال عمر ثلاث يهدمن الدين زلة عالم وجدال منافق بالقرآن وأئمة مضلون اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين الهلالي: كل من دعى إلى كتاب الله أو سنة رسوله فأعرض عنهما فهو من شر الدواب الذين ذكرهم الله تعالى في هذه الآية، لأن الله تعالى قال: بعد ذلك ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ** ﴾ فالاستجابة لله وللرسول فيها الحياة حياة الدنيا بسعادة وحياة الآخرة بسعادة ورضوان من الله وعدم الاستجابة لله وللرسول فيها الموت الحقيقي وهو موت القلب كما قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ** ﴾ فالذين استجابوا لله وللرسول وكانوا أمواتا بالكفر أو الشرك أو البدعة يصيرون بالاستجابة أحياء ويجعل الله لهم نورًا يمشون به في هذه الحياة وفي الحياة الأخرى والذين لم يستجيبوا لله يبقون أمواتا ولا يجعل الله لهم نورا فيبقون متخبطين في الظلمات في الدنيا والآخرة.

فصل

كل مشرك أو مبتدع ينسب شركه أو بدعته إلى نبي من الأنبياء أو إمام من الأئمة كما فعلت النصارى حين نسبوا إلى عيسى أنه قال لهم: أنا ابن الله وأنه قال: لهم أنا الأقنوم الثاني فاعبدوني وهم كاذبون: أنظر البراهين الإنجيلية لمؤلف هذا الكتاب وكذلك عباد القبور وأصحاب الطرائق الذين يستمدون الهداية وتنوير القلوب من شيوخهم يزعمون أن شيوخهم أمروهم بذلك فإن كان شيوخهم صالحين فإنهم يتبرؤون منهم يوم القيامة وإن كانوا طالحين فإنهم أيضا يتبرؤون منهم كما قال رئيسهم إبليس: ﴿ **وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ أ هـ. وإذا تبرؤوا منهم تعظم حسرتهم وندامتهم حين لا ينفع الندم يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ** ﴾.

فصل

قول الحافظ أبي عمر وإن اختلفت الآثام معناه أن الآية واردة في النوع الأول والثاني من المقلدين، فمن قلد رجلاً فأشرك بالله كان كافراً آيسا من رحمة الله ومن قلد رجلاً ففعل محرما أو ترك سنة كان آثما، وهذا معنى اختلاف الآثام، ومن قلد رجلا في أمر من أمور الدنيا كالتجارة والزراعة والصناعة فأخطأ الصواب وخسر في أمر دنياه كان ذلك التقليد وبالا عليه.

فصل

قول النبي ﷺ إني لأخاف على أمتي من أعمال ثلاثة إلى آخره، أولها زلة العالم فالعالم لا يعرف زلله وخطأه من صوابه يطرح التقليد وسؤاله عن الدليل أما المقلد الأعمى الذي يأخذ من العالم كل ما قال يغلو في تعظيمه حتى يجعله معصوما فهذا هو الذي يهلك وعليه خاف النبي ﷺ وهذا شر الثلاثة فإن الحكم الجائر يعرفه الناس وينكرون، أما بأيديهم

أو بألسنتهم أو بقلوبهم، والهوى المتبع كذلك يعرفه الناس فيحذرون صاحبه وهو يعرف نفسه فربما يتوب ويرجع إلى الحق.

فصل

الحديث الثاني واضح، فإن الناس ما داموا متمسكين بكتاب الله وسنة رسوله لا يقلدون أحدا فيكونون مهتدين بإتباعهم كتاب الله وسنة رسوله: وأما أثر عمر ﷺ فقد تقدم الكلام على زلة العالم وأما جدال المنافق بالقرآن فلا يقطعه إلا العلم بسنة النبي ﷺ، كما إذا احتج المعتزلي بقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ على عدم رؤية الله تعالى بالأبصار يوم القيامة وتأول قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ يسل عليه المتبع للسنة سيفا صقيلا من حديث رسول الله ﷺ وهو قوله إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر ليس دونه غمام، وهو حديث في غاية الصحة أهـ.

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

قال ابن عباس: كانوا على هدى على ملة آدم فلما ضلوا وعبدوا الأصنام بعث الله نوحا فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ولهذا قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ أي من بعدما قامت الحجج عليهم وما حملهم على ذلك إلا البغي من بعضهم على بعض ﴿ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾. وقال عبد الرزاق بسنده عن أبي هريرة في قوله: ﴿ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ﴾ الآية. قال: قال النبي ﷺ: نحن الآخرون

الأولون يوم القيامة، نحن أول الناس دخولا الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله له فالناس لنا فيه تبع فغدًا لليهود وبعد غد للنصارى أهـ. وقوله: ﴿ **بِإِذْنِهِ** ﴾ أي بعلمه بهم وبما هداهم له قاله ابن جرير والله يهدي من يشاء أي من خلقه ﴿ **إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ أي وله الحكمة والحجة البالغة. وفي صحيح البخاري ومسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يصلي يقول: « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » ، وفي الدعاء المأثور « اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا إتباعه وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه ولا تجعله ملتبسا علينا فنضل واجعلنا للمتقين إماما » .

فصل

قال محمد تقي الدين: وكذلك هذه الأمة اختلفت على ثلاث وسبعين فرقة كما أخبر النبي ﷺ ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة هم الذين يسيرون في أمور دينهم على ما كان عليه رسول الله ﷺ فلا يزيدون فيه مثقال ذرة ولا ينقصون منه، وبالله التوفيق. قال:فالذين تفرقوا على مذاهب وطرائق وفرق في العقائد ليسوا على منهاج النبي ﷺ قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ** ﴾ أ هـ.

سورة آل عمران

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ

لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٣-٢٥].

قال (ك): يقول تعالى منكرًا على اليهود والنصارى المتمسكين فيما يزعمون بكتابيهم الذين بأيديهم وهما التوراة والإنجيل، وإذا دعوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة الله فيما أمرهم به فيهما من اتباع محمد ﷺ تولوا وهم معرضون عنهما، وهذا في غاية ما يكون من ذمهم والتنويه بذكرهم بالمخالفة والعناد ثم قال تعالى: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ** ﴾ أي إنما حملهم وجرأهم على مخالفة الحق افتراؤهم على الله فيما ادعوه لأنفسهم أنهم إنما يعذبون في النار سبعة أيام عن كل ألف سنة في الدنيا يومًا، وقد تقدم تفسير ذلك في سورة البقرة، ثم قال تعالى: ﴿ **وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ** ﴾ أي ثبتهم على دينهم الباطل ما خدعوا به أنفسهم من زعمهم أن النار لا تمسهم بذنوبهم إلا أيامًا معدودات وهم الذين افتروا هذا من تلقاء أنفسهم واختلقوا ولم ينزل الله به سلطانًا، قال الله تعالى متهددًا لهم ومتوعدًا ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ** ﴾ أي كيف يكون حالهم وقد افتروا على الله وكذبوا رسله وقتلوا أنبياءه والعلماء من قومهم الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر والله تعالى سائلهم عن ذلك كله وحاكم عليهم ومجازيهم به، ولهذا قال تعالى: ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ** ﴾ أي لا شك في وقوعه وكونه: ﴿ **وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ** ﴾.

فصل

قال محمد تقي الدين: وقد وجد في هذه الأمة من زاد على اليهود في دعواهم فادعى أن النار لا تمسه أصلا مع ارتكاب موجبها من المعاصي وقد قال الله تعالى في سورة النساء: ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء: ٩٢] **قال (ك):** وقد كان ابن عباس يرى أنه لا توبة لقاتل المؤمن عمدا، وقال البخاري بسنده عن النعمان بن بشير قال سمعت ابن جرير قال اختلف فيها أهل الكوفة فرحلت إلى ابن عباس فسألته عنها فقال نزلت هذه الآية: ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ** ﴾ هي آخر ما نزل وما نسخها شيء اهـ. وممن ذهب إلى أنه لا توبة له من

السلف زيد بن ثابت وأبو هريرة وعبد الله بن عمر وأبو سلمة بن عبد الرحمن وعبيد بن عمير والحسن وقتادة والضحاك بن مزاحم نقله ابن أبي حاتم والذي عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله عز وجل. وقال صاحب الرماح وهو عمر بن سعيد الفوتي أخبرني محمد الغالي أن الشيخ التجاني قال صاحبي لا تمسه النار ولو قتل سبعين روحا إذا تاب بعد ذلك مفهومه إن لم يتب تمسه النار وهذا يهدم كل ما تقدم من أن من أخذ ورده فهو محرر من النار وأنه من الآمنين وأن الله يغفر له ما تقدم من ذنوبه وما تأخر وينجيه من جميع عذابه وتخويفه وأن الله يؤدي عنه جميع تبعاته من فضله لا من حسناته وأنه لا يرى أهوال الموقف وأنه يدخل الجنة في أول الزمرة الأولى هو ووالداه وأولاده وأزواجه وهذه معضلة يجب على التيجانيين أن يحلوها ولن يستطيعوا لحلها سبيلا أهـ.

قال محمد تقي الدين الهلالي: كل من دعى إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فامتنع من القبول فهو متعرض لهذا الوعيد وسيأتي في سورة النساء إن شاء الله زيادة بيان لهذا المعنى.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٣١، ٣٢].

قال (ك) هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » ولهذا قال: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** ﴾ أي يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه وهو محبته إياكم وهو أعظم من الأول كما قال بعض العلماء الحكماء، ليس الشأن أن تحب إنما الشأن أن تحب، وقال الحسن البصري وغيره من السلف: زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية فقال: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي**

يُحْبِبْكُمُ اللّهُ ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي باتباعكم الرسول ﷺ يحصل لكم هذا من بركة سفارته ثم قال تعالى آمرًا لكل أحد من خاص وعام ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ أي خالفوا أمره ﴿ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر والله لا يحب من اتصف بذلك وإن ادعى وزعم في نفسه أنه محب لله ويتقرب إليه حتى يتبع الرسول النبي الأمي خاتم الرسل ورسول الله إلى جميع الثقلين الجن والإنس الذي لو كان الأنبياء بل المرسلون بل أولوا العزم منهم في زمانه ما وسعهم إلا إتباعه والدخول في طاعته وإتباع شريعته كما سيأتي تقريره عند قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ ﴾ الآية إن شاء الله تعالى.

فصل

قال محمد تقي الدين: هذه الآية هي الفاصلة بين المحقين والمبطلين والصادقين والكاذبين فإن كل من يدعي الإسلام ويدعي أنه يحب الرسول ﷺ ولكن الله تعالى بهاتين الآيتين وضع امتحانا للمدعين وهو الإتباع، فمن إتبع الرسول تصديقا وعملا بما جاء به ولم يرد من حديثه شيئا والتزم الحكم بالشرع الذي جاء به فهو محق، ومن أعرض عما جاء به فهو كاذب في ادعائه، ومن أدلة الإتباع الدالة على المحبة الصادقة في حق الأمم العزة والنصر فإن الله تعالى يقول في سورة آل عمران: ﴿ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فإذا كانوا أذلة استمر عليهم الذل زمانا طويلا فليسوا بمؤمنين أهـ. لأن الله وعد المؤمنين بالنصر والله لا يخلف الميعاد، فإذا كان العدو يساوي المسلمين في العدد وانهزم المسلمون إما مرة بعد مرة وطال زمان غلبته فأولئك ليسوا مؤمنين حقا لقوله تعالى في سورة النساء: ﴿ وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾ وإذا جاء الأمر بإتباع غير النبي ﷺ كقوله تعالى في سورة التوبة: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ فاتباع غير المعصوم لابد له من دليل وإلا كان تقليدا والتقليد في دين الله حرام بالنسبة لمن عنده من العلم ما يميز به الحق من الباطل، أما إذا كان عاميًا صرفا

فيجب عليه أن يسأل أهل العلم بالكتاب والسنة الذين يثق بدينهم وأمانتهم، ولا يجوز أن يتقيد بمذهب، ويحسن أن أذكر هنا الفرق بين التقليد والإتباع فإن كثيرا من الناس لا يفرقون بينهما. قال الحافظ أبو عمر في كتابه جامع بيان العلم وفضله في الجزء الثاني « قال أهل العلم والنظر حد العلم علم الشيء وإدراك المعلوم على ما هو به فمن بان له الشيء فقد علمه قالوا والمقلد لا علم له ولم يختلفوا في ذلك، ومن هنا والله أعلم قال البحتري:

وأرى الناس مجمعين على، فضلك من بين سيد ومسود

عرف العالمون فضلك بالعلم وقال الجهال بالتقليد

وقال أبو عبد الله بن خويز منداد البصري المالكي التقليد معناه في الشرع الرجوع إلى قول لا حجة لقائله عليه وذلك ممنوع منه في الشريعة. والإتباع ما ثبت عليه حجة وقال في موضع آخر من كتابه كل من اتبع قوله من غير أن يوجب عليك الدليل إتباع قوله فأنت مقلده والتقليد في دين الله غير صحيح وكل من أوجب عليك الدليل إتباع قوله فأنت متبعه والإتباع في الدين مسوغ والتقليد ممنوع أهـ.

سورة النساء

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى

قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ٥٩-٦٤].

روى أحمد بسنده عن علي قال بعث رسول الله ﷺ سرية واستعمل عليهم رجلا من الأنصار فلما خرجوا وجد عليهم في شيء قال: فقال لهم أليس قد أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعوني قالوا بلي قال فاجمعوا لي حطبا ثم دعا بنار فأضرمها فيه. ثم قال: عزمت عليكم لتدخلنها، قال: فقال لهم شاب منهم إنما فررتم إلى رسول الله ﷺ من النار فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله ﷺ، فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها، قال فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه فقال لهم: لو دخلتموها ما خرجتم منها أبدا إنما الطاعة في المعروف، أخرجاه في الصحيحين وقوله تعالى وأولي الأمر منكم **قال (ك)**: يعني العلماء، والظاهر والله أعلم أنها عامة في أولي الأمر من العلماء والأمراء.

قال محمد تقي الدين: إذا كان الأمراء علماء وكان الأمر واضحا فقد اجتمع فيهم الفريقان وإن لم يكن واضحا وجب عليهم أن يستشيروا العلماء كما كان عمر ﷺ يفعل وإن لم يكن الأمراء علماء وجب على العلماء أن يبينوا حكم الله وعلى الأمراء أن ينفذوا. ثم **قال (ك)** أطيعوا الله: أي اتبعوا كتابه وأطيعوا الرسول أي خذوا سنته وقوله تعالى: ﴿ **فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ** ﴾ قال مجاهد وغير واحد من السلف. إلى كتاب الله وسنة رسوله وهذا أمر من الله عز وجل بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ** ﴾ فما حكم به الكتاب والسنة وشهدا له بالصحة فهو الحق وماذا بعد الحق إلا الضلال، ولهذا قال تعالى: ﴿ **إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾ أي ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر. فدل على أن من لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما في ذلك فليس مؤمنا بالله ولا باليوم الآخر وقوله: ﴿ **ذَلِكَ خَيْرٌ** ﴾

أي التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله والرجوع إليهما في فصل النزاع خير ﴿ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ أي وأحسن عاقبة ومآلا كما قاله السدي وغير واحد، وقال مجاهد وأحسن جزاء وهو قريب أهـ.

وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ الآيات قال (ك) هذا إنكار من الله عز وجل على من يدعي الإيمان بما انزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله كما ذكر في سبب نزول هذه الآية أنها في رجل من الأنصار، ورجل من اليهود تخاصما فجعل اليهودي يقول بيني وبينك محمد، وذاك يقول بيني وبينك كعب بن الأشرف، وقيل في جماعة من المنافقين ممن اظهروا الإسلام أرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهلية، وقيل غير ذلك والآية أعم من ذلك كله فإنها ذامة لمن عدل عن الكتاب والسنة، وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل وهو المراد بالطاغوت هنا ولهذا قال: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ ﴾ إلى آخرها، وقوله: ﴿ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ أي يعرضون عنك إعراضا كالمستكبرين كما قال تعالى في المشركين: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ وهؤلاء بخلاف المؤمنين الذين قال الله فيهم: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ الآية، ثم قال تعالى: في ذم المنافقين: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي فكيف بهم إذا ساقتهم المقادير إليك في مصائب تطرقهم بسبب ذنوبهم، واحتاجوا إليك في ذلك ﴿ ثُمَّ جَآؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴾ أي يعتذرون إليك ويحلفون ما أردنا بذهابنا إلى غيرك، وتحاكمنا إلى أعدائك إلا الإحسان والتوفيق، أي المداراة والمصانعة لا اعتقادا في صحة تلك الحكومة كما أخبر تعالى عنهم في قوله: ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى ﴾، إلى قوله: ﴿ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ وقد قال الطبراني بسنده عن ابن عباس قال: كان أبو برزة الأسلمي كاهنا يقضي بين اليهود فيما يتنافرون فيه فتنافر إليه ناس من المشركين فأنزل الله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى

الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ هذا الضرب من الناس هم المنافقون والله يعلم ما في قلوبهم وسيجزيهم على ذلك فإنه لا تخفى عليه خافية فاكتف به يا محمد فيهم فإنه عالم بظواهرهم وبواطنهم، ولهذا قال له ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ أي لا تعنفهم على ما في قلوبهم ﴿ وَعِظْهُمْ ﴾ أي وانههم عما في قلوبهم من النفاق وسرائر الشر ﴿ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا ﴾ أي وانصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ وادع لهم وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ ﴾. إلى آخر الآيات.

قال (ك) يقول تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ ﴾ أي فرضت طاعته على من أرسل إليهم وقوله ﴿ بِإِذْنِ اللّهِ ﴾ قال مجاهد: أي لا يطيع أحد إلا بإذني يعني لا يطيعه إلا من وفقته لذلك كقوله ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ﴾ أي عن أمره وقدره ومشيئته وتسليطه إياكم عليهم وقوله ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ﴾ الآية يرشد تعالى العصاة والمذنبين إذا وقع منهم الخطأ والعصيان أن يأتوا إلى الرسول ﷺ فيستغفروا الله عنده ويسألوه أن يغفر لهم فإنهم إذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم ورحمهم وغفر لهم ولهذا قال ﴿ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾.

فصل

قال محمد تقي الدين: حديث على، يدلنا على أن الطاعة المطلقة في الإسلام لا تكون إلا لله ولرسوله أما طاعة الله تعالى فلأنه ربنا ومالكنا ونحن عبيده وأما طاعة الرسول ﷺ فلأنه كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ وقال تعالى: ﴿ مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ ﴾ ولأن النبي ﷺ معصوم من الخطأ فيما يبلغنا عن ربه عز وجل وفيما يقول في أمور الدين وأما أولوا الأمر ومنهم ذلك الأمير الذي أمر أصحابه لما غضب عليهم أن يجمعوا حطبا فجمعوه وأوقدت فيه النار فأمرهم أن يدخلوها فأخبر النبي ﷺ أنهم لو أطاعوه ودخلوها لاتصلت لهم بنار جهنم لأن هذا الأمر الذي أمرهم به الأمير منكر والطاعة للأمراء أنما تكون في المعروف لأن الأمراء غير معصومين فقد ينطقون

عن الهوى فإذا أمروا بمعصية الله فلا طاعة لهم وفي الحديث فائدة أخرى وهي أن الشباب أكثر استفادة وفهما للدعوة من الشيوخ لأن الشيوخ أرادوا أن يدخلوا النار فمنعهم الشاب وقال أن هذا الذي أمر به الأمير يمكن أن يكون من هوى نفسه ولا يرضى به النبي ﷺ خصوصا والرجل غضبان والغضب يشبه الجنون فكان رأي الشاب صحيحا موافقًا للحق فقد أقره النبي ﷺ أهـ.

وقول ابن كثير في تفسير طاعة الله وطاعة الرسول أنهما إتباع الكتاب والسنة (رد على من يحتج بأقوال غير المعصوم فيحلل بها ويحرم).

قال محمد تقي الدين: ما قاله الحافظ (ك) في رد كل نزاع إلى الكتاب والسنة واضح لا يحتاج على زيادة بيان فجزاه الله خيرا وقوله كعب بن الأشرف هو قاضي اليهود في المدينة، وقوله فإنها ذامة لمن عدل عن الكتاب والسنة وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل.

قال محمد تقي الدين: فكل قوم حصروا التحاكم في مذهبهم وألزموا الحاكم أن لا يخرج عنه وإن كان مخالفا للكتاب والسنة أو لا دليل عليه منهما أو مما في معناهما فهم متحاكمون إلى الطاغوت الذي أمروا أن يكفروا به وقد أضلهم الشيطان ضلالا بعيدا. وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ الآية دليل قاطع على أن كل من دعى كتاب الله وسنة رسوله للتحاكم أو العبادة أو التخلق أو التحليل والتحريم فلم يجب إلى ذلك أنه من المنافقين وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم ولابد أن تصيبه المصائب ولا ترفع عنه إلا بالتوبة والرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله، وهذه المصيبة التي أصابت المسلمين عموما والعرب خصوصا وهي أن شرذمة قليلة من يهود الآفاق استطاعت أن تغتصب ثالث المساجد المقدسة من ستمائة مليون مسلم ومائة مليون من العرب أكثرهم مسلمون فعجز هؤلاء كلهم أن يستردوا ذلك المسجد المقدس ولما أرادوا أن يستردوه نكصوا على أعقابهم وخسروا أراضي أخرى وقع لهم ذلك أكثر من مرة وإلى الآن لا يزالون يتخبطون في ظلماتهم ولم يهتدوا إلى طريق الخلاص وهو ظاهر لكل من أوتي شيئًا من نور العلم والإيمان ألا وهو الرجوع إلى كتاب الله وسنة الرسول ﷺ ووالله ثم والله لن ترفع عنهم هذه المصيبة إلا بالتوبة إلى الله مما هم فيه من الحكم بغير ما أنزل الله وإتباع غير سبيل المؤمنين،

ونحن لا نستطيع إلا النصيحة والدعاء والله الهادي إلى سواء السبيل وقول (ك) يرشد تعالى العصاة والمذنبين إذا وقع منهم الخطأ والعصيان أن يأتوا إلى الرسول إلى آخره خطأ عظيم لأن الضمائر السبعة تعود على المتحاكمين إلى الطاغوت التاركين التحاكم إلى الله ورسوله وكذلك قوله تعالى: ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ فهذه ستة ضمائر تضاف إلى السبعة المتقدم ذكرها فيصير المجموع ثلاثة عشر ضميرًا كلها للمنافقين وفي هذا حث لهم على التوبة من نفاقهم إلى الله تعالى ومن كمال توبتهم أن يجيؤوا إلى الرسول ﷺ، ويسألوه العفو عن الصدود الذي وقع منهم والإعراض عن التحاكم إليه ويلتمسوا أن يستغفر الله لهم وليس الكلام في عامة العصاة والمذنبين كما توهم الحافظ (ك) والكمال لله لأن ذلك يقتضي أن كل من أذنب ذنبا في حياة النبي ﷺ مأمور أن يأتي إلى النبي ليستغفر له وهذا غير صحيح والطامة الكبرى أنه ذكر بعد ذلك حكاية تدل على المذنبين حتى بعد وفاة النبي ﷺ ينبغي لهم أن يأتوا إلى حجرته التي هو مدفون فيها فيفعلوا ذلك يدل على ذلك الحكاية التي حكاها ولم ينقلها من كتب الحديث بسند أو بغير سند وإنما نسبها إلى شيوخ ذكر منهم واحدا وهو أبو منصور الصباغ وهي حكاية الأعرابي عن العتبي أنه قال كنت جالسا عند قبر النبي ﷺ فجاء أعرابي فقال السلام عليك يا رسول الله سمعت الله يقول: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾.

وقد جئتك مستغفرًا لذنبي مستشفعا بك إلى ربي ثم أنشأ يقول:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه ... فطاب من طيبهن القاع والأكم

نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه ... فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف الأعرابي فغلبتني عيني فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال: يا عتبى ألحق الأعرابي فبشره أن الله قد غفر له أ هـ.

قال محمد تقي الدين: قوله كنت جالسا عند قبر النبي ﷺ ظاهره باطل لأن بينه وبين قبر النبي جداران وحائط بيت عائشة وقد حفظ الله قبر النبي ﷺ فلم تره عين ولم تمسه يد بعد زمان الصحابة رضوان الله عليهم وفي زمان الصحابة كانت أم المؤمنين عائشة ساكنة في بيتها

الذي في حجرته القبور الثلاثة ولم يأت أحد قط من الصحابة لا أبو بكر، لا عمر، ولا عثمان، ولا على ولا غيرهم إلى بيت عائشة ويستأذن في زيارة قبر النبي ﷺ اللهم إلا عمر بعث ابنه عبد الله إلى عائشة يستأذنها أن يدفن مع صاحبيه لما حضرته الوفاة فأذنت ودفن مع صاحبيه في مكان واحد ولو كان إتيان القبر مشروعا لكل مذنب لما قدرت عائشة أن تسكن في بيتها لكثرة المذنبين المستأذنين ولكن ذلك لم يفعله أحد لا في زمان الصحابة ولا في زمان التابعين فيما نعلم ولو فعله أحد لكان مبتدعا لأن الله لم يأمر به ولا أمر به رسوله ﷺ ولا فعله الصحابة ولا الأئمة المقتدى بهم وحكاية العتبى مكذوبة وخارجة عن الصراط المستقيم ودونك ما فسر به المحققون هذه الآية قال ابن الجوزي في تفسير المسمى زاد المسير ما نصه، وقوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ** ﴾ يرجع إلى المتحاكمين الذين سبق ذكرهم، قال ابن عباس: ظلموا أنفسهم بتركهم قضاء الرسول ﴿ **جَآءُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللَّهَ** ﴾ من صنيعهم، وقال العلامة صديق حسن القنوجي في تفسيره المسمى بفتح البيان ما نصه: ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ** ﴾ بترك طاعتك والتحاكم إلى غيرك من الطاغوت وغيره، جاءوك تائبين من النفاق متنصلين عن جناياتهم ومخالفاتهم ﴿ **فَاسْتَغْفَرُواْ اللَّهَ** ﴾ لذنوبهم بالتوبة والإخلاص وقمت شفيعا فاستغفرت لهم وإنما قال واستغفر لهم الرسول، على طريقة الالتفات لقصد التفخيم لشأن الرسول ﷺ وتعظيما لاستغفاره وإجلالا للمجئ إليه لوجدوا الله توابا رحيما » أي كثير التوبة عليهم والرحمة لهم وهذا المجئ يختص بزمان حياته ﷺ وليس المجئ إليه يعني إلى قبره بعد وفاته مما تدل عليه هذه الآية الكريمة كما قرره في الصارم المنكي ولهذا لم ذهب إلى هذا الاحتمال البعيد أحد من سلف الأمة وأئمتها لا من الصحابة ولا من التابعين ولا ممن تبعهم بالإحسان، وقال جمال الدين القاسمي في تفسيره ما نصه: ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ** ﴾ هذا الظلم العظيم غاية العظم، إذ عرضوها لعذاب على عذاب بالنفاق، بترك طاعتك والتحاكم إلى الطاغوت ﴿ **جَآءُوكَ** ﴾ تائبين من النفاق متنصلين عما ارتكبوا ﴿ **فَاسْتَغْفَرُواْ اللَّهَ** ﴾ من ذلك وتابوا إليه تعالى من صنيعهم ﴿ **وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ** ﴾ أي دعا لهم بالمغفرة، فكان استغفاره شفاعة لقبول استغفارهم ﴿ **لَوَجَدُواْ اللَّهَ تَوَّابًا** ﴾ أي قابلا لتوبتهم ﴿ **رَّحِيمًا** ﴾ أي متفضلا عليهم بالرحمة وراء قبول التوبة.

تنبيهات: الأول، دلت الآية على أن توبة المنافق مقبولة عند الله وفاقا، وأما في الظاهر، فظاهر الآية قبولها، لأنه جعل النبي ﷺ مستغفرا لهم وشافعا، وعن الراضي بالله في « الباطنية » أن أظهروا شبههم وما يعتدون كتمه دل ذلك على صدق توبتهم، فتقبل: وإلا فلا، ودلت الآية على أن من تكررت منه المعصية والتوبة صحت توبته لقوله تعالى ﴿ تَوَّابًا ﴾ وذلك ينبئ عن التكرار. كذا في بعض التفاسير.

الثاني: قال الرازي: لقائل أن يقول: أليس لو استغفروا الله وتابوا على وجه صحيح، لكانت توبتهم مقبولة ؟ فما الفائدة في ضم استغفار الرسول إلى استغفارهم: قلنا: الجواب عنه من وجوه: الأول — أن ذلك التحاكم إلى الطاغوت كان مخالفة لحكم الله، وكان أيضا إساءة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ومن كان ذنبه كذلك وجب عليه الاعتذار عن ذلك الذنب لغيره، فلهذا المعني وجب عليهم أن يطلبوا من الرسول أن يستغفر لهم « الثاني » أن القوم لما لم يرضوا بحكم الرسول ظهر منهم ذلك التمرد. فإذا تابوا وجب عليهم أن يفعلوا ما يزيل عنهم ذلك التمرد، وما ذلك إلا بأنهم يذهبون إلى الرسول ﷺ ويطلبون منه الاستغفار « الثالث » لعلهم إذا أتوا بالتوبة أتوا بها على وجه الخلل، فإذا انضم إليها استغفار الرسول صارت مستحقة للقبول أهـ. وفي الجلالين ما نصه ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم بتحاكمهم إلى الطاغوت « جاءوك تائبين » ﴿ فَاسْتَغْفَرُواْ اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ ﴾ فيه التفات عن الخطاب تفخيما لشأنه ﴿ لَوَجَدُواْ اللَّهَ تَوَّابًا ﴾ عليهم ﴿ رَّحِيمًا ﴾ بهم: وقال البيضاوي في تفسيره ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ﴾ بالنفاق أو التحاكم إلى الطاغوت ﴿ جَآؤُوكَ ﴾ تائبين من ذلك وهو خبر إن وإذ متعلق به ﴿ فَاسْتَغْفَرُواْ اللَّهَ ﴾ بالتوبة والإخلاص ﴿ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ ﴾ واعتذروا إليك حتى انتصبت لهم شفيعا وإنما عدل عن الخطاب تفخيما لشأنه وتنبيها على أن من حق الرسول أن يقبل اعتذار التائب وإن عظم جرمه ويشفع له ومن منصبه أن يشفع في كبائر الذنوب ﴿ لَوَجَدُواْ اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ لعلموه قابلا لتوبتهم متفضلا عليهم بالرحمة وقد تبين من كلام هؤلاء المفسرين صحة ما ذكرت من قبل وخطأ الحافظ بن كثير فالله يغفر له ويرحمه ثم رأيت أن أنقل تفسير الآيات المتقدمة من كلام الحافظ بن القيم مع ما فيه من التكرار لما رأيت فيه من الفائدة العظيمة

لطلبة العلم في هذا الزمان قال ابن القيم في المجلد الأول من أعلام الموقعين صفحة ٥٣ ما نصه: فصل في تحريم الإفتاء في دين الله بالرأي المتضمن لمخالفة النصوص والرأي الذي لم تشهد له النصوص بالقبول، قال الله تعالى: ﴿ **فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ فقسم الأمر إلى أمرين لا ثالث لهما أما الاستجابة لله والرسول وما جاء به وأما إتباع الهوى فكل ما لم يأت به الرسول فهو من الهوى وقال الله تعالى: ﴿ **يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ** ﴾ فقسم سبحانه طريق الحكم بين الناس إلى الحق وهو الوحي الذي أنزله الله على رسوله وإلى الهوى وهو ما خالفه وقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ** ﴾، فقسم الأمر بين الشريعة التي جعله هو سبحانه عليها وأوحى إليه العمل بها وأمر الأمة بها وبين اتباع أهواء الذين لا يعلمون فأمر بالأول ونهى عن الثاني وقال الله تعالى: ﴿ **اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ** ﴾ فأمر باتباع المنزل منه خاصة واعلم أن من اتبع غيره فقد اتبع من دونه أولياء، وقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً** ﴾ فأمر الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله وأعاد الفعل إعلامًا بأن طاعة الرسول تجب استقلالاً من غير عرض ما أمر به على الكتاب والسنة بل إذا أمر وجبت طاعته مطلقًا سواء كان ما أمر به في الكتاب أم لم يكن فيه فإنه أوتي الكتاب ومثله معه ولم يأمر بطاعة أولي الأمر استقلالاً بل حذف الفعل وجعل طاعتهم في ضمن طاعة الرسول إيذانًا بأنهم إنما يطاعون تبعًا لطاعة الرسول فمن أمر منهم بطاعة الرسول وجبت طاعته ومن أمر بخلاف ما جاء به الرسول فلا سمع له ولا طاعة كما صح عنه ﷺ أنه قال: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق وقال إنما الطاعة في المعروف وقال في ولاة الأمور ومن أمركم منهم بمعصية الله فلا سمع له ولا طاعة وقد أخبر ﷺ عن الذين

أرادوا دخول النار لما أمرهم أميرهم بدخولها أنهم لو دخلوها لما خرجوا منها مع أنهم إنما أرادوا أن يدخلوها طاعة لأميرهم وظنًا أن ذلك واجب عليهم ولكن لما قصروا في الاجتهاد وبادروا إلى طاعة من أمر بمعصية الله وحملوا عموم الأمر بالطاعة بما لم يرده الآمر ﷺ وما قد علم من دينه إرادة خلافه فقصروا في الاجتهاد وأقدموا على تعذيب أنفسهم وإهلاكها من غير تثبت وتبين هل ذلك طاعة الله ورسوله أولاً فما الظن بمن أطاع غيره في صريح مخالفة ما بعث الله به رسوله ثم أمر الله تعالى برد ما تنازع فيه المؤمنون إلى الله ورسوله إن كانوا مؤمنين وأخبر أن ذلك خير لهم في العاجل وأحسن تأويلاً في العاقبة. **وقد تضمن هذا أمورًا؛** منها: أن أهل الإيمان قد يتنازعون في بعض الأحكام ولا يخرجون بذلك عن الإيمان وقد تنازع الصحابة في كثير من مسائل الأحكام وهم سادة المؤمنين وأكمل الأمة إيمانًا ولكن بحمد الله لم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتاب والسنة كلمة واحدة من أولهم إلى آخرهم لم يسوموها تأويلاً ولم يحرفوها عن مواضعها تبديلاً ولم يبدوا لشيء منها إبطالاً ولا ضربوا لها أمثالاً ولم يدفعوا في صدورها وإعجازها ولم يقل أحد منهم يجب صرفها عن حقائقها وحملها على مجازها بل تلقوها بالقبول والتسليم وقابلوها بالإيمان والتعظيم وجعلوا الأمر فيها كلها أمرًا واحدًا وأجروها على سنن واحد ولم يفعلوا كما فعل أهل الأهواء والبدع حيث جعلوها عضين واقروا ببعضها وأنكروا بعضها من غير فرقان مبين مع أن اللازم لهم فيما أنكروه كاللازم فيما أقروا به وأثبتوه « والمقصود » أن أهل الإيمان لا يخرجهم تنازعهم في بعض مسائل الأحكام عن حقيقة الإيمان إذا ردوا ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله كما شرطه الله عليهم بقوله فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ولا ريب أن الحكم المعلق على شرط ينتفي عند انتفائه « ومنها » أن قوله فإن تنازعتم في شيء نكرة في سياق الشرط تعم كل ما تنازع فيه المؤمنون من مسائل الدين ودقة وجله وجلية وخفية ولو لم يكن في كتاب الله وسنة رسوله بيان حكم ما تنازعوا فيه ولو لم يكن كافيًا لم يأمر بالرد إليه إذ من الممتنع أن يأمر تعالى بالرد عند النزاع إلى من لا يوجد عنده فصل النزاع « ومنها » أن الناس أجمعوا أن الرد إلى الله سبحانه هو الرد إلى كتابه والرد إلى الرسول ﷺ هو الرد إليه نفسه

في حياته وإلى سنته بعد وفاته « ومنها » أنه جعل هذا الرد من موجبات الإيمان ولوازمه فإذا انتفى هذا الرد انتفى الإيمان ضرورة انتفاء الملزوم لانتفاء لازمه ولاسيما التلازم بين هذين الأمرين فإنه من الطرفين وكل منهما ينتفي بانتفاء الآخر ثم أخبرهم أن هذا الرد خير لهم وأن عاقبته أحسن عاقبة ثم أخبر سبحانه أن من تحاكم أو حاكم إلى غير ما جاء به الرسول فقد حكم الطاغوت وتحاكم إليه والطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله أو يعبدونه من دون الله أو يتبعونه على غير بصيرة من الله أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة الله فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم فروا من عبادة الله إلى عبادة والطاغوت وعن التحاكم إلى الله وإلى الرسول إلى التحاكم إلى الطاغوت وعن طاعته ومتابعة رسوله وهؤلاء لم يسلكوا طريق الناجحين الفائزين من هذه الأمة وهم الصحابة ومن تبعهم ولا قصدوا قصدهم بل خالفوهم في الطريق والقصد معا ثم أخبر تعالى عن هؤلاء بأنهم إذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول أعرضوا عن ذلك ولم يستجيبوا للداعي ورضوا بحكم غيره ثم توعدهم بأنهم إذا أصابتهم مصيبة في عقولهم وأديانهم وبصائرهم وأبدانهم وأموالهم بسبب إعراضهم عما جاء به الرسول وتحكيم غيره والتحاكم إليه كما قال تعالى: ﴿ **فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ** ﴾ اعتذروا بأنهم إنما قصدوا الإحسان والتوفيق أي بفعل ما يرضي الفريقين ويوفق بينهما كما يفعله من يروا التوفيق بين ما جاء به الرسول وبين ما خالفه ويزعم أنه بذلك محسن قاصد الإصلاح والتوفيق، والإيمان إنما يقتضي إلقاء الحرب بين ما جاء به الرسول وبين كل ما خالفه من طريقة وعقيدة وسياسة ورأي فمحض الإيمان في هذا الحرب لا في التوفيق، وبالله التوفيق (ثم أقسم سبحانه) بنفسه على نفي الإيمان عن العباد حتى يحكموا رسوله في ما شجر بينهم من الدقيق والجليل ولم يكتف في إيمانهم بهذا التحكيم بمجرده حتى ينتفي عن صدورهم الحرج والضيق عن قضائه وحكمه ولم يكتف منهم أيضًا بذلك حتى يسلموا تسليمًا وينقادوا انقيادًا وقال تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ** ﴾ فأخبر سبحانه أنه ليس لمؤمن أن يختار بعد قضائه وقضاء

رسوله ومن تخير بعد ذلك فقد ضل ضلالاً مبينًا وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي لا تقولوا حتى يقول ولا تأمروا حتى يأمر ولا تفتوا حتى يفتي ولا تقطعوا أمرًا حتى يكون هو الذي يحكم فيه ويمضيه، روي على بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة. وروي العوفي عنه قال: نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه « والقول » الجامع في معنى الآية لا تعجلوا بقول ولا فعل قبل أن يقول رسول الله ﷺ أو يفعل وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ فإذا كان رفع أصواتهم فوق صوته سببًا لحبوط أعمالهم فكيف تقديم آرائهم وعقولهم وأذواقهم وسياساتهم ومعارفهم على ما جاء به ورفعها عليه أليس هذا أولى أن يكون محبطًا لأعمالهم، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾ فإذا جعل من لوازم الإيمان أنهم لا يذهبون مذهبًا إذا كانوا معه إلا باستئذانه فأولى أن يكون من لوازمه أن لا يذهبوا إلى قول ولا مذهب علمي إلا بعد استئذانه وإذنه يعرف بدلالة ما جاء به على أنه أذن فيه، وفي صحيح البخاري عن عروة بن الزبير قال خرج علينا عبد الله بن عمرو بن العاص فسمعته يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله لا ينزع العلم بعد إذ أعطاكموه انتزاعًا ولكن ينزعه مع قبض العلماء بعلمهم فيبقي ناس جهال يستفتون فيفتون برأيهم فيضلون ويضلون ثم ذكر بسنده إلى عوف بن مالك الأشجعي قال: قال رسول الله ﷺ: تفترق أمتي على بضع وسبعين فرقة أعظمها فتنة قوم يقيسون الدين برأيهم يحرمون ما أحل الله ويحلون ما حرم الله قال أبو عمر بن عبد البر هذا هو القياس على غير أصل والكلام في الدين بالخرص والظن ألا ترى إلى قوله في الحديث يحلون الحرام ويحرمون الحلال ومعلوم أن الحلال ما في كتاب الله وسنة رسوله تحليله والحرام ما في كتاب الله وسنة رسوله تحريمه فمن جهل ذلك وقال فيما سئل عنه بغير علم وقاس برأيه ما خرج منه عن السنة فهذا الذي قاس الأمور برأيه فضل وأضل ومن رد الفروع إلى أصولها فلم يقل برأيه ثم قال: فصل فيما روينا عن صديق الأمة وأعلمها من إنكار الرأي روينا عن حمير بن حميد وذكر سنده إلى ابن أبي مُليكة قال:

لم يكن أحد أهيب بما لا يعلم من أبي بكر ﷺ ولم يكن أحد بعد أبي بكر أهيب لما لا يعلم من عمر ﷺ وأن أبا بكر نزلت به قضية فلم يجد في كتاب الله منها أصلاً ولا في السنة أثرًا فاجتهد برأيه ثم قال هذا رأيي فإن يكن صوابًا فمن الله وإن يكن خطأ فمني وأستغفر الله ثم قال (فصل) في المنقول من ذلك عن عمر بن الخطاب ﷺ قال ابن وهب بسنده عن ابن شهاب أن عمر بن الخطاب ﷺ قال وهو على المنبر: يا أيها الناس إن الرأي إنما كان من رسول الله ﷺ مصيبًا إن الله كان يريه وإنما هو منا الظن والتكلف « قلت » مراد عمر ﷺ قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾. فلم يكن له رأي غير ما أراه الله إياه وأما ما رأى غيره فظن وتكلف، قال: سفيان الثوري بسنده عن مسروق قال: كتب كاتب لعمر بن الخطاب هذا ما رأى الله ورأى عمر فقال بئسما قلت قل هذا ما رأى عمر فإن يكن صوابًا فمن الله وإن يكن خطأ فمن عمر: وعنه أيضًا أنه قال: السنة ما سنه الله ورسوله ﷺ لا تجعلوا خطأ الرأي سنة للأمة وقال: اتقوا الرأي في دينكم وكان يقول: أصحاب الرأي أعداء السنن أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها وتفلتت منهم أن يعوها واستحيوا حين سئلوا أن يقولوا لا أدري فعارضوا السنن برأيهم فإياكم وإياهم، وذكر محمد بن عبد السلام الخشني بسنده عن ابن عمر أن عمر بن الخطاب قال: يا أيها الناس اتهموا الرأي في الدين فلقد رأيتني وإني لا رد أمر رسول الله ﷺ برأيي فأجتهد، ولا آلو. وذلك يوم أبي جندل والكتاب يكتب وقال اكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم فقال النائب عن المشركين سهيل بن عمرو اكتب باسمك اللهم فرضي رسول الله ﷺ وأبيت فقال يا عمر تراني قد رضيت وتأبى وقال أبو بكر بن شيبة بسنده إلى رفاعة بن رافع قال بينما أنا عند عمر بن الخطاب ﷺ إذ دخل عليه رجل فقال يا أمير المؤمنين هذا زيد بن ثابت يفتي الناس في المسجد برأيه في الغسل من الجنابة فقال: عمر علي به فجاء زيد فلما رآه عمر قال عمر أي عدو نفسه قد بلغت أن تفتي الناس برأيك فقال يا أمير المؤمنين والله ما فعلت ولكن سمعت من أعمامي حديثًا فحدثت به من أبي أيوب ومن أبي بن كعب ومن رفاعة بن رافع فقال عمر: على برفاعة بن رافع فقال: قد كنتم تفعلون ذلك إذا أصاب أحدكم المرأة فأكسل أن يغتسل قال قد كنا نفعل ذلك على عهد رسول الله ﷺ لم يأتنا فيه

عن الله تحريم ولم يكن فيه عن رسول الله ﷺ شيء فقال عمر ورسول الله ﷺ يعلم ذلك قال ما أدري فأمر عمر بجمع المهاجرين والأنصار فجمعوا وشاورهم فأشار الناس أن لا غسل إلا ما كان من معاذ وعلي فإنهما قالا إذا جاوز الختان الختان وجب الغسل فقال عمر هذا وأنتم أصحاب بدر قد اختلفتم فمن بعدكم أشد اختلافًا فقال علي: يا أمير المؤمنين ليس أحد أعلم بهذا من شأن رسول الله ﷺ من أزواجه فأرسل إلى حفصة فقالت لا علم لي فأرسل إلى عائشة فقالت: إذا جاوز الختان الختان فقد وجب الغسل فقال لا أسمع برجل فعل ذلك إلا أوجعته ضربًا (قول عبد الله بن مسعود) قال البخاري بسنده إلى مسروق أن عبد الله بن مسعود قال: لا يأتي عليكم عام إلا وهو شر من الذي قبله أما إني لا أقول أمير خير من أمير ولا عام أخصب من عام ولكن فقهاؤكم يذهبون ثم لا تجدون منهم خلفًا ويجيء قوم يقيسون الأمور برأيهم، وقال ابن وهب ثنا شقيق عن مجاهد به قال ولكن ذهاب خياركم وعلمائكم ثم يحدث قوم يقيسون الأمور برأيهم فينهدم الإسلام. وقال ابن أبي شيبة بسنده إلى مسروق أن عبد الله قال علماؤكم يذهبون ويتخذ الناس رؤوسًا جهالاً يقيسون الأمور برأيهم وقال سيد بن داوود بسنده إلى الربيع بن خيثم أن عبد الله قال: ما علمك الله في كتابه فاحمد الله وما استأثر به عليك من علم فكله إلى عالمه ولا تتكلف فإن الله عز وجل يقول لنبيه: ﴿ **قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ** ﴾. وقال سعيد بن منصور بسنده إلى الشعبي أن عبد الله قال إياكم وأرأيت أرأيت فإنما هلك من كان قبلكم بأرأيت رأيت ولا تقيسوا شيئًا فتزل قدم بعد ثبوتها وإذا سئل أحدكم عما لا يعلم فليقل لا أعلم فإنه ثلث العلم. وصح عنه في المفوضة أنه قال أقول فيها برأي فإن يكن صوابًا فمن الله وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان والله ورسوله بريء منه.
(قول عثمان بن عفان): قال محمد بن إسحاق بسنده عن عبيد الله بن الزبير قال: أنا والله مع عثمان بن عفان بالجحفة إذ قال عثمان وذكر له التمتع بالعمرة إلى الحج أتموا الحج وأخلصوه في أشهر الحج فلو أخرتم هذه العمرة حتى تزوروا هذا البيت زورتين كان أفضل فإن الله قد أوسع في الخير فقال له على عمدت إلى سنة رسول الله ﷺ ورخصة رخص الله للعباد بها في كتابه تضيق عليهم فيها وتنهي عنها وكانت لذي الحاجة والنائي الدار ثم أهل

على بعمرة وحج معا فأقبل عثمان بن عفان ﷺ على الناس فقال: أنهيت عنها أني لم أنه عنها إنما كان رأيًا أشرت به فمن شاء أخذه ومن شاء تركه فهذا عثمان يخبر عن رأيه أنه ليس بلازم للأمة الأخذ به بل من شاء أخذ به ومن شاء تركه بخلاف سنة رسول الله ﷺ فإنه لا يسع أحدًا تركها لقول أحد كائنًا من كان. (قول على بن أبي طالب): قال أبو داوود بسنده إلى على بن أبي طالب قال لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه. (قول عبد الله بن عباس): عن ابن عباس أنه قال من أحدث رأيًا ليس في كتاب الله ولم تمض به سنة من رسول الله ﷺ لم يدر على ما هو منه إذا لقي الله عز وجل وعنه أنه قال: إنما هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فمن قال بعد ذلك برأيه فلا أدري أفي حسناته يجد ذلك أم في سيئاته وقال من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار. (قول سهيل بن حنيف): قال سهل بن حنيف أيها الناس أتهموا رأيكم على دينكم لقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله ﷺ لرددته. (قول عبد الله بن عمر) كان عبد الله بن عمر إذا لم يجد في الأمر يسأل عنه شيئًا قال إن شئتم أخبرتكم بالظن.

وروي البخاري بسنده إلى جابر بن زيد قال: لقيني ابن عمر فقال يا جابر إنك من فقهاء البصرة وتستفتي فلا تفتين إلا بكتاب ناطق أو سنة ماضية، وقال مالك عن نافع عنه: العلم ثلاث كتاب الله الناطق وسنة ماضية ولا أدري. (قول زيد بن ثابت): وقال البخاري بسنده إلى الشعبي قال: أتى زيد بن ثابت قوم فسألوه عن أشياء فأخبرهم بها فكتبوها ثم قالوا: لو أخبرناه قال: فأتوه فأخبروه، فقال: أغدرا لعل كل شيء حدثتكم خطأ إنما اجتهدت لكم برأي. (قول معاذ بن جبل): قال معاذ بن جبل: تكون فتن فيكثر فيها المال ويفتح القرآن حتى يقرأه الرجل والمرأة والصغير والكبير والمنافق والمؤمن فيقرؤه الرجل فلا يتبع فيقول والله لا أقرأنه علانية فيقرؤه علانية فلا يتبع فيتخذ مسجدًا ويبتدع كلامًا ليس من كتاب الله ولا من سنة رسوله ﷺ فإياكم وإياه فإنه بدعة وضلالة قال معاذ ثلاث مرات (قول أبي موسى الأشعري): قال البغوي بسنده إلى أبي رجاء العطار أن أبا موسى الأشعري قال: من كان عنده علم فليعلمه الناس وإن لم يعلم فلا يقولن ما ليس له به علم فيكون من المتكلفين ويمرق من الدين. (قول معاوية بن أبي سفيان) قال البخاري بسنده

عن محمد بن جبير بن مطعم أنه كان عند معاوية وفد من قريش فقام معاوية فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: أما بعد، فإنه قد بلغني أن رجالاً فيكم يتحدثون بأحاديث ليست في كتاب الله ولا تؤثر عن رسول الله ﷺ فأولئكم جهالكم « فهؤلاء » من الصحابة أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وزيد بن ثابت وسهل بن حنيف ومعاذ بن جبل ومعاوية وأبو موسى الأشعري ﷺ يخرجون الرأي عن العلم ويذمونه ويحذرون منه وينهون عن الفتيا ومن اضطر منهم إليه أخبر أنه ظن وأنه ليس على ثقة منه وأنه يجوز أن يكون منه ومن الشيطان وأن الله ورسوله بريء منه وأن غايته أن يسوغ الأخذ به عند الضرورة من غير لزوم لاتباعه ولا العمل به فهل تجد عن أحد منهم قط أنه جعل رأي رجل بعينه دينًا تترك له السنن الثابتة عن رسول الله ﷺ ويبدع ويضلل من خالفه إلى اتباع السنن فهؤلاء ترك الإسلام وعصابة الإيمان وأئمة الهدى ومصابيح الدجى وأنصح الأئمة للأمة وأعلمهم بالأحكام وأدلتها وأفقههم في دين الله وأعمقهم علما وأقلهم تكلفًا وعليهم دارت الفتيا وعنهم انتشر العلم وهم فقهاء الأمة ومنهم من كان مقيمًا بالكوفة كعلي وابن مسعود وبالمدينة كعمر بن الخطاب وابنه وزيد بن ثابت وبالبصرة كأبي موسى الأشعري وبالشام كمعاذ بن جبل ومعاوية بن أبي سفيان وبمكة كعبد الله بن عباس وبمصر كعبد الله ابن عمرو بن العاص وعن هذه الأمصار انتشر العلم في الآفاق وأكثر من روي عنه التحذير من الرأي من كان بالكوفة إرهاصًا بين يدي ما علم الله سبحانه يحدث فيها بعدهم ثم قال:

فصل

ونحن نذكر آراء التابعين ومن بعدهم بذلك ليتبين مرادهم، قال الخشني بسنده عن الشعبي قال: لعن الله أرأيت ؟ وسأل صالح بن مسلم الشعبي عن مسألة من النكاح، فقال: إن خبرتك برأيي قبل عليه قالوا فهذا قول الشعبي في رأيه وهو من كبار التابعين وقد لقي مائة وعشرين من الصحابة وأخذ عن جمهورهم، وقال الطحاوي بسنده عن الشعبي قال: ما جاءكم به هؤلاء من أصحاب رسول الله ﷺ فخذوه وما كان من رأيهم فاطرحوه في الحش وقال البخاري بسنده إلى عمرو بن دينار قال: قيل لجابر بن زيد إنهم يكتبون ما يسمعون

منك قال: إنا لله وإنا إليه راجعون يكتبونه وأنا أرجع عنه غدا. قال إسحاق بن راهوية قال سفيان بن عيينة اجتهاد الرأي هو مشاورة أهل العلم لا أن يقول هو برأيه، وقال بن أبي خيثمة بسنده إلى عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى الناس أنه لا رأي لأحد مع سنة سنها رسول الله ﷺ قال أبو بصيرة سمعت أبا أسامة بن عبد الرحمن يقول للحسن البصري بلغني أنك تفتي برأيك فلا تفت برأيك إلا أن يكون سنة عن رسول الله ﷺ. وقال البخاري بسنده إلى عبد الواحد بن الزبرقان بن عبد الله الأسيدي أن أبا وائل شقيق بن سلمة قال إياك ومجالسة من يقول أرأيت أرأيت وقال أبان بن عيسى بن دينار بسنده إلى مالك أن ابن شهاب قال: دعوا السنة تمضي لا تعرضوا لها بالرأي وقال: يونس عن أبي الأسود وهو محمد بن عبد الرحمن بن نوفل سمعت عروة بن الزبير يقول ما زال أمر بني إسرائيل معتدلاً حتى نشأ فيهم المولدون أبناء سبايا الأمم فأخذوا فيهم بالرأي فأضلوهم وذكر بن وهب عن ابن شهاب أنه قال: وهو يذكر ما وقع فيه الناس من هذا الرأي وتركهم السنن فقال: إن اليهود والنصارى إنما انسلخوا من العلم الذي بأيديهم حين اتبعوا الرأي وأخذوا فيه وقال ابن وهب حدثني بن لهيعة أن رجلاً سأل سالم بن عبد الله بن عمر عن شيء فقال لم أسمع في هذا شيئًا فقال له الرجل فأخبرني أصلحك الله برأيك فقال لا ثم أعاد عليه فقال إني أرضى برأيك فقال سالم إني لعلى إن أخبرتك برأيي ثم تذهب فأرى بعد ذلك رأيًا غيره فلا أجدك وقال البخاري بسنده عن مالك بن أنس قال: كان ربيعة يقول لابن شهاب أن حالي ليس يشبه حالك أنا أقول برأيي من شاء أخذه وعمل به ومن شاء تركه وقال الفريابي بسنده إلى حماد بن زيد قال لأيوب السختياني مالك لا تنظر في الرأي فقال أيوب: قيل للحمار مالك لا تجتر قال أكره مضغ الباطل وقال الأوزاعي عليك بآثار من سلف وإن رفضك الناس وإياك وآراء الرجال وإن زخرفوا لك القول وكان سعيد بن عبد العزيز إذا سئل لا يجيب حتى يقول لا حول ولا قوة إلا بالله هذا الرأي والرأي يخطئ ويصيب وقال أبو حنيفة علمنا هذا رأي وهو أحسن ما قدرنا عليه ومن جاءنا بأحسن منه قبلناه منه وقال أشهب بن عبد العزيز كنت عند مالك فسئل عن البتة فأخذت: لوحي لأكتب ما قال مالك لا تفعل فعسى في العشى أقول إنها واحدة وقال معن بن عيسى القزاز سمعت مالكًا يقول

إنما أنا بشر أخطئ وأصيب فانظروا في قولي فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به وما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه « فرضي الله » عن أئمة الإسلام وجزاهم عن نصيحتهم خيرًا ولقد امتثل وصيتهم وسلك سبيلهم أهل العلم والدين من أتباعهم (وأما المتعصبون) فإنهم عكسوا القضية ونظروا في السنة فما وافق أقوالهم منها قبلوه وما خالفها تحيلوا في رده أو رد دلالته وإذا جاء نظير ذلك أو أضعف منه سندا ودلالة وكان يوافق قولهم لم يستجيروا رده واعترضوا به على منازعهم وأشاعوا وقرروا الاحتجاج بذلك السند ودلالته فإذا جاء ذلك السند بعينه أو أقوى منه ودلالته كدلالة ذلك أو أقوى منه في خلاف قولهم دفعوه ولم يقبلوه وسنذكر من هذا إن شاء الله طرفًا عند ذكر غائلة التقليد وفساده والفرق بينه وبين الاتباع وقال بقي بن مخلد بسنده عن مالك أنه كان يكثر أن يقول: إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين وقال القعنبي: دخلت على مالك بن أنس في مرضه الذي مات فيه فسلمت عليه ثم جلست فرأيته يبكي فقلت له يا أبا عبد الله ما الذي يبكيك فقال: لي يا ابن قعنب ومالي لا أبكي ومن أحق بالبكاء مني والله لوددت أني ضربت بكل مسألة أفتيت فيها بالرأي سوطًا وقد كانت لي السعة فيما قد سبقت إليه وليتني لم أفت بالرأي وقال ابن أبي داود بسنده إلى الشافعي أنه قال: مثل الذي ينظر في الرأي ثم لا يتوب منه مثل المجنون الذي عولج حتى برأ كأعقل ما يكون ثم عاد إليه الجنون. وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل سمعت أبي يقول: الحديث الضعيف أحب إلى من الرأي فقال عبد الله سألت أبي عن الرجل يكون ببلد لا يجد فيه إلا صاحب حديث لا يعرف صحيحه من سقيمه وأصحاب رأي فتنزل به النازلة فقال أبي يسأل أصحاب الحديث ولا يسأل أصحاب الرأي ضعيف الحديث أقوى من الرأي، وأصحاب أبي حنيفة رحمه الله مجمعون على أن مذهب أبي حنيفة أن ضعيف الحديث عنده أولى من القياس والرأي وعلى ذلك بني مذهبه كما تقدم حديث الوضوء بنبيذ التمر في السفر مع ضعفه على الرأي والقياس ومنع قطع السارق بسرقة أقل من عشرة دراهم والحديث فيه ضعيف وجعل أكثر الحيض عشرة أيام والحديث فيه ضعف وشرط في إقامة الجمعة المصر والحديث فيه كذلك وترك القياس المحض في مسائل الآبار لآثار فيها غير مرفوعة قط فتقديم الحديث الضعيف وآثار الصحابة على القياس والرأي قوله وقول الإمام

أحمد وليس المراد بالحديث الضعيف في اصطلاح السلف هو الضعيف في اصطلاح المتأخرين بل ما يسميه المتأخرون حسنًا قد يسميه المتقدمون ضعيفًا كما تقدم بيانه والمقصود أن السلف جميعهم على ذم الرأي والقياس المخالف للكتاب والسنة وأنه لا يحل العمل به لا فتيا ولا قضاء وأن الرأي الذي لا يعلم مخالفته للكتاب والسنة ولا موافقته فغايته أن يسوغ العمل به عند الحاجة إليه من غير إلزام ولا إنكار على من خالفه، قال أبو عمر بن عبد البر بسنده عن عبد الله بن يحيى أن أباه كان يأتي ابن وهب فيقول له: من أين ؟ فيقول له من عند ابن القاسم فيقول له ابن وهب: اتق الله: فإن أكثر هذه المسائل رأي، وقال الحافظ أبو محمد بسنده عن أبان بن عيسى بن دينار قال: كان أبي قد أجمع على ترك الفتيا بالرأي وأحب الفتيا بما روي من الحديث فأعجلته المنية عن ذلك وقال أبو عمر وروي عن الحسن بن واصل أنه قال: إنما هلك من كان قبلكم حين تشعبت بهم السبل وحادوا عن الطريق وتركوا الآثار وقالوا في الدين برأيهم فضلوا وأضلوا، قال أبو عمر بسنده عن مسروق من يرغب برأيه عن أمر الله يضل وذكر ابن وهب بسنده عن رجل من قريش أنه سمع ابن شهاب يقول: وهو يذكر ما وقع فيه الناس من هذا الرأي وتركهم السنن فقال أن اليهود والنصارى إنما انسلخوا من العلم الذي كان بأيديهم حيث اشتقوا الرأي وأخذوا فيه وذكر ابن جرير في كتاب تهذيب الآثار عن مالك قال: قبض رسول الله ﷺ وقد تم هذا الأمر واستكمل فإنما ينبغي أن تتبع آثار رسول الله ﷺ ولا يتبع الرأي فإنه من اتبع الرأي جاء رجل آخر أقوى منه في الرأي فاتبعه فأنت كلما جاء رجل غلبك اتبعته، وقال نعيم بسنده عن عبد الله بن وهب أن رجلاً جاء إلى القاسم بن محمد فسأله عن شيء فأجابه فلما ولى الرجل دعاه فقال له لا تقل أن القاسم زعم أن هذا هو الحق ولكن إذا اضطررت إليه عملت به وقال: أبو عمر بسنده إلى مالك بن أنس وهو ينكر كثرة الجواب للمسائل يا عبد الله ما علمته فقل به ودل عليه وما لم تعلم فاسكت وإياك أن تتقلد للناس قلادة سوء، وقال أبو عمر بسنده إلى سحنون قال: ما أدري ما هذا الرأي سفكت به الدماء واستحلت به الفروج واستحقت به الحقوق غير أنا رأينا رجلاً صالحًا فقلدناه وقال سلمة بن شبيب سمعت أحمد يقول رأي الشافعي ورأي مالك ورأي أبي حنيفة كله عندي رأي وهو عندي

سواء وإنما الحجة في الآثار، وقال أبو عمر بسنده إلى عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه أنه أنشد:

دين النبي محمد آثار ... نعم المطية للفتى الأخبار

لا ترغبن عن الحديث وأهله ... فالرأي ليل والحديث نهار

ولربما جهل الفتى طرق الهدى ... والشمس طالعة لها أنوار

ولبعض أهل العلم:

العلم قال الله قال رسوله ... قال الصحابة ليس خلف فيه

ما العلم نصبك للخلاف سفاهة ... بين النصوص وبين رأي سفيه

كلا ولا نصب الخلاف جهالة ... بين الرسول وبين رأي فقيه

كلا ولا رد النصوص تعمدا ... حذرا من التجسيم والتشبيه

حاشا النصوص من الذي رميت به ... من فرقة التعطيل والتمويه

فصل

في الرأي المحمود وهو أنواع (النوع الأول) رأي أفقه الأمة وأبر الأمة قلوبًا وأعمقهم علمًا وأقلهم تكلفًا وأصحهم قصودًا وأكملهم فطرة وأتمهم إدراكًا وأصفاهم أذهانًا الذين شاهدوا التنزيل وعرفوا التأويل وفهموا مقاصد الرسول فنسبة آرائهم وعلومهم وقصودهم إلى ما جاء به الرسول ﷺ كنسبتهم إلى صحبته والفرق بينهم وبين من بعدهم في ذلك كالفرق بينهم وبينهم في الفضل فنسبة رأي من بعدهم إلى رأيهم كنسبة قدرهم إلى قدرهم قال الشافعي رحمه الله في رسالته البغدادية التي رواها عنه الحسن بن محمد الزعفراني وهذا لفظه وقد أثنى الله تبارك وتعالى على أصحاب رسول الله ﷺ في القرآن والتوراة والإنجيل وسبق لهم على لسان رسول الله ﷺ من الفضل ما ليس لأحد بعدهم فرحمهم الله وهنأهم بما آتاهم من ذلك ببلوغ أعلى منازل الصديقين والشهداء والصالحين أدوا إلينا سنن رسول الله ﷺ وشاهدوه والوحي ينزل عليه فعلموا ما أراد رسول الله ﷺ عامًا وخاصًا وعزمًا وإرشادًا وعرفوا من سنته ما عرفنا وجهلنا وهم فوقنا في كل علم واجتهاد وورع وعقل

وأمر استدرك به علم استنبط به وآراؤهم لنا أحمد وأولى بنا من رأينا عند أنفسنا. ومن أدركنا ممن يرضي أو حكى لنا عنه ببلدنا صاروا فيما لم يعلموا لرسول الله ﷺ فيه سنة إلى قولهم أن اجتمعوا أو قول بعضهم أن تفرقوا وهكذا نقول ولم نخرج عن أقاويلهم وإن قال أحدهم ولم يخالفه غيره أخذنا بقوله. ولما كان رأي الصحابة عند الشافعي بهذه المثابة قال في الجديد في كتاب الفرائض في ميراث الجد والإخوة وهذا مذهب تلقيناه عن زيد بن ثابت وعنه أخذنا أكثر الفرائض وقال والقياس عند قتل الراهب لولا ما جاء عن أبي بكر رضي الله عنه فترك صريح القياس لقول الصديق وقال في رواية عنه، والبدعة ما خالف كتابًا أو سنة أو أثرًا عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ فجعل ما خالف قول الصحابي بدعة وسيأتي إن شاء الله تعالى أشباع الكلام في هذه المسألة وذكر نصوص الشافعي عند ذكر تحريم الفتوى بخلاف ما أفتى به الصحابة ووجوب اتباعهم في فتاويهم وأن لا يخرج من جملة أقوالهم وأن الأئمة متفقون على ذلك (والمقصود) أن أحدًا ممن بعدهم لا يساويهم في رأيهم وكيف يساويهم وقد كان أحدهم يرى الرأي فينزل القرآن بموافقته كما رأى عمر في أسارى بدر أن تضرب أعناقهم فنزل القرآن بموافقته ورأي أن تحجب نساء النبي ﷺ فنزل القرآن بموافقته ورأي أن يتخذ من مقام إبراهيم مصلى فنزل القرآن بموافقته وقال لنساء النبي ﷺ لما اجتمعن في الغيرة عليه عسى ربه أن طلقكن أن يبدله أزواجًا خيرًا منكن مسلمات مؤمنات فنزل القرآن بموافقته ولما توفي عبد الله بن أبي قام رسول الله ﷺ ليصلي عليه فقام عمر فأخذ بثوبه فقال يا رسول الله: إنه منافق فصلى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله عليه ولا تصل على أحد منهم مات أبدًا ولا تقم على قبره وقد قال سعد بن معاذ لما حكمه النبي ﷺ في بني قريظة: إني أرى أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذرياتهم وتغنم أموالهم فقال النبي ﷺ لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات ولما اختلفوا إلى ابن مسعود شهرًا في المفوضة قال أقول فيها برأيي فإن يكن صوابًا فمن الله وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان والله ورسوله بريء منه، أرى أن لها مهر نسائها لاوكس ولا شطط ولها الميراث وعليها العدة فقام ناس من أشجع فقالوا نشهد أن رسول الله ﷺ قضى في امرأة منا يقال لها بروع بنت واشق مثل ما قضيت به فما فرح ابن مسعود بشيء بعد الإسلام فرحه بذلك (وحقيق) بمن

كانت آراؤهم بهذه المنزلة أن يكون رأيهم لنا خيرًا من رأينا لأنفسنا وكيف لا وهو الرأي الصادر من قلوب ممتلئة نورًا وإيمانًا وحكمة وعلمًا ومعرفة وفهمًا عن الله ورسوله ونصيحة للأمة وقلوبهم على قلب نبيهم ولا واسطة بينهم وبينه وهم ينقلون العلم والإيمان من مشكاة النبوة غضا طريًا لم يشبه إشكال ولم يشبه اختلاف ولم تدنسه معارضة فقياس رأي غيرهم بآرائهم من أفسد القياس.

فصل: النوع الثاني من الرأي المحمود

الرأي الذي يفسر النصوص ويبين وجه الدلالة منها ويوضح محاسنها ويسهل طريق الاستنباط منها كما قال عبدان سمعت عبد الله بن المبارك يقول: ليكن الذي تعتمد عليه الأثر وخذ من الرأي ما يفسر لك وهذا هو الفهم الذي يختص الله سبحانه به من يشاء من عباده ومثال هذا رأي الصحابة ﷺ في القول في الفرائض عند تزاحم الفروض ورأيهم في مسألة زوج وأبوين وامرأة وأبوين أن للأم ثلث ما بقي بعد فرض الزوجين ورأيهم في توريث المبتوتة في مرض الموت ورأيهم في مسألة جر الولاء ورأيهم في المحرم يقع على أهله بفساد حجه ووجوب المضي فيه والقضاء والهدي من قابل ورأيهم في الحامل والمرضع إذا خافتا على ولديهما أفطرتا وقضتا وأطعمتا لكل يوم مسكينًا ورأيهم في الحائض تطهر قبل طلوع الفجر تصلي المغرب والعشاء وإن طهرت قبل الغروب صلت الظهر والعصر ورأيهم في الكلالة وغير ذلك.

فصل: النوع الثالث

من الرأي المحمود الذي تواطأت عليه الأمة وتلقاه خلفهم عن سلفهم فإن ما تواطؤوا عليه من الرأي لا يكون إلا صوابًا كما تواطؤوا عليه من الرواية الرؤيا وقد قال النبي ﷺ لأصحابه وقد تعددت منهم رؤيا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر فاعتبر ﷺ تواطؤ رؤيا المؤمنين، فالأمة معصومة فيما تواطأت عليه من روايتها ورؤياها ولهذا كان من سداد الرأي وإصابته أن يكون شورى بين أهله ولا ينفرد به واحد وقد مدح الله سبحانه المؤمنين بكون أمرهم شورى بينهم — وكانت النازلة إذا نزلت بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليس عنده فيها نص عن الله ولا عن رسوله

جمع لها أصحاب رسول الله ﷺ ثم جعلها شورى بينهم « توضيح لما تقدم » وفيه مسائل الأولى (قول الحافظ بن القيم) ولا ريب أن الحكم المعلق على شرط ينتفي عند انتفائه. اهـ معناه أن كل من لم يرد ما تنازع فيه مع غيره إلى كتاب الله وسنة رسوله ينتفي عنه الإيمان الذي لا نجاة له من عذاب الله إلا به اهـ.

الثانية قوله: فإن تنازعتم في شيء نكرة في سياق الشرط تعم كل ما تنازع فيه المؤمنون من مسائل الدين اهـ.

قال محمد تقي الدين: ولا يستثنى منها شيء فإن المبتدعين والمخالفين يستصغرون بعض المسائل ويسمونها سنة أو مستحبًا ويزعمون أن العمل بها غير واجب فلا حرج على من تركها كوضع اليمنى على اليسرى في الصلاة ورفع اليدين في المواضع الأربعة والأكل باليمنى وتسوية الصفوف وما أشبه ذلك فنقول لهم لا نسلم لكم أن هذا الأمر غير واجب ولا عقاب على من تركه حتى تقيموا على ذلك دليل من كتاب الله أو سنة رسوله أو كلام الصحابة، ونتبرع لكم بالدليل على أنكم مخطئون فإن وضع اليمنى على اليسرى جاء في الموطأ والصحيحين بلفظ كان الناس يؤمرون على عهد رسول الله ﷺ ولا آمر في عهده غيره فما أمر به فهو واجب حتى يقوم دليل على أن الأمر ليس للوجوب وقد ثبت في الحديث أن عبد الله بن عمر كان يحصب من لا يرفع يديه عند الركوع أي يرميه بالحصباء فلو كان رفع اليدين عند الركوع مستحبًا لا واجبًا لم يعاقبه عليه وقد دعا النبي ﷺ على من أبى أن يأكل بيمينه بالشلل فشلت يده، وما كان النبي ﷺ ليدعو على من ترك مستحبًا كصلاة ركعتين بين الأذان والإقامة مثلاً بمثل هذا العقاب وجاء الوعيد الشديد في عدم تسوية الصفوف وذلك يدل على وجوبها فإذا قال أحد من المقلدين أو غيرهم ممن جاء بعد الصحابة في شيء من أمور الشريعة هذه سنة أو هذا مستحب لا إثم على من تركه فطالبه بالدليل فإنه لا يجده فتقوم عليه الحجة.

« الثالثة » قوله: ولو لم يكن في كتاب الله وسنة رسوله بيان حكم ما تنازعوا فيه ولو لم يكن كافيًا لم يأمر بالرد إليه، كثير من المخالفين في هذا الزمان يقولون أن الكتاب والسنة لا

يكفيان للحكم في جميع المسائل التي تحدث في الأزمنة المتطاولة وذلك غير صحيح ولو كان صحيحًا لما أمرنا الله تعالى أن نرد كل نزاع في كل شيء إلى الله والرسول وهو سبحانه عليم بكل ما سيحدث إلى يوم القيامة وسيأتي تفصيل هذا المقصد فيما نقلته من كلام ابن القيم.

« الرابعة » قوله: ثم أخبرهم أن هذا الرد خير لهم وأن عاقبته أحسن عاقبة **قال محمد تقي الدين:** كل شعب أسعد الله إسلافه بالإسلام فأعزهم بعد المذلة وأغناهم بعد الفقر وقواهم بعد الضعف وجمع أمرهم بعد الشتات فقامت عليهم حجة الله أعظم قيام ثم تنكروا للإسلام ونبذوا كتاب الله وسنة رسوله لابد أن يصابوا بمصائب في عاجلهم وآجلهم في دنياهم وآخرتهم كما قال تعالى بعد هذا: ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ** ﴾. وهذا مجرب واضح فإن جميع البلدان الإسلامية التي ترك أهلها شريعة الرسول ﷺ في غاية ما يكون من الشقاء.

« الخامسة » قول سهيل بن عمرو يكتب باسمك اللهم اعلم أن العرب قبل الإسلام كانوا يفتحون الكتب بهذا اللفظ باسمك اللهم أي باسمك يا الله نبتدئ كتابنا هذا فلما جاء الإسلام كان النبي ﷺ يفتتح كتبه بسم الله الرحمن الرحيم فلما أراد النبي ﷺ إملاء كتاب الصلح في الحديبية بينه وبين المشركين من أهل مكة أملى على الكاتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال له المفاوض بالنيابة عن المشركين بل يكتب كما كنا نكتب باسمك اللهم ولما قال النبي ﷺ للكاتب أكتب هذا ما عاهد عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو فقال سهيل: لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن بيته اكتب اسمك واسم أبيك فرضي رسول الله ﷺ بكتابة باسمك اللهم ومحمد بن عبد الله ولم يرض عمر ﷺ لأنه رأى في ذلك ضعفًا أمام المشركين ولم يكن ذلك ضعفًا وإنما حكمة وسياسة حسنة كان لها أحسن الأثر فيما بعد عندما وقعت الهدنة واختلط المسلمون بالمشركين فأثر المسلمون على المشركين فأسلم كثير منهم والإسلام يربح بالسلم أكثر مما يربح بالحرب فهو لا يحارب إلا اضطرارًا.

« السادسة » قوله: لا أسمع برجل فعل ذلك إلا أوجعته ضربًا، أن المراد بقوله ذلك ما ذكره أكثر الصحابة من قولهم لا غسل أي من أفتى بعدم الغسل عند الإكسال وهو جماع الرجل امرأته مع عجزه عن الإنزال أي إتمام الجماع بخروج المني أوعده عمر أن يوجعه

ضربًا لأن قول على ومعاذ بوجوب الغسل هو الصواب. لأن عائشة وافقتهما وهذا هو الأمر الأخير الذي أمر به النبي ﷺ وفي أول الأمر كانوا لا يغتسلون إلا إذا خرج الماء اعتمادًا على ما رواه أبو سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: « إنما الماء من الماء » ، رواه مسلم وأصله في البخاري وهذا الحديث منسوخ نسخه ما رواه أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: « إذا جلس بين شعبها الأربع ثم جهدها فقد وجب الغسل » متفق عليه زاد مسلم « وإن لم ينزل » **قال محمد تقي الدين:** رأينا في هذه الحكاية، أن عمر ﷺ لما سمع أن زيد بن ثابت يفتي بالغسل عند الإكسال دعاه وعاتبه على الإفتاء بالرأي فحلف له بالله أنه ما أفتى إلا بما سمعه من أعمامه وهم ثلاثة من كبار الصحابة فلما سأل عمر أحد هؤلاء الأعمام. قال له كنا نفعله على عهد رسول الله ﷺ ولم يأتنا فيه عن الله تحريم ولم يكن فيه عن رسول الله ﷺ شيء فلم يقتنع عمر بهذا الجواب لأن هذا غايته عدم العلم بالحكم فجمع عمر أهل بدر وسألهم فأجابوا بخلاف ما قاله الأعمام أن لا غسل وقال على ومعاذ فيه الغسل فوافقتهما عائشة فحصل من ذلك ثلاثة أقوال قول بالغسل بدون دليل قاطع وقول بعدم الغسل بدون دليل وقول بالغسل بدليل فرجح عمر هذا القول وتوعد من خالفه أن يوجعه ضربًا وفي هذا عبرة لمن يتجرأ على الإفتاء في دين الله بلا دليل أصلاً بل بمجرد أن يرى الحكم في كتاب من كتب الفروع المظلمة فيقلدها ويفتي بما فيها فما أبعده عن الصواب والتقليد جهل والإفتاء به حرام في دين الله.

« السابعة » قول أشهب: كنت عند مالك فسئل عن البتة إلى أخره، يفهم منه أن مالكًا أفتى فيمن طلق امرأته البتة أنها حرمت عليه كما إذا طلقها ثلاثًا فأراد أشهب أن يكتب تلك الفتوى فنهاه مالك وقال لا تكتب ذلك فإنما هو رأي رأيته ولعلي أرجع عنه في العشي فأفتى بأنها طلقة واحدة.

قال محمد تقي الدين: والصواب أنها طلقة لقول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿ **الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ** ﴾. ثم قال تعالى: ﴿ **فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىَ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ** ﴾. يعني بعد التطليقة الثالثة وعن ابن عباس أن الطلاق بالثلاث كان يعد طلقة واحدة على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر، فلما رأى

عمر أن الناس قد استعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة أنجزه عليهم رواه مسلم وفعل عمر ليس بتشريع وإنما هو عقاب لمن خالف السنة ونطق بالطلاق الثلاث في لفظ واحد. وللإمام أن يعاقب رعيته بمنعهم من بعض المباحات كالحبس في مكان والمنع من غيره أو النفي من البلد ومنعهم من السكنى فيه ونحو ذلك والله أعلم.

« الثامنة » قوله: ومثال ذلك رأي الصحابة ﷺ في العول في الفرائض عند تزاحم الفروض مثال ذلك ما ذكره بعده مباشرة هلكت زوجة وتركت بعلها وأبويها هذه مسألة عول تزاحمت فيها الفروض إذا لا يمكن اجتماع النصف والثلثين وقد حلها الصحابة ﷺ بطريقة العول فجعلوا للبعل النصف والنصف الباقي للام منه الثلث وما بقي فللأب ومعنى العول في اللغة الزيادة والمسألة الثانية أن يموت رجل ويترك زوجة وأبوين فللزوجة الربع وما بقي تأخذ منه الأم الثلث وما بقي فللأب اهـ.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّـَٔاتَيْنَـٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَـٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٦-٧٠].

قال (ك): ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به وتركوا ما ينهون عنه **﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾** أي من مخالفة الأمر وارتكاب النهي **﴿ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾** قال السدي: أي وأشد تصديقًا **﴿ وَإِذاً لآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّـا ﴾** أي من عندنا **﴿ أَجْراً عَظِيمًا ﴾** يعني الجنة **﴿ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾** أي في الدنيا والآخرة ثم قال تعالى: **﴿ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقًا ﴾** أي من عمل بما أمره الله به ورسوله، وترك ما نهاه الله عنه ورسوله، فإن الله عز وجل يسكنه دار كرامته ويجعله

مرافقًا للأنبياء ثم لمن بعدهم في الرتبة وهم الصديقون، ثم الشهداء ثم عموم المؤمنين وهم الصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم ثم أثنى عليهم تعالى فقال: ﴿ وَحَسُنَ أُولَـٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ وقال البخاري بسنده عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فعلمت أنه خير » ورواه مسلم، وهذا معنى قوله ﷺ في الحديث الآخر: « اللهم الرفيق الأعلى » ثلاثًا. ثم قضى عليه أفضل الصلاة والتسليم. قال ابن جرير بسنده عن سعيد بن جبير قال جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ وهو محزون فقال له النبي ﷺ: « يا فلان ما لي أراك محزونًا. فقال يا نبي الله شيء فكرت فيه فقال ما هو ؟ قال نحن نغدو عليك ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك، وغدًا ترفع مع النبيين فلا نصل إليك فلم يرد عليه النبي ﷺ شيئًا فأتاه جبريل بهذه الآية ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَـٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ ﴾ الآية فبعث النبي ﷺ فبشره » ، وقد روي هذا الأثر مرسلاً عن جماعة من التابعين. وثبت في صحيح مسلم بسنده عن ربيعة بن كعب الأسلمي أنه قال: كنت أبيت عند النبي ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي: « سل » فقلت: يا رسول أسألك مرافقتك في الجنة فقال: « أو غير ذلك » قلت: هو ذاك. قال: « فأعني على نفسك بكثرة السجود » وقال الإمام أحمد بسنده عن عمرو بن مرة الجهني قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: شهدت أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، وصليت الخمس، وأديت زكاة مالي، وصمت شهر رمضان. فقال رسول الله ﷺ: « من مات على ذلك كان مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة هكذا ونصب إصبعيه — ما لم يعق والديه » تفرد به أحمد. وروي الترمذي بسنده إلى أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: « التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » ثم قال: هذا حديث حسن. وفي الصحيح والمسانيد وغيرهما من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم فقال: « المرء مع من أحب » فما فرح المسلمون مثل فرحهم بهذا الحديث، وفي رواية عن أنس أنه قال: إني لأحب رسول الله ﷺ وأحب أبا بكر وعمر رضي الله عنهما وأرجو الله أن يبعثني معهم وإن لم أعمل كعملهم. وأخرج الشيخان من طريق مالك واللفظ لمسلم

بسندهما إلى أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب للتفاضل بينهم. قالوا يا رسول الله: تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم. قال: « بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » ولهذا قال تعالى: ﴿ **ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ** ﴾ أي من عند الله ﴿ **بِرَحْمَتِهِ** ﴾ وهو الذي أهلهم لذلك لا بأعمالهم ﴿ **وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا** ﴾ أي هو عليم بمن يستحق الهداية والتوفيق.

فصل

قال محمد تقي الدين: كل من رد شيئًا من سنة النبي ﷺ أو مما دل عليه كتاب الله تعالى أو أعرض عنهما ولم يرفع بهما رأسًا ولا درسهما ولا سأل عنهما واكتفى بظلمات الرأي الذي لا يدري موافقته لهما أو مخالفته كالمتمسكين بكتب الفروع المجردة فلن يعد ممن فعلوا ما يوعظون به فلا خير له ولا تثبيت ولا أجر ولا هداية إلى الصراط المستقيم لا في الدنيا ولا في الآخرة ولا يعد ممن أطاع الله والرسول فهو غير جدير أن يكون مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين والله لا يهدي القوم الظالمين.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ [النساء: ٨٠].

قال (ك): يخبر تعالى عن عبده ورسوله محمد ﷺ بأن من أطاعه فقد أطاع الله، ومن عصاه فقد عصي الله، وما ذلك إلا لأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى. قال ابن أبي حاتم بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصي الله، ومن أطاع الأمير فقد أطاعني، ومن عصا الأمير فقد عصاني. وهذا الحديث ثابت في الصحيحين، وقوله: ﴿ **وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا** ﴾ أي ما عليك منه إن عليك إلا البلاغ فمن اتبعك سعد ونجا وكان له من الأجر نظير ما حصل لمن فعل فعله، ومن تولى عنك خاب وخسر وليس عليك من أمره شيء كما جاء في الحديث: « من

يطع الله والرسول فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله فإنه لا يضر إلا نفسه » .

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ جَـٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَـٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ [النساء: ١٠٥-١٠٩].

قال (ك) يقول تعالى: مخاطبًا لرسوله محمد ﷺ: ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ** ﴾ أي هو حق من الله وهو يتضمن الحق في خبره وطلبه، وقوله: ﴿ **لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ** ﴾ احتج به من ذهب من علماء الأصول إلى أنه كان ﷺ له أن يحكم بالاجتهاد بهذه الآية وبما ثبت في الصحيحين بسندهما إلى أم سلمة أن رسول الله ﷺ سمع جلبة خصم بباب حجرته فخرج إليهم فقال: « ألا إنما أنا بشر وإنما أقضي بنحو ما أسمع ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليحملها أو ليذرها » . وقال الإمام أحمد بسنده إلى أم سلمة قالت: جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله ﷺ في مواريث بينهما قد درست ليس عندهما بينة، فقال رسول الله ﷺ: « إنكم تختصمون إلي وإنما أنا بشر، ولعل بعضكم أن يكون الحن بحجته من بعض، وإنما أقضي بينكم على نحو ما أسمع فمن قضيت له من حق أخيه شيئًا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار يأتي بها انتظامًا في عنقه يوم القيامة، فبكي الرجلان وقال كل منهما حقي لأخي، فقال رسول الله ﷺ: « أما إذا قلتما فاذهبا فاقتسما، ثم توخيا الحق بينكما ثم استهما ثم ليحلل كل منكما صاحبه » . وقد روي أبو داود من حديث أسامة بن زيد بن وراد: « إني إنما أقضي بينكما برأيي فيما لم ينزل علي فيه »

وقد روي ابن مردوية من طريق العوفي عن ابن عباس أن نفرًا من الأنصار غزوا مع رسول الله ﷺ في بعض غزواته فسرقت درع لأحدهم فأظن بها رجلاً من الأنصار فأتى صاحب الدرع رسول الله ﷺ فقال: إن طعمة ابن أبيرق سرق درعي، فلما رأى السارق ذلك عمد إليه فألقاها في بيت رجل بريء وقال لنفر من عشيرته أني غيبت الدرع وألقيتها في بيت فلان وستوجد عنده فانطلقوا إلى نبي الله ﷺ ليلاً فقالوا: يا نبي الله إن صاحبنا بريء وإن صاحب الدرع فلان وقد أحطنا بذلك علمًا فأعذر صاحبنا على رؤوس الناس وجادل عنه فإنه إن لم يعصمه الله بك يهلك، فقام رسول الله ﷺ فبرأه وعذره على رؤوس الناس فأنزل الله: ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦) وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ** ﴾. الآية ثم قال تعالى للذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين بالكذب: ﴿ **يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ** ﴾. الآيتين يعني الذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين يجادلون عن الخائنين، ثم قال عز وجل: ﴿ **وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ** ﴾. الآية يعني الذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين بالكذب. ثم قال: ﴿ **وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا** ﴾. يعني السارق والذين جادلوا عن السارق وهذا سياق غريب.

وروي ابن إسحاق والترمذي وابن جرير وغيرهم عن قتادة بن النعمان قال كان أهل بيت منا يقال لهم بنو أبيرق بشر وبشير ومبشر وكان بشير رجلاً منافقًا يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله ﷺ ثم ينحله لبعض العرب ثم يقول قال فلان كذا وكذا وقال فلان كذا وكذا فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر قالوا والله ما يقول هذا الشعر إلا هذا الخبيث أو كما قال الرجل وقالوا ابن الأبيرق قالها قالوا وكانوا أهل بيت حاجة وفاقة في الجاهلية والإسلام وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير وكان الرجل إذا كان له يسار فقدمت ضافطة من الشام بالدرمك ابتاع الرجل منها فخص بها نفسه وأما العيال فإنما طعامهم التمر والشعير فقدمت ضافطة من الشام فابتاع عمي رفاعة بن زيد حملا من

الدرمك فجعله في مشربة له وفي المشربة سلاح ودرع وسيف فعدى عليه من تحت الليل فنقبت المشربة وأخذ الطعام والسلاح فلما أصبح أتاني عمي رفاعة. فقال يا ابن أخي قد عدي علينا في ليلتنا هذه فنقبت مشربتنا فذهب بطعامنا وسلاحنا قال فتحسسنا الدار وسألنا. فقيل لنا قد رأينا بني أبيرق استوقدوا في هذه الليلة ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم قال وكان بنو أبيرق قالوا ونحن نسأل في الدار والله ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل رجلاً منا له صلاح وإسلام فلما سمع لبيد اخترط سيفه وقال أنا أسرق، والله ليخالطنكم هذا السيف أو لتبينن هذه السرقة قالوا إليك عنا أيها الرجل فما أنت بصاحبها فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها فقال لي عمي يابن أخي لو أتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له قال قتادة فأتيت رسول الله ﷺ فقلت إن أهل بيت منا أهل جفاء عمدوا إلى عمي رفاعة بن زيد فنقبوا مشربة له وأخذوا سلاحه وطعامه فليردوا علينا سلاحنا، فأما الطعام فلا حاجة لنا فيه فقال النبي ﷺ سأنظر في ذلك فلما سمع بذلك بنو أبيرق أتوا رجلاً منهم يقال له أسيد بن عروة فكلموه في ذلك فاجتمع في ذلك أناس من أهل الدار فقالوا: يا رسول الله إن قتادة بن النعمان وعمه عمدا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت قال قتادة فأتيت النبي ﷺ فكلمته فقال: عمدت إلى أهل بيت ذكر عنهم إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة على غير ثبت ولا بينة قال فرجعت ولوددت أني خرجت من بعض مالي ولم أكلم رسول الله ﷺ في ذلك فأتاني عمي رفاعة فقال يابن أخي ما صنعت فأخبرته بما قال لي رسول الله ﷺ فقال الله المستعان فلم نلبث أن نزل القرآن: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾. يعني بني أبيرق واستغفر الله أي مما قلت لقتادة أن الله كان غفورًا رحيمًا ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إلى قوله رحيمًا أي لو استغفروا الله لغفر لهم ومن يكسب إثمًا فإنما يكسبه على نفسه إلى قوله إثمًا مبينًا قوله: ﴿ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾. فلما نزل القرآن أتى رسول الله ﷺ بالسلاح فرده إلى رفاعة فقال قتادة لما أتيت عمي بالسلاح وكان شيخًا قد عمي أو عشي، الشك من أبي عيسى في الجاهلية وكنت أرى إسلامه مدخولاً فلما أتيته بالسلاح قال يابن أخي هي في سبيل الله

فعرفت أن إسلامه كان صحيحًا فلما نزل القرآن لحق بشير بالمشركين فنزل على سلافة بنت سعد بن شهيد فأنزل الله تعالى: ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا** (١١٥) **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا** ﴾. فلما نزل على سلافة بنت سعد هجاها حسان بن ثابت بأبيات من شعر فأخذت رحله فوضعته على رأسها ثم خرجت به فرمته في الأبطح ثم قالت أهديت لي شعر حسان ما كنت تأتيني بخير لفظ الترمذي هذا حديث غريب **قال (ك)**: روي هذا الحديث الحاكم أبو عبد الله النيسابوري في كتابه المستدرك وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه **قال محمد تقي الدين**: والأبيات التي ذكرت في الحديث ذكرها السهيلي في الروض الأنف في ج٢ ص٣٩ وهي هذه:

وما سارق الدرعين إذ كنت ذاكرا ... بذي كرم من الرجال أوادعه

وقد أنزلته بنت سعد فأصبحت ... ينازعها جاراستها وتنازعه

ظننتم بأن يخفى الذي قد صنعتم ... وفيكم نبي عنده الوحي واضعه

ومعنى البيت الثاني: وقد أنزلته سلافة بنت سعد البغي المشهورة بمكة في بيتها يفجر بها فصارت ينازعها فرجها وهو جاراستها أي دبرها وتنازعه شوقًا إلى الزنا وهذا سبب غضبها وطردها لذلك المعتدي الخبيث الذي أعياه النفاق فخرج إلى إعلان الكفر.

والضافطة: جماعة يجلبون الميرة وهي الحبوب والطحين إلى المدن، لأن الحجاز أرض فقيرة لا يحصل منها ما يكفي لمعيشة أهلها من الحبوب فهي محتاجة دائمًا إلى أن ترد عليها الحبوب من جهة الشمال وهي الشام أو من جهة الجنوب وهي اليمن أو من جهة الشرق وهي نجد: والدرمك هو الحُواري، أي الدقيق الأبيض.

وفي هذا الحديث علمنا أن الرجال في المدينة كانوا يخصون أنفسهم بالبر والدقيق الأبيض ولا يشركون عيالهم فيه بل يتركونهم يعيشون بالتمر والشعير وقد رأيت مثل هذا في بادية حميان بأرض الجزائر فإن النساء عندهم لاحظ لهن في البر وإنما طعامهن الشعير ففي كل خيمة يصنع نوعان من الطعام نوع للرجال من البر ونوع للنساء من الشعير فترى الرجل

وأولاده الذكور يأكلون طعام البر وزوجته وبناته لاحظ لهن فيه ولو مرة في السنة وأعرف رجلاً اسمه بومدين كان شيخًا كبيرًا وله زوجة وليس لهما أولاد فكانت زوجته تصنع طعامين طعامًا من البر له وطعامًا من الشعير لها وبالمناسبة أذكر قصة وقعت لي مع هذا الرجل فإنه جاءني عند الزوال فقال: قم فصل الظهر وأنا إمام الحي فقلت له انتظر قليلاً حتى يتحقق دخول الوقت فقال لي أن الوقت قد دخل وأنا مستعجل أريد أن أصلي وأذهب إلى شغلي فقلت إن صلاة الظهر قبل تحقق دخول الوقت لا تجوز فخاصمني وشتمني وقال لي: إن لم تكن راضيًا فهذه الثنية أمامك فاذهب والثنية هي الطريق بين جبلين فأخذت سبحتي وأنا يومئذ تجاني مخلص في الطريقة أشد الإخلاص من فرط جهلي وشقائي فوجهت سبحتي كالبندقية إلى خيمته طلبًا للانتقام منه فخاف خوفًا شديدًا وانصرف وفي ذلك اليوم ضلت له أحسن ناقة من إبله فجاءني في الغد خاشعًا ذليلاً وقال لي: يا سيدي محمد: إنك قطعت في خويدمك أي انتقمت منه بلا رحمة فقلت مَهْيَمْ: فقال لي: ضاعت الناقة الحمراء فاغفر لي إساءتي إليك وادع الله أن يردها فدعوت وغفرت له ولكن الناقة لم ترجع فمنذ ذلك اليوم صار يخدمني خدمة العبد لسيده إلى أن افترقنا فانظر إلى هذا الجهل العظيم من المخدوم والخادم والمعبود والعابد فاللهم لك الحمد على ما أنعمت به علينا وأخرجتنا من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان وبهذا يعلم أن الشيخة بهية وهي امرأة مكفوفة البصر لا يفوتها درس من دروس وعظي لا مع الرجال ولا مع النساء قالت لبعض النساء لا يزلن متمسكات ببدعة السبحة: ألقين عنكن هذه الأصنام فإن السبحة قد تكون وثنًا كما وقع لي حين وجهتها إلى خيمة الرجل.

توضيحات لما تقدم

(الأولى): الخبر: هو ما يخبر الله تعالى به عباده والطلب هو ما يأمرهم به أو ينهاهم عنه والجلبة الصياح.

(الثانية): قول رسول الله عليه الصلاة والسلام فمن قضيت له بحق مسلم إلى آخره. معناه إن كان أحد الخصمين فصيحًا بليغًا يزخرف القول ويقلب الحقائق وكان خصمه حصرًا لا يستطيع أن يبين حقه فظهر لي أن الظالم هو المظلوم فحكمت له بما تنازعا فيه

كبستان أو بيت أو دراهم وهو يعلم أن الحق لخصمه فأخذ ذلك الشيء معتمدًا على حكمي له فإنه قطعة من النار لا يحل له أبدًا وإن حكمت له به لأنه خدعني وهذا أيضًا يدل على أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب فتعسا للمشركين الذين يزعمون أن كل ما يعلمه الله يعلمه رسول الله والفرق بينهما أن علم الله غير محدث وعلم النبي ﷺ محدث ومن اعتقد هذا. فهو كافر بالقرآن العظيم انظر الجزء الثاني: القسم الأول من سبيل الرشاد عند قوله تعالى: ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾.

قولها درست: أي قدم عهدها.

قوله: انتظامًا، الانتظام: الحديدة التي تحرك بها النار وتسعر.

(الثالثة): قول النبي ﷺ فاقتسما ثم استمعما[1]:

معناه اقتسما ما تنازعتما فيه من أرض أو بستان مثلا واقترعا على القسمين والمغاربة يسمون ذلك ضرب العود ومعنى ليحلل أحدكما الآخر أي يسامحه ويجعله في حل أهـ.

(الرابعة): قول النبي ﷺ « فيما لم ينزل علي فيه » يدل على أن النبي ﷺ إذا لم يكن عنده في القضية وحي من الله تعالى يجتهد ويحكم برأيه وكذلك شرع لحكام أمته كما تقدم مبسوطا في الباب الذي قبله وهذا عين ما فعله في هذه القضية قبل أن يتبين له أن أولئك القوم خائنون.

قوله فسرقت درع: في بعض الروايات سلاح وفي بعضها درعان وسيفان وهي أرجح لما جاء في شعر حسان الآتي ذكره.

قوله: فأظن بها رجلا أي اتهمه.

قوله طعمة: سيأتي في الراوية التالية أن أبناء أبيرق ثلاثة بشر وبشير ومبشر فلعل طعمة أخ لهم، أو لقب لأحدهم.

(الخامسة): قول الله تعالى لخليله محمد صلوات الله عليه وأستغفر الله وقوله له في سورة القتال واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات هذا كلام السيد مع عبده بل خير عباده فللسيد أن يسمي اجتهاد عبده ذنبا ويأمره بالاستغفار منه وليس ذلك في الحقيقة ذنبا كذنوب العباد

---

(١) كما بالأصل.

غير المعصومين والدليل على ذلك أن هذه القضية لو وقعت لأحد الصحابة أو التابعين أو من بعدهم من الحكام فلم يجد فيها نصا من كتاب الله ولا سنة من سنن رسول الله واستشار علماء بلده فلم يجد عندهم شيئا فحكم برأيه ثم جاء عالم من بلد يحفظ حديثا صحيحا يخالف ما قضى به ذلك الحاكم لم يكن ذلك الحاكم مذنبا لقول النبي ﷺ: « إذا اجتهد الحاكم وأصاب فله أجران وإذا اجتهد وأخطأ فله أجر واحد » والأجر إنما يكون على الطاعة لا على الذنب، هذا على التنزل لأن ذلك الحاكم يمكن أن يكون مقصرا في البحث لأن الحكم كان موجودًا عند غيره ولكنه عذر لأنه بذل جهده وباذل جهده لا جناح عليه أما النبي ﷺ فلم يكن عنده وحي، ولا عند غيره في أي مكان من بلاد الله فهو أولى بالعذر والاستغفار عبادة نتيجتها محبة الله تعالى قال الله تعالى: ﴿ **اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** ﴾ ولذلك كان النبي ﷺ يستغفر الله في اليوم سبعين مرة وفي حديث آخر يستغفر الله مائة مرة وينبغي أن يسلك هذا المسلك في كل موضع من كتاب الله وحديث الرسول جاء فيه نسبة الذنب إلى النبي ﷺ فشد يدك على هذا فإنه.

(السادسة): قوله (ك): في هذا الحديث وهذا سياق غريب كقول الترمذي في الحديث المذكور بعده أنه غريب يدل على ضعف هذا الحديث مع تعدد طرقه وتفسير جماعة من التابعين بهذه الآيات بمعناه مما يدل أن له أصلا مشكل وسيرتفع الإشكال أو يكاد بقول الحاكم: أنه صحيح الإسناد على شرط مسلم وسلمه (ك) وعسى أن يكون الذهبي أيضا سلمه.

قوله: ينحله لبعض العرب أي ينسبه إليهم على أنهم قالوه.

(السابعة): قوله أو كما قال وقالوا ابن الإبيرق قالها: هذا تحريف وبتر من الناشرين المجرمين وما أكثره في الطبعات المتعددة لتفسير (ك) وقد قابلت هذه القصة على الكيفية التي نقلها جمال الدين القاسمي في تفسيره فوجدت فيها أخطاء عديدة في الطبعات المختلفة فعلمت أنه نقلها من نسخة مخطوطة فسلم نقله من الخطأ. والصواب أن هذا الكلام بيت شعر قاله بشير بن الإبيريق ونصه كما في تفسير القاسمي.

أو كلما قال الرجال قصيدة أضموا وقالوا ابن الإبيرق قالها

ومعنى أضمو أي غضبوا وهو بكسر الضاد.

والحاجة: الفاقة والفقر – واليسار: الغنى – والمشربة الغرفة: وتسمى العُلِّيَّةُ.

قوله فتحسسنا في الدار: المراد بالدار هنا مجموعة من المساكن، متصل بعضها ببعض وفي وسطها حجرة باللغة المغربية « حوش » وهكذا كان بناء البيوت في المدينة النبوية إلى زمان قريب وقد أدركت ذلك أول ما سكنت في المدينة سنة ١٣٤٦هـ.

قوله استوقدوا في هذه الليلة أي أوقدوا شيئا يستضيئون به كنار أو قنديل واستدلوا بذلك على أنهم السارقون.

قوله أهل جفاء: الجفاء خشونة الطبع وسوء الأدب.

قوله خرجت من بعض مالي أي خسرت بعض مالي.

قال القاسمي ما نصه: ﴿ **وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ** ﴾ بإعلامك ما هم عليه بالوحي وتنبيهك على الحق ﴿ **لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مُّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ** ﴾ برمي البريء والمجادلة عن الخائنين يعني أسيد بن عروة وأصحابه يعني بذلك لما أثنوا على بني أبيرق ولاموا قتادة بن النعمان في كونه أتهمهم وهم صلحاء برآء، ولم يكن الأمر كما أنهوه إلى رسول الله ﷺ ﴿ **وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ** ﴾ لأن وباله عليهم ﴿ **وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ** ﴾ لأنك إنما عملت بظاهر الحال وما كان يخطر ببالك أن الحقيقة على خلاف ذلك، ولما أنزل تعالى فصل القضية وجلاها لرسوله ﷺ، امتن عليه بتأييده إياه في جميع الأحوال بقوله: ﴿ **وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ** ﴾ أي: القرآن والسنة ﴿ **وَعَلَّمَكَ** ﴾ من أمور الدين والشرائع ﴿ **مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ** ﴾ أي: قبل نزول ذلك عليك، قوله: ﴿ **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ** ﴾ الآية وقال تعالى: ﴿ **وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ** ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿ **وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا** ﴾ أي فيما علمك وأنعم عليك.

قال الرازي: هذا من أعظم الدلائل على أن العلم أشرف الفضائل والمناقب، ثم أشار تعالى إلى ما كانوا يتناجون فيه حتى يبيتون مالا يرضى من القول.

(الثامنة): قوله قد عمى أو عشى الشك من أبي عيسى، عبارة القاسمي فيما نقل من النسخ الصحيحة من (ك) هكذا قال قتادة فلما أتيت عمى بالسلاح، وكان شيخا قد عسا في

الجهالية. وكنت أرى إسلامه مدخولا أهـ قال صاحب القاموس: عسا الشيخ يعسو عسوا وعسى عسى كبر: والمعنى أن رفاعة بن زيد شاخ في الجاهلية فلذلك ظن ابن أخيه قتادة بن النعمان أن إسلامه مدخول حتى رآه وهب السلاح في سبيل الله زيادة على ما خسر من حمل الدرمك فعلم أن إيمانه صحيح ويناسب معنى عسا هناك قول الشاعر:

لولا الحياء وأن رأسي قد عسا فيه المشيب لزرت أم القاسم

وفي كتب اللغة من معاني عسا اشتد وغلظ فمعنى عسا فيه المشيب اشتد وانتشر فمنعه الحياء وشيب رأسه من زيارة أم القاسم زيارة ريبة.

قوله: لحق بشر بالمشركين أظن هذا أيضا من تحريض الناشرين والذي في تفسير القاسمي لحق بشير والظاهر أنه هو الصحيح لأن بشيرا هو الذي كان يهجو أصحاب رسول الله وينحل الهجاء للكفار والظاهر أيضا أنه هو الذي سرق وساعد أخواه أو اخوته على أن طعمة المذكور سابقا أخ لهم بل ساعدهم كثير من أهل الدار أيضا كما تقدم.

(التاسعة): ظاهر السياق أن قوله تعالى ومن يشاقق الرسول الآية نزلت في بشير بن إبيرق الذي أعلن ردته وسواء كان هذا سبب نزولها أو لم يكن فإن من العموم تشمل كل من اتصف بمضمون الآية فالمقلد الذي يقضي بالتقليد أو يفتي به فيسفك الدماء ويحل الفروج وينقل الأموال من ملك شخص إلى شخص آخر بلا برهان ولا هدى ولا كتاب منير هو من المشاقين للرسول لأنه يحلل ويحرم بلا برهان.

قوله فأخذت رحله: الرحل للبعير كالسرج للفرس ولم يكن له متاع في بيتها إلا رحل ناقته فألقته في الإبطح خارج مكّة إلى جهة مني لأنه جلب لها الفضيحة بهجاء حسان والشعر سلاح حاد يفتك بالأعداء أكثر من فتك السيوف وقد وفقني الله لاستعمال هذا السلاح فهجوت كثيرا من الطواغيت فذاقوا وبال أمرهم ويوجد كثير من هذا الهجاء في كتاب الدعوة إلى الله لمؤلف هذا الكتاب وكذلك شيخ الطريقة الذي يدعو الناس إلى إعطائهم الورد وإدخالهم في ربقته واستعباده فيقضي على أديانهم وإعراضهم وأموالهم ويضمن لهم الجنة ويوهمهم أنه يمدهم بتنوير القلوب والهداية ويحفظ دينهم ودنياهم وهو اكبر مفسد للدين والدنيا فإنه مشاق للرسول متبع غير سبيل المؤمنين وهم الصحابة والتابعون والأئمة

المجتهدون ومن اتبعهم بإحسان.

(العاشرة) **قال محمد تقي الدين:** من العجب العجاب أني لم أر أحدًا ممن قرأت تفاسيرهم ذكر عقاب النبي ﷺ لهؤلاء السراق وقد ثبتت عليهم السرقة بشهادة الله تعالى وشهادة الناس ولم يقتصروا على السرقة حتى دعوا أقاربهم ليعينوهم على الباطل ورموا البريء بذنبهم وخدعوا الرسول فلماذا لم يقطع النبي ﷺ أيديهم لا أجد جوابا لهذا السؤال وعسى الله أن يأتي به.

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [النساء: ١٧٤].

يقول تعالى مخاطبا جميع الناس ومخبرا بأنه قد جاءهم منه برهان عظيم، وهو الدليل القاطع للعذر والحجة المزيلة للشبه، ولهذا قال: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا** ﴾. أي ضياء واضحا على الحق، قال ابن جريج وغيره هو القرآن ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ** ﴾. أي جمعوا بين مقامي العبادة والتوكل على الله في جميع أمورهم، وقال ابن جريج: آمنوا بالله واعتصموا بالقرآن، رواه ابن جرير ﴿ **فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ** ﴾ أي يرحمهم فيدخلهم الجنة ويزيدهم ثوابا ومضاعفة ورفعا في درجاتهم من فضله عليهم وإحسانه إليهم ﴿ **وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا** ﴾. أي طريقا واضحا قويما لا اعوجاج فيه ولا انحراف وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة، فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة وطريق السلامة في جميع المعتقدات والأعمال، وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي إلى روضات الجنات، وفي حديث الحارث الأعور عن علي بن أبي طالب عن النبي ﷺ أنه قال: القرآن صراط الله المستقيم، وحبل الله المتين، وقد تقدم الحديث بتمامه في أول التفسير ولله الحمد والمنة.

فصل

قال محمد تقي الدين: النور المبين هو القرآن، والسنة يقينا لان كلا منهما منزل من الله تعالي: وهما متلازمان لا يمكن اتباع أحدهما الا باتباع الآخر كالشهادتين وكالإسلام والإيمان ولا يستفيد أحد من هذا النور إلا إذا ترك التقليد واتبع الكتاب والسنة فنورهما يضئ له طريقه في الحياة الدنيا وعند الموت وفي البرزخ وفي يوم القيامة وقد علم الله أن بعض الناس يؤمنون بالله ويعتصمون به فيتبعون كتابه ورسوله فهؤلاء هم أهل رحمته وفضله في الدنيا والآخرة وهم الذين هداهم الله صراطه المستقيم وعلم سبحانه أن بعضهم لا يؤمنون بالله حقًا ولا يعتصمون به فلا يتبعون كتابه ولا رسوله فلا يكونون أهلاً لرحمة الله وفضله ولا يسلكون الصراط المستقيم فيستحقون الظلمة والضلال في الدنيا والعذاب المهين في الآخرة اهـ.

سورة المائدة

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣].

في تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير لمؤلفه أخينا العالم السلفي المحقق محمد نسيب الرفاعي ما نصه:

ينهي الله عباده عن تعاطي هذه المحرمات من الميتة، وهي ما مات من الحيوانات حتف أنفه من غير ذكاة ولا اصطياد، لما فيها من المضرة من الدم المحتقن فهي ضارة للدين وللبدن، فلهذا حرمها الله عز وجل ويستثنى من الميتة السمك، فإنه حلال سواء مات بتذكية

أو غيرها، لما رواه مالك والشافعي وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان عن أبي هريرة وأن رسول الله ﷺ سئل عن ماء البحر، فقال: « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » وهكذا الجراد، لما سيأتي من الحديث.

وقوله تعالى: ﴿ وَالدَّمُ ﴾. يعني به المسفوح، كقوله تعالى: ﴿ أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا ﴾. قال ابن عباس وغيره، روي ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه سئل عن الطحال فقال: كلوه، فقالوا: إنه دم فقال إنما حرم عليكم الدم المسفوح وكذا رواه حماد عن عائشة: إنما نهى عن الدم السافح، وروي الشافعي عن ابن عمر مرفوعًا قال رسول الله ﷺ: « أحل لكم ميتتان ودمان، فأما الميتتان فالسمك والجراد، وأما الدمان فالكبد والطحال » قال الأعشى:

وإيـــاك والميتـــات لا تقربنهـــا ولا تأخـذن عظمـا حديـدا فتفصـدا

أي لا تفعل فعل الجاهلية، وكان أحدهم إذا جاع يأخذ شيئًا محددا من عظم ونحوه، فيفصد به بعيره فيجمع ما يخرج منه من الدم فيشربه، ولهذا حرم الله الدم على هذه الأمة.

قوله تعالى: ﴿ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ ﴾. يعني إنسيه ووحشيه، واللحم يعم جميع أجزائه حتى الشحم.

قال (ك) روي ابن أبي حاتم عن أبي أمامة وهو صدى بن عجلان قال (....)[1]: رسول الله ﷺ إلى قومي أدعوهم إلى الله ورسوله، وأعرض عليهم شرائع الإسلام، فأتيتهم، فبينما نحن كذلك إذ جاءوا بقصعة من دم فاجتمعوا عليها يأكلونها، فقالوا: هلم، يا صدى ! فكل قال، قلت: ويحكم، إنما أتيتكم من عند من يحرم هذا عليكم، فأقبلوا عليه، قالوا: وما ذاك ؟ فتلوت عليهم هذه الآية: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ ﴾. الآية. ورواه الحافظ أبو بكر بن مردوية، وزاد بعد هذا السياق قال: فجعلت أدعوهم إلى الإسلام. ويأبون علي: فقلت: ويحكم اسقوني شربة من ماء فإني شديد العطش قال وعلى عباءتي، فقالوا: لا، ولكن ندعك حتى تموت عطشًا. قال: فاغتممت وضربت برأسي في العباءة ونمت على الرمضاء في حر شديد، قال: فأتاني آت في منامي بقدح من زجاج، لم ير الناس أحسن منه، وفيه شراب لم ير الناس ألذ منه، فأمكنني منه فشربته، فلما فرغت من شرابي استيقظت

---

(١) بياض في الأصل .

فلا والله ! ما عطشت ولا عريت (عري كفرح فسدت معدته، قاموس) (بعد تيك) الشربة، ورواه الحاكم في مستدركه وزاد بعد قوله (بعد تيك) الشربة فسمعتهم يقولون أتاكم رجل من سراة قومكم فلم تمجعوه بمذقة، فأتوني بمذقة فقلت: لا حاجة لي فيها ؟ إن الله أطعمني وسقاني، وأريتهم بطني، فأسلموا عن آخرهم اهـ والمجع أكل التمر باللبن.

وفي تفسير البيضاوي ﴿ وَالْمَوْقُوذَةُ ﴾ المضروبة بنحو خشب أو حجر حتى تموت من وقذته إذا ضربها ﴿ وَالْمُتَرَدِّيَةُ ﴾. التي ترددت من علو أو في بئر فماتت ﴿ وَالنَّطِيحَةُ ﴾. التي نطحتها أخرى فماتت بالنطح ﴿ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ ﴾. وما أكل منه السبع فمات وهو يدل على أن جوارح الصيد إذا أكلت مما اصطادته لم يحل ﴿ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾. إلا ما أدركتم ذكاته وفيه حياة مستقرة من ذلك والذكاة في الشرع تكون بقطع الحلقوم والمرئ بمحدد ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ﴾.

وقال (ك): ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ﴾ قال مجاهد وابن جريج: كانت النصب حجارة حول الكعبة وهي ثلاثمائة وستون نصبا، كانت العرب في جاهليتها يذبحون فيها وينضحون ما أقبل منها إلى البيت، بدماء تلك الذبائح، ويشرحون اللحم، ويضعونه على النصب، وكذا ذكره غير واحد، فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع، وحرم عليهم أكل هذه الذبائح التي فعلت عند النصب حتى ولو كان يذكر عليها، اسم الله. فالذبح عند النصب من الشرك الذي حرمه الله ورسوله، وينبغي أن يحمل هذا على هذا، لأنه قد تقدم تحريم ما أهل لغير الله به.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ﴾. أي حرم عليكم أيها المؤمنون أن تستقسموا بالأزلام واحدها زلم وقد تفتح الزاي، فيقال زلم، قد كانت العرب في جاهليتها يتعاطون ذلك وهي عبارة عن قداح ثلاثة، على أحدها مكتوب أفعل، وعلى الآخر: لا تفعل، والثالث غفل ليس عليه شيء، فإذا أجالها فطلع سهم الأمر فعله، أو النهي تركه، وإن طلع الفارغ أعاد، والإستقسام مأخوذ من طلب القسم من هذه الأزلام.

وفي الصحيحين: أن النبي ﷺ لما دخل الكعبة وجد إبراهيم وإسماعيل مصورين فيها وفي أيديهما الأزلام فقال: « قاتلهم الله لقد علموا أنهما لم يستقسما بها أبدا » وقد أمر الله تعالى المؤمنين إذا ترددوا في أمورهم. أن يستخيروه بأن يعبدوه ثم يسألوه الخيرة في الأمر

الذي يريدونه، كما روى الإمام البخاري وأهل السنن عن جابر بن عبد الله قال: (كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن ويقول « إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم لقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر – ويسميه باسمه – خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال: عاجل أمري وآجله، فاقدره لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه اللهم وإن كنت تعلم أنه شر لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفني عنه وأصرفه عني وأقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به » .

وقوله تعالى: ﴿ **الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ** ﴾. أي يئسوا من مشابهة المسلمين لما تميز به المسلمون من هذه الصفات المخالفة للشرك وأهله، ولهذا قال تعالى آمرا لعباده المؤمنين أن يصبروا ويثبتوا في مخالفة الكفار، ولا يخافوا أحدا إلا الله فقال تعالى: ﴿ **فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ** ﴾. أي لا تخافوهم في مخالفتكم إياهم واخشوني أنصركم عليهم وأبدهم وأظفركم بهم، واشف صدوركم منهم، وأجعلكم فوقهم في الدنيا والآخرة وقوله تعالى: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا** ﴾. هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة، حيث أكمل تعالى لهم دينهم فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء وبعثه إلى الإنس والجن فلا حلال إلا ما أحله، ولا حرام إلا ما حرمه ولا دين إلا ما شرعه وكل شيء أخبر به فهو الحق والصدق لا كذب فيه ولا خلف، كما قال تعالى: ﴿ **وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً** ﴾. أي صدقا في الأخبار، وعدلا في الأوامر والنواهي، فلما أكمل لهم الدين تمت عليهم النعمة، ولهذا قال تعالى: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا** ﴾. أي فارضوه أنتم لأنفسكم، فإنه الدين الذي أحبه ورضيه وبعث به أفضل الرسل الكرام، وأنزل به أشرف كتبه، وبعد هذه الآية لا يحتاج المؤمنون المسلمون إلى زيادة أبدا، قد أتم الله الإسلام فلا ينقصه أبدا، وقد رضيه فلا يسخطه أبدا، وقد نزلت هذه الآية يوم عرفة، ولم ينزل بعدها حلال ولا حرام، ومات رسول الله ﷺ

بعد عرفة بأحد وثمانين يوما.

روى الإمام أحمد عن طارق بن شهاب قال: (جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، إنكم تقرؤون آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت، لاتخذنا ذلك اليوم عيدا، قال وأي آية ؟ قال قوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾. فقال: عمر والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ عشية عرفة في يوم جمعة).

ورواه الستة إلا أبا داوود وابن ماجه.

وقوله تعالى: ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾. أي فمن احتاج إلى تناول شيء من هذه المحرمات التي ذكرها الله تعالى لضرورة ألجأته إلى ذلك، فله تناوله، والله غفور رحيم له لأنه تعالى يعلم حاجة عبده المضطر وافتقاره إلى ذلك فيتجاوز عنه ويغفر له.

قال القاسمي في فوائده المتعلقة بهذه الآية ما نصه:

الثالثة: قال صاحب (فتح البيان) لا معنى للإكمال في الآية إلا وفاء النصوص بما يحتاج إليه الشرع، أما بالنص على كل فرد فرد، أو باندراج ما يحتاجون إليه تحت العمومات الشاملة، ومما يؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾، وقوله: ﴿ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾. وقد صح عنه ﷺ أنه قال: « تركتكم على الواضحة ليلها كنهارها » ، وجاءت نصوص الكتاب العزيز بإكمال الدين، وبما يفيد هذا المعنى، وبصحيح دلالته ويؤيد برهانه، ويكفي في دفع الرأي، وأنه ليس من الدين، فإنه إذا كان الله قد أكمل دينه قبل أن يقبض إليه نبيه ﷺ، فما هذا الرأي الذي أحدثه أهله بعد أن أكمل الله دينه ؟ لأنه إن كان من الدين في اعتقادهم — فهو لم يكمل عندهم إلا برأيهم، وهذا فيه رد للقرآن، وإن لم يكن من الدين، فأي فائدة في الاشتغال بما ليس منه ؟ وما ليس منه فهو رد بنص السنة المطهرة — كما ثبت في الصحيح، وهذه حجة قاهرة ودليل باهر لا يمكن أهل الرأي أن يدفعوه بدافع أبدا فاجعل هذه الآية الشريفة أول ما تصك به وجوه أهل الرأي، وترغم به أنفهم، وتدحض به حجتهم، فقد أخبرنا في محكم كتابه أنه أكمل دينه، ولم يمت

رسول الله ﷺ إلا بعد أن أخبرنا بهذا الخبر عن الله عز وجل، فمن جاء بشيء من عند نفسه وزعم أنه من ديننا قلنا له: إن الله أصدق منك: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴾. اذهب لا حاجة لنا في رأيك، وليت المقلدة فهموا هذه الآية حق الفهم حتى يستريحوا ويريحوا.

وقد أخبرنا الله في محكم كتابه أن القرآن أحاط بكل شيء علما فقال: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾. وقال: ﴿ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾. ثم أمر عباده بالحكم بكتابه فقال: ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ ﴾. وقال: ﴿ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾. وقال: ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾. وقال: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾. وفي آية هم ﴿ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ وفي أخرى ﴿ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ وأمر عباده أيضا في محكم كتابه بإتباع ما جاء به رسوله ﷺ فقال ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ وهذه أعم آية في القرآن وأبينها في الأخذ بالسنة المطهرة. وقال: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾. وقد تكرر هذا في مواضع من الكتاب العزيز.

وقال: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾. وقال: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾. والاستكثار من الاستدلال على وجوب طاعة الله وطاعة رسوله لا يأتي بعائدة ولا فائدة زائدة، فليس أحد من المسلمين يخالف في ذلك، ومن أنكره فهو خارج عن حزب المسلمين وإنما أوردنا هذه الآيات الكريمة، والبينات العظيمة تليينا لقلب المقلد الذي جمد، وصار كالجلمود فإنه إذا سمع مثل هذه الأوامر القرآنية، ربما امتثلها وأخذ دينه من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، طاعة لأوامره، فإن هذه الطاعة وإن كانت معلومة لكل مسلم، لكن الإنسان قد يذهل عن القوارع الفرقانية والزواجر المحمدية، فإذا ذكر بها ذكر، ولاسيما من نشأ على التقليد، وأدرك سلفه ثابتين عليه غير متزحزحين عنه فإنه يقع في قلبه ؛ إن دين الإسلام هو هذا الذي هو عليه، وما كان مخالفًا له فليس من الإسلام في شيء، فإذا راجع نفسه رجع، ولهذا تجد الرجل إذا نشأ على مذهب من هذه المذاهب، ثم سمع — قبل أن يتمرن بالعلم ويعرف ما قاله الناس — خلاف ذلك المألوف، استنكره وأباه قلبه، ونفر عنه طبعه، وقد رأينا

وسمعنا من هذا الجنس ما لا يأتي عليه الحصر، ولكن إذا وازن العاقل بعقله، بين من أتبع أحد أئمة المذاهب في مسألة من مسائله التي رواها عنه المقلد ولا مستند لذلك العالم فيها، بل قالها بمحض الرأي لعدم وقوفه على الدليل وبين من تمسك في تلك المسألة بخصوصها بالدليل الثابت في القرآن والسنة: أفاده العقل بأن بينهما مسافات تنقطع فيها أعناق الإبل، لا جامع بينهما، لأن من تمسك بالدليل أخذ بما أوجب الله عليه الأخذ به، وأتبع ما شرعه الشارع لجميع الأمة، أولها وآخرها وحيها وميتها، والعالم يمكنه الوقوف على الدليل من دون أن يرجع إلى غيره، والجاهل يمكنه الوقوف على الدليل بسؤال علماء الشريعة، واسترواء النص، وكيف حكم الله في محكم كتابه أو على لسان رسوله في تلك المسألة فيفيدونه النص إن كان ممن يعقل الحجة إذا دل عليها، أو يفيدونه مضمون النص بالتعبير عنه بعبارة يفهمها، فهم رواة وهو مسترو، وهذا عامل بالرواية لا بالرأي، والمقلد عامل بالرأي لا بالرواية لأنه يقبل قول الغير من دون أن يطالبه بحجة، وذاك في سؤاله يطالب بالحجة لا بالرأي، فهو قابل لرواية الغير لا لرأيه وهما من هذه الحيثية متقابلان، فانظر كم الفرق بين المنزلتين ؟ والكلام في ذلك يطول ويستدعي استغراق الأوراق الكثيرة، وهو مبسوط في مواطنه، وفيما ذكرناه مقنع وبلاغ، وبالله التوفيق.

فصل

قال محمد تقي الدين: كل من يدعو إلى توحيد الله بصدق وإخلاص يعطيه الله تعالى كرامات لاحد لها كما أعطى أبا أمامة هذه الكرامة لما منعوه الشراب والطعام سقاه الله تعالى في المنام شربة أشبعته وأروته اللهم ارزقنا الإخلاص في الدعوة إليك وافتح لنا القلوب المقفلة والأبواب المغلقة فأنت الغني الكريم وقوله وهو يدل على أن جوارح الصيد إذا أكلت مما اصطادته لم يحل جوارح الصيد هي الكلاب والبزاة والصقور التي يستعملها الصيادون. قال الله تعالى: ﴿ **وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** ﴾. وقال النبي ﷺ: « إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل » أو كما قال النبي ﷺ والتكليب هو تعليم الكلاب أن تصيد الوحوش فما صاده الكلب المعلم جاز أكله وإن

وجد ميتا وما صاده الكلب غير المعلم أو الناقص التعليم إذا أدركت حياته وذبح فسال منه الدم وحرك يدا أو رجلا فهو حلال وأما إذا لم تدرك ذكاته فإنه لا يحل وعلامة الكلب المعلم أن ترسله على الصيد ثم تدعوه فيرجع فهذا يصيد لك فإن لم يرجع فإنما يصيد لنفسه. قوله: ﴿ **وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ** ﴾. تقدم في الجزء الأول من سبيل الرشاد أن الذبح بقصد التعظيم عبادة فمن ذبح على قبة أو قبر أو شجرة أو حجر أو عين ماء أو ذبح للجنية عائشة قنديشة أو لزميلتها مسعودة أو للشيخ جمعة وهو اسم جني يعبده جهال المصريين أو لميمون بن شمهروش وهو من معبودات المغاربة أو ذبح للجن بدون تعيين بعد نهاية بناء دار لأن لا يؤذوه أو ذبح على أهل بين ليزوجوه ابنتهم كل ذلك شرك وكفر وأكل تلك الذبيحة حرام لأنه كل ذلك مما أهل به لغير الله وإن ذكر اسم الله عليهما لأن الأعمال إنما هي بالنيات وهم قد قصدوا تعظيم تلك البقعة بالذبح اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: الاستقسام بالأزلام موجود عند الشعوب الجاهلة بما جاء به الأنبياء والمرسلون من توحيد الله تعالى واعتقاد أنه لا يعلم الغيب غيره والمجرمون المحتالون يستغلون جهل الشعوب فيستقسمون لهم بالأزلام بطرق مختلفة منها ما ذكر في تفسير هذه الآية ومنها في هذا الزمان شيء يسمى قرعة الأنبياء وهو جدول كل بيت من بيوته فيه اسم نبي فيجيء الجاهل أو الجاهلة إلى الكاهن فيضع له الجدول ويقول غمض عينيك وضع إصبعك فيضع إصبعه فإن أصابت سهم آدم أو نوح أو إبراهيم أو موسى يقرأ عليه ما كتب من القصة فيخبره بأنه سيجري عليه من المصائب أو النعم تقريبا مثل ما جرى على ذلك النبي ويزيد في ذلك ويزخرف القول ويجعل النتيجة حسنة والعاقبة حميدة فيأخذ منه شيئا من الدراهم على هذا التكهن وبعضهم يستعمل خط الرمل وبعض الكهان يبيتون ولما زرت بلاد شرقي الحجاز وأوائل نجد وجدت عندهم كاهنات إذا أراد شخص أن يتزوج أو يسافر أو يتجر في شيء يأتي إلى الكاهنة ويقدم له الحلوان ولا يكون أقل من بعير فتبيت له وفي الصبح تخبره وتأمره بالإقدام أو الإحجام وهؤلاء القوم من أهل البادية لم تبلغهم دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فدعوتهم إلى توحيد الله وسنة رسول الله وكان معي أحد أمراء

تلك النواحي ماجد بن موكّد أمير النخيل وقد جاء الإسلام بالاستخارة المذكورة في حديث جابر وقد تقدم وقد قال النبي ﷺ: ليس منا من تكهن أو تكهن له أو تطير أو تطير له.

قوله: واخشون أنصركم عليهم كل من خاف الله خوف الله منه كل شيء ومن لم يخف الله خوفه الله من كل شيء وقد رأينا تاريخ الإسلام وتتبعناه من أوله فرأينا المسلمين حين كانوا يخافون الله نصرهم الله في كل معركة وفي كل مكان فلما قل خوفهم من الله قل انتصارهم وفي هذا الزمان انعدم انتصارهم وصاروا عبرة لأولي الأبصار وأصيبوا بذل لم ير التاريخ مثله وصدق العظيم القائل في سورة القتال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾.

فصل

وبهذه الآية وما كتب في تفسيرها تعلم أيها القارئ الموفق والمستمع المهتدى أن التمذهب كله شر وبدعة من أقبح البدع وحسب أهله ضلالا أنهم تفرقوا في دينهم وليسوا من الله في شيء ورسوله ليس منهم في شيء والواجب على كل مسلم أن يكون في أمور الدين كما كان أصحاب رسول الله ﷺ إمام واحد ودين واحد وأمة واحدة واله واحد لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون لا مذاهب، لا طرائق متصوفة لا أحزاب سياسية وحسبنا حزب الله إلا أن حزب الله هم المفلحون قال الشاطبي في الاعتصام قال مالك رحمة الله من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدًا ﷺ خان الرسالة لأني سمعت الله يقول اليوم أكملت لكم دينكم وما لم يكن يومئذ دينا لا يكون اليوم دينا، ومن المعلوم أن التمذهب وإتباع طرائق الصوفية ولبس الخرقة واتخاذ الأوراد والاجتماع للذكر بلسان واحد كما يفعل اليهود والنصارى في كنائسهم والتفرق إلى أحزاب متناطحة والاجتماع على الرقص والغناء وآلات اللهو والمكاء والتصدية كأصوات الحيوان ونسبة ذلك إلى دين الله إفك مبين وبناء القباب على القبور والذبح عليها والنذر لها واتخاذها مواسم وأعيادا، كل ذلك لم يكن في زمن النبي ﷺ دينا فلن يكون دينا أبدا.

(قال الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري في كتابه جامع بيان العلم وفضله) في

الجزء الثاني صفحة (١٠٩) ما نصه:

قد ذم الله تبارك وتعالى التقليد في غير موضع من كتابه فقال: ﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ الله** ﴾. ثم ذكر الآيات والآثار التي تقد م ذكرها في الباب الرابع من سورة البقرة: والباب الأول من سورة النساء ومضى إلى أن قال: فيما رواه بسنده عن الحسين بن علي من آل علي بن أبي طالب. وكان أفضل زمانه:

تريد تنام على ذي الشبه	**وعلك أن نمت لم تنتبه**
فجاهد وقلد كتاب الإله	**لتلقي الإله إذا مت به**
فقد قلد الناس رهبانهم	**وكل يجادل عن راهبه**
وللحق مستنبط واحد	**وكل يري الحق في مذهبه**
ففيما أرى عجب غير أن	**بيان التفرق من أعجبه**

ثم قال: ولم تختلف العلماء أن العامة عليها تقليد علمائها وإنهم المرادون بقول الله عز وجل: ﴿ **فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾. وأجمعوا على أن الأعمى لابد له من تقليد غيره ممن يثق بميزه للقبلة إذا أشكلت عليه فكذلك من لا علم له ولا بصر بمعنى ما يدين به لابد له من تقليد عالمه وكذلك لم يختلف العلماء أن العامة لا يجوز لها الفتيا وذلك والله أعلم لجهلها بالمعاني التي منها يجوز التحليل والتحريم والقول في العلم وقد نظمت في التقليد وموضعه أبياتًا رجوت في ذلك جزيل الأجر لما علمت أن من الناس من يسرع إليه حفظ المنظوم ويتعذر عليه المنثور وهي من قصيدة لي:

يا سائلي عن موضع التقليد خذ	**مني الجواب بفهم لب حاضر**
واصغ إلى قولي ودن بنصيحتي	**واحفظ على بوادري ونوادري**
لا فرق بين مقلد وبهيمة	**تنقاد بين جنادل ودعاثر**
تبا لقاض أو لمفت لا يرى	**عللا ومعنى للمقال السائر**
فإذا اقتديت فبالكتاب وسنة المبعوث	**بالدين الحنيف الطاهر**
ثم الصحابة عند عدمك سنة	**فأولاك أهل نهى وأهل بصائر**

وكـــذاك إجمـــاع الـــذين يلـــونهم مـــن تـــابعهم كـــابرا عـــن كـــابر
إجمـــاع أمتنـــا وقـــول نبينـــا مثـل النصـوص لـذا الكتـاب الزاهـر
وكـــذا المدينـــة حجـــة أن أجمعـــوا متتـــابعين أوائـــلا بـــأواخر
وإذا الخـلاف أتـى فـدونك فاجتهـد ومـع الـدليل فمـل بفهـم وافـر
وعلى الأصول فقس فروعـك لا تقس فرعـا بفـرع كـالجهول الحـائر
والشـر مـا فيـه فـديتك أسـوة فـانظر ولا تحفـل بزلـة مـاهر

ثم روي أبو عمر من طريق ابن وهب صاحب مالك عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « من قال على ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار ومن استشار أخاه فأشار عليه بغير رشده فقد خانه. ومن أفتى بفتيا عن غير تثبت فإنما إثمها على من أفتاه » .

قال محمد تقي الدين: جميع المفتين بالتقليد من كتب الفروع المذهبية (....)[1] هذا الأثر الذي أوعد به رسول الله ﷺ ثم قال: أبو عمر: وقد احتج جماعة من الفقهاء وأهل النظر على من أجاز التقليد بحجج نظرية عقلية بعد ما تقدم فأحسن ما رأيت من ذلك. قول المزني رحمه الله وأنا أورده قال: يقال لمن حكم بالتقليد هل لك من حجة فيما.

وقد احتج جماعة من الفقهاء وأهل النظر على من أجاز التقليد بحجج نظرية عقلية بعد ما تقدم فأحسن ما رأيت من ذلك. قول المزني رحمه الله وأنا أورده قال: يقال لمن حكم بالتقليد هل لك من حجة فيما حكمت به فإن قال: نعم. أبطل التقليد لأن الحجة أوجبت ذلك عنده لا التقليد. وإن قال حكمت فيه بغير حجة قيل له، فلم أرقت الدماء وأبحت الفروج وأتلفت الأموال وقد حرم الله ذلك إلا بحجة. قال عز وجل: ﴿ **إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا** ﴾ أي من حجة بهذا، قال: فإن قال: أنا أعلم أني قد أصبت وإن لم أعرف الحجة، لأني قلدت كبيرًا من العلماء، وهو لا يقول إلا بحجة خفيت على قيل له إذا جاز لك تقليد معلمك لأنه لا يقول إلا بحجة خفيت عليك فقلد معلم معلمك فإنه لا يقول إلا بحجة خفيت عليك فإن قال: نعم ترك تقليد معلمه إلى تقليد معلم معلمه وكذلك من هو

---

(١) ممسوح بالأصل.

أعلى حتى ينتهي الأمر إلى أصحاب رسول الله ﷺ وإن أبى ذلك نقض قوله، وقيل له ؟ كيف تجوز تقليد من هو أصغر منك وأقل علمًا ولا تجوز تقليد من هو أكبر منك وأكثر علمًا. وهذا متناقض « فإن قال » لأن معلمي وإن كان أصغر فقد جمع علم من هو فوقه إلى علمه فهو أبصر بما أخذ وأعلم بما ترك قيل له وكذلك من تعلم من معلمك فقد جمع علم معلمك وعلم من فوقه إلى علمه فيلزمك تقليده وترك تقليد معلمك وكذلك أنت أولى أن تقلد نفسك من معلمك لأنك جمعت علم معلمك وعلم من فوقه إلى علمك فإن أعاد قوله جعل الأصغر ومن يحدث من صغار العلماء أولى بالتقليد من أصحاب رسول الله ﷺ وكذلك الصاحب عنده يلزمه تقليد التابع والتابع من دونه في قياس قوله والأعلى الأدنى أبدًا. وكفى بقول يؤول إلى هذا قبحًا وفسادًا.

قال أبو عمر: وقال أهل العلم والنظر حد العلم التبيين وإدراك المعلوم على ما هو به فمن بان له الشيء فقد علمه قالوا: والمقلد لا علم له ولم يختلفوا في ذلك ومن هنا والله أعلم قال البحتري:

عرف العالمون فضلك بالعلم وقال الجهال بالتقليد
وأرى الناس مجمعين على فضلك من بين سيد ومسود

وقال أبو عبد الله بن خويز منداد البصري المالكي: التقليد معناه في الشرع: الرجوع إلى قول لا حجة لقائله عليه وذلك ممنوع منه في الشريعة. والاتباع: ما ثبت عليه حجة. وقال في موضع آخر من كتابه: كل من اتبعت قوله من غير أن يجب عليك قوله لدليل يوجب ذلك فأنت مقلده. والتقليد في دين الله غير صحيح. وكل من أوجب عليك الدليل اتباع قوله فأنت متبعه.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى

ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

قال (ك) يقول تعالى مخبرًا عن نفسه الكريمة أنه قد أرسل رسوله محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق إلى جميع أهل الأرض عربهم وعجمهم أميهم وكتابيهم وأنه بعثه بالبينات والفرق بين الحق والباطل فقال: ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** ﴾ أي يبين ما بدلوه وحرفوه وأولوه وافتروا على الله فيه ويسكت عن كثير مما غيروه ولا فائدة في بيانه وقد روي الحاكم في مستدركه بسنده عن ابن عباس ﷺ قال: من كفر بالرجم فقد كفر بالقرآن من حيث لا يحتسب، قوله: ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ** ﴾ فكان الرجم مما أخفوه ثم قال صحيح ولم يخرجاه ثم أخبر تعالى عن القرآن العظيم الذي أنزله على نبيه الكريم فقال: ﴿ **قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ** ﴾ أي طرق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة ﴿ **وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ أي ينجيهم من المهالك، ويوضح لهم أبين المسالك فيصرف عنهم المحذور، ويحصل لهم أحب الأمور، وينفي عنهم الضلالة ويرشدهم إلى أقوم حالة.

فصل

قال محمد تقي الدين: قال جمال الدين القاسمي في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿ **وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** ﴾. ما نصه:

(وفي هذه الآية بيان معجزة له ﷺ، فإنه لم يقرأ كتابًا ولم يتعلم علمًا من أحد، فأخباره بأسرار ما في كتابهم أخبار عن الغيب، فيكون معجزًا) وقد أجاد رحمه الله كل الإجادة فلو أن شخصًا في هذا الزمان الذي سهلت فيه دراسة اللغات والعلوم أراد أن ينتقد كتب اليهود والنصارى المقدسة عندهم وعند المسلمين في الجملة لاحتاج إلى ذكاء خارق وجهود مضنية وسنين كثيرة ليطلع على ما يخفونه ولا يحبون أن يطلع عليه غيرهم من السوآت والمخازي فإذا وجد شخص في زمان لم تكن فيه مدارس حرة ولا جامعات وكانت الدراسة محتكرة

عند أهل كل دين لا يسمحون بتعلم كتابهم المقدس عندهم إلا للخاصة وهذا الشخص ليس يهوديًا ولا نصرانيًا ولا يوجد في بلده أحد من اليهود والنصارى ثم أخبر بما يخفونه ولا يطلع عليه إلا خاصتهم لكان ذلك من أكبر المعجزات وخوارق العادات وخصوصًا بعد ما جاورهم النبي ﷺ في المدينة وأخذ يفضحهم ويبين ما يخفونه كآية الرجم وفي صحيح البخاري أن يهوديًا زنى بيهودية فاختلف علماء اليهود في عقابهما فرفعوا أمرهما إلى النبي ﷺ ليمتحنوه من جهة وليفصل النزاع من جهة أخرى وقبل أن يحكم في هذه القضية سألهم ما تجدون في كتابكم قالوا نسخم وجوههما ونطوف بهما ليفتضح أمرهما وحسبهما ذلك عقابًا. فقال لهم النبي ﷺ كذبتم ! عقابهما في كتابكم الرجم بالحجارة حتى يموتا فقالوا هذا لا يوجد في كتابنا. فأمرهم بإخراج التوراة وقراءتها فأتوا بها وجعل أحد علمائهم يقرأها وعبد الله بن سلام ﷺ حاضر وقد وضع اليهودي يده على آية الرجم فقال له عبد الله بن سلام ارفع يدك فافتضح أمرهم فأمر النبي ﷺ برجمهما فرجما حتى ماتا وفي قصة إسلام عبد الله بن سلام ﷺ برهان قاطع على أن الذي يعلم محمدًا ﷺ بما في كتب اليهود هو الله وحده لا شريك له فإن عبد الله بن سلام كان أعلم اليهود في المدينة وكان أبوه كذلك فلم يزل ينقب في التوراة ويختار أصعب المسائل فيلقيها على النبي ﷺ فينزل عليه الوحي ويجيبه عنها حتى أيقن أن أمر محمد صلوات الله وسلامه عليه رباني لا حيلة فيه فقال: عند ذلك أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ثم قال: يا رسول الله (إن اليهود قوم بهت) وإني أريد أن تسألهم عني قبل أن يطلعوا على إسلامي فخبأه النبي ﷺ ثم دعا رؤساء اليهود وعلماءهم وقال لهم ما تقولون في عبد الله بن سلام. (فقالوا) كلهم: سيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا. فقال: « أرأيتم لو أسلم » يعني: أتسلمون، فقالوا أعاذه الله من ذلك ؟ فقال رسول الله: يا عبد الله اخرج فخرج من مخبئه وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. فقالوا: أجهلنا وابن أجهلنا وأرذلنا وابن أرذلنا. فتناقضوا في الحين وكذبوا أنفسهم تعصبًا منهم للباطل.

فصل

إذا علم أن من اتبع رضوان الله لابد أن يتبع النور والكتاب المبين ولا يقلد في دين الله

أحدًا ولا يشرك بالله شيئًا ولا يبتدع في دين الله مثقال ذرة وحينئذ فقد يهدى سبل السلام ويخرج من الظلمات إلى النور بإذن الله ويهدي إلى صراط مستقيم اهـ.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾

[المائدة: ٤٤، ٥٠].

قال (خك) أي مختصر بن كثير ما نصه:

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ أي لا يخرجون عن حكمها ولا يبدلونها ولا يحرفونها ﴿ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ ﴾ أي عبادهم وعلماؤهم ﴿ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ ﴾ أي بما استودعوا من كتاب الله الذي أمروا أن يظهروه ويعملوا به ﴿ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾ أي لا تخافوهم وخافوني ﴿ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ فيه قولان سيأتي بيانهما.

وقد روي العوفي وعلى بن أبي طلحة الوالبي عن ابن عباس أن هذه الآيات نزلت في اليهودين اللذين زنيا.

قال البيضاوي في تفسيره ما نصه:

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ مستهينًا به منكرًا له ﴿ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ لاستهانتهم به وتمردهم بأن حكموا بغيره ولذلك وصفهم بقوله الكافرون والظالمون والفاسقون فكفرهم لإنكاره وظلمهم بالحكم على خلافه وفسقهم بالخروج عنه ويجوز أن تكون كل واحدة من الصفات الثلاث باعتبار انضمت إلى الامتناع عن الحكم به ملائمة لها ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ وفرضنا على اليهود ﴿ فِيهَا ﴾ في التوراة ﴿ أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ﴾ أي أن النفس تقتل بالنفس. وكذلك العين مفتوءة بالعين والأنف مجدوع بالأنف والأذن مصلومة بالأذن والسن مقلوعة بالسن. ﴿ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ أي ذات قصاص. ﴿ فَمَن تَصَدَّقَ ﴾ من المستحقين ﴿ بِهِ ﴾ بالقصاص أي فمن عفا عنه ﴿ فَهُوَ ﴾ فالتصدق ﴿ كَفَّارَةٌ لَّهُ ﴾ للمتصدق يكفر الله به ذنوبه ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ ﴾ من القصاص وغيره ﴿ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾.

قال ابن الجوزي في تفسيره ما نصه:

قوله تعالى: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم ﴾ أي: واتبعنا على آثار النبيين الذين أسلموا

﴿ بِعَيسَى ﴾ فجعلناه يقفو آثارهم ﴿ مُصَدِّقًا ﴾ أي بعثناه مصدقًا ﴿ لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾. ﴿ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا ﴾ ليس هذا تكرارًا للأول، لأن الأول لعيسى، والثاني للإنجيل، لأن عيسى كان يدعو إلى التصديق بالتوراة، والإنجيل أنزل وفيه ذكر التصديق بالتوراة وقوله تعالى: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فِيهِ ﴾ أي أمر أهل الإنجيل أن يحكموا بما أنزل الله فيه.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ يعني القرآن ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أي: بالصدق ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ قال ابن عباس: يريد كل كتاب أنزله الله تعالى ﴿ وَمُهَيْمِنًا ﴾ أي شاهدًا قاله صاحب اللسان وغيره وهو من آمن غيره من الخوف قلبت الهمزة هاء (وفي تفسير الجلالين ما نصه): فاحكم بينهم بين أهل الكتاب إذا ترافعوا إليك ﴿ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾. ﴿ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ ﴾ عادلاً ﴿ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ ﴾ أيها الأمم ﴿ شِرْعَةً ﴾ شريعة ﴿ وَمِنْهَاجًا ﴾ طريقًا واضحًا في الدين يمشون عليه ﴿ وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ على شريعة واحدة ﴿ وَلَـكِن ﴾ فرقكم فرقًا ﴿ لِّيَبْلُوَكُمْ ﴾ ليختبركم ﴿ فِيمَا آتَاكُم ﴾ من الشرائع المختلفة لينظر المطيع منكم والعاصي ﴿ فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ ﴾ سارعوا إليها ﴿ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ بالبعث ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ من أمر الدين ويجزي كلاً منكم بعمله ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ ﴾ أن ﴿ يَفْتِنُوكَ ﴾، يضلوك، ﴿ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ عن الحكم المنزل وأرادوا غيره ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم ﴾ بالعقوبة في الدنيا ﴿ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ التي أتوها ومنها التولي ويجازيهم على جميعها في الأخرى ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾ ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾، بالياء والتاء يطلبون من المداهنة والميل إذا تولوا استفهام إنكاري ﴿ وَمَنْ ﴾ أي لا أحد ﴿ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ ﴾ عند قوم يوقنون، به خصوا بالذكر لأنهم الذين يتدبرونه.

فصل

قال محمد تقي الدين: قوله: « مستهينًا به منكرًا له » أي مستهينًا بما أنزل الله ومنكرًا أن

يكون صالحًا للحكم كأكثر حكام أهل هذا الزمان فإنهم يصرحون بأن الشريعة المحمدية لا تصلح للحكم في هذا الزمان ويطبقون ذلك فعلاً فيحكمون بقوانين مأخوذة من أعداء الإسلام ولا يقيمون شيئًا من الحدود فهم المعنيون بهذه الآية وقد أمر الله جميع الأنبياء وأممهم أن يحكموا بشرعه وحذرهم مع عصمتهم أن يحكموا بخلافه وهذا التحذير موجه لأممهم وناهيك أنه قال لخير خلقه ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ الآيات، فكل أمة تعلم شريعة رسول ثم تعرض عنها فبشرها بعذاب مهين لا تدرك خيرًا في دنياها ولا في أخراها ويبقى غضب الله واقعًا عليها حتى ترجع ما تركته من الحق.

الباب الرابع

الآية: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٦٦].

قال (ك): ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ قال ابن عباس وغيره هو القرآن ﴿ لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ أي لو أنهم عملوا بما في الكتب التي بأيديهم عن الأنبياء على ما هي عليه من غير تحريف ولا تبديل ولا تغيير لقادهم ذلك إلى إتباع الحق والعمل بمقتضى ما بعث الله به محمدًا ﷺ فإن كتبهم ناطقة بتصديقه والأمر بإتباعه حتمًا لا محالة وقوله تعالى: ﴿ لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ يعني بذلك كثرة الرزق النازل عليهم من السماء والنابت لهم من الأرض وهذا كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ ﴾ وقال تعالى: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ الآية: وقد روي الإمام أحمد وابن ماجه بإسناد صحيح عن زياد بن لبيد أنه قال: « ذكر النبي ﷺ شيئًا فقال: « وذاك عند ذهاب العلم » قال: قلنا يا رسول الله: وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا، وأبناؤنا يقرئونه أبناءهم إلى يوم القيامة فقال: « ثكلتك أمك يا ابن لبيد إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون بما فيهما بشيء » .
وقوله تعالى: ﴿ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُونَ ﴾ كقوله: ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ

يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ وكقوله في إتباع عيسى: ﴿ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ الآية، فجعل أعلى مقاماتهم الاقتصاد وهو أوسط مقامات هذه الأمة وفوق ذلك رتبة السابقين.

فصل

قال محمد تقي الدين: كل أمة آمنت برسولها وبجميع الرسل وبكتابها وبسائر الكتب المنزلة واتبعت سنة رسولها يوسع الله رزقها وينصرها على أعدائها وكل أمة ارتدت على أدبارها ونبذت كتاب ربها وسنة نبيها يضيق رزقها الحسي والمعنوي وتشقى شقاء عظيمًا لا نهاية له إلا برجوعها إلى الله وتوبتها واتباع كتاب ربها وسنة رسولها. أما قراءة القرآن المجردة، بدون فهم ولا اتباع فإنها لا تزيدها إلا شرًا.

سورة الأنعام

الباب الأول

الآية: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٤، ١١٦].

قال محمد تقي الدين: أنقل تفسير هذه الآيات من كتابي الإلهام والأنعام في تفسير سورة الأنعام ما نصه:

تقدم أن المشركين أرادوا أن يحاكموا النبي ﷺ إلى عمه أبي طالب، فأمره الله أن يقول لهم، أفغير الله أطلب حكمًا ؟ لن أفعل ذلك أبدًا، أنا لا أرضى إلا بحكم الله، والحكم هو الحاكم النزيه الذي لا يحكم إلا بالحق و، وكما أن الخلق والأمر لله. فالحكم لله وحده، قال تعالى في سورة يوسف: ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ ﴾ [يوسف: ٤١] فأنبياء الله وأتباعهم لا

يحكمون إلا بحكم الله ولا يتحاكمون إلا إلى الله، فهو وحده الحكم العدل، وكل حكم يخالف حكمه فهو باطل، قال تعالى في سورة المائدة: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥١] وقوله سبحانه: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً ﴾ يعني أن الذي أنزل الكتاب وبين فيه جميع الأحكام لا يعدل عن حكمه إلا خاسر مبطل.

فكيف يطمعون من نبي الله أن يرضى بحكم غير الله. وإنما أرسله الله ليجاهد في سبيله حتى يكون الحكم له وحده، لا شريك له، وما دخل الخلل والضعف والخذلان على المسلمين إلا بعد ما جعلوا الحكم لغير الله وابتغوا غيره حكمًا، وجعلوا كتابه وراء ظهورهم فعاقبهم الله وجعلهم وراء الناس جزاء وفاقًا. وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ .... ﴾ إلخ. إخبار منه سبحانه بأن أهل الكتاب علماءهم يعلمون أن القرآن منزل من الله ملازم للحق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ويعلمون أن الرسول محمدًا حق. ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ الشاكين، ومثله قوله تعالى في سورة يونس: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ [يونس: ٩٥]. ثم قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً.... ﴾ إلخ. يعني أن كل ما أخبر الله به فهو حق واقع، وكل ما حكم به فهو عدل، فمما أخبر به من أن رسله والذين آمنوا بهم واتبعوهم منصورون وهم الأعلون وأن أعداءهم خاسرون مخذولون. يلازمهم الخزي والضلال المبين، وكل ما أوجبه الله في القرآن فالعامل به موفق سعيد، وتاركه شقي خائب مهين، وكل ما نهى الله عنه فهو مفسدة محققة ومضرة مهلكة، ولن يستطيع أحد أن يبدل كلمات الله لا ألفاظها ولا مدلولاتها وهو السميع لأقوال عباده، العليم بأحوالهم وأفعالهم المجازي كلا بما يستحق، ثم قال: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ الخرص هو القول بالحزر والكذب، المعنى العام، هذا خطاب من الله تعالى لرسوله ﷺ يخبره أن أكثر أهل الأرض هم على باطل وضلال، فلا يستوحش أحد من قلة المؤمنين الصالحين، ولا يغتر أحد بكثرة الكافرين الضالين، فموافقة الأكثرين خروج عن سبيل الله وضلال، فأوجب الله على

رسوله وعلى المؤمنين به أن يكونوا مع الصادقين وأن يتمسكوا بالحق ولا يغتروا بكثرة أهل الباطل. كما أخبر أن أهل الباطل ليسوا على بصيرة من أمرهم، وإنما يخزرون ويقدرون ويتبعون الظنون الكواذب، بخلاف أهل الحق فإنهم على يقين لاشك فيه اطمأنت قلوبهم بالإيمان ونشطت أجسامهم للعمل، وقد أخبرنا النبي ﷺ كما في صحيح البخاري من حديث أسماء بنت أبي بكر الصديق أن المؤمن يسأل في قبره، يقال له: ما علمك بهذا الرجل ؟ فيقول: هو محمد جاءنا بالبينات فآمنا به واتبعناه، هو محمد هو محمد هو محمد، فيقال له، نم صالحًا، قد علمنا إن كنت لموقنا به، وأما المنافق أو المرتاب فيقول: لا أدري سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته. فالمؤمن على يقين من أمره في الدنيا وفي القبر، والمنافق والمرتاب، ليس عنده إلا الخرص والظن في الدنيا وفي الآخرة. ﴿ **وَمَن كَانَ فِي هَـٰذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً** ﴾.

فصل

قال محمد تقي الدين: أمر الله نبيه ﷺ أن لا يتحاكم إلى غيره وفي ذلك أمر لأمته أن لا يتخذوا حكمًا إلا الله ويردوا كل نزاع إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وقد تقدم الكلام في هذا مستوفى في سورة النساء.

الباب الثاني

الآية: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

تفسير هذه الآية من كتاب الإلهام ونصه:

ضرب الله سبحانه مثلاً للمؤمنين والكافرين، فأخبر أن من كان كافرًا فأسلم كمن كان ميتًا فأحياه الله وأعطاه نورًا يسير به في الناس يعرف به ما ينفعه ويرفعه فيرغب فيه ويأتيه، وما يضره ويخفضه فيرغب عنه ويذره، أما من بقي على كفره فهو ميت في ظلمات، ظلمة في عقيدته لجهله بالحق واعتقاده الباطل، وظلمة في أخلاقه، إذ ليس له وازع يمنعه من ارتكاب مساوئ الأخلاق، وظلمة في معاملته للناس، إذ ليس عنده شيء من مراقبة الله

وخشيته حتى يعامل الناس بالعدل والرحمة فهو في ظلمات متنوعة، وقد جاء هذا المعنى في مواضع كثيرة من كتاب الله قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. وقال تعالى في سورة فاطر ١٩-٢٢: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (٢٠) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاء وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾. وقوله سبحانه: ﴿ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾.

قال مؤلفه: المراد بالتزيين عدم إجبارهم وقسرهم على اتباع الحق.

فصل

قال محمد تقي الدين: إتباع القرآن وبيانه الذي جاء به الرسول ﷺ وهو السنة حياة ونور والإعراض عنهما موت وظلمة وسبب الموت والظلمة اللذين أصيب بهما المسلمون في هذا الزمان إعراضهم عن كتاب الله وسنة رسوله فما داموا في هذا الإعراض يستمر موتهم وظلمتهم حتى يرجعوا إليهما وهذا الموت المعنوي والظلمة المعنوية أشد ضررًا من الموت الحسي والظلمة الحسية كما قال الشاعر:

ليس من مات فاستراح بميت ... إنما الميت ميت الأحياء

إنما الميت من يعيش كئيبًا ... كاسفا باله قليل الرجاء

وهذه حال المسلمين في هذا الزمان.

الباب الثالث

الآية: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

تفسير هذه الآية من كتاب الإلهام ونصه:

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ... ﴾ إلخ. أي تفرقوا فيه شيعًا أي فرقًا، لست منهم

في شيء أي أنت بريء منهم براءة تامة، إنما أمرهم إلى الله، أي حسابهم وعقابهم إلى الله موكول، وهو الذي يخبرهم بما كانوا يفعلون ويعاقبهم عليه، ولهذه الآية نظائر في الكتاب العزيز منها قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ** ﴾ [الشورى: ١٤]. فأخبر سبحانه وتعالى أن ما شرعه لأمة محمد ﷺ من الدين هو عين ما شرعه للأمم السابقة بواسطة رسلهم، فتوحيد الله واحد، وتصديق جميع الرسل واحد، وإقامة العدل والإحسان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونصر المظلوم، والتعاون على البر، والجهاد في سبيل الله، والرحمة لخلق الله، فهذه الأصول لا يختلف فيها دين أي رسول مع دين غيره من الرسل، ومن توحيد الله جعل الحكم له وحده لا يشاركه فيه أحد من خلقه، والإيمان بالله ورسله يستلزم أنهم وحدهم المتوسطون بين الله وعباده في تبليغ الأحكام، فلا شارع إلا الله ولا مبلغ إلا رسل الله وكذلك المجتهد لا يدعي أنه حكم بين الخصمين بما أنزل الله، بل يقول كما قال عبد الله بن مسعود، أقول فيها برأي، فإن كان صوابًا فمن الله، وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئ منه، أما تقليد غير المعصوم والاستغناء بما نقل عنه من الأقاويل عن كتاب الله والاعتماد في الحكم والإفتاء على ذلك ونسبة ذلك إلى الله ورسوله، فهو افتراء على الله وصد عن سبيله وتبديل لدينه، فنعوذ بالله من الخذلان، وهنا يحسن أن أنقل من كلام الأئمة في رد التقليد والتمذهب والتعصب ما يكون قرة عين لطالب الحق وسخنة عين للمبتدعين الذين فرقوا دين الله وصدوا عن سبيل الله، وقبل أن أنقل هذه النبذة اليسيرة أحيل القارئ على مطالعة كتاب أعلام الموقعين عن رب العالمين للإمام الحافظ شمس الدين ابن قيم الجوزية، وكتاب جامع بيان العلم وفضله للإمام الحافظ أبي عمر يوسف بن عبد البر النمري، وكتاب إيقاظ همم أولي الأبصار، للإقتداء بسيد المهاجرين والأنصار، وتحذيرهم من الابتداع الشائع في القرى والأمصار، من تقليد المذاهب مع الحمية والعصبية بين فقهاء الأعصار للإمام المحقق ؛ بقية السلف، صالح بن محمد بن نوح الفلاني المغربي وكل هذه الكتب مطبوعة في مصر، وهناك كتب أخرى تشتمل على مباحث قيمة في هذا المعنى لكن الكتب الثلاثة المتقدمة مطبوعة في

مصر، تغني عنها: قال الفلاني رحمه الله: بعد ما ذكر الآيات الدالة على وجوب اتباع الكتاب والسنة في كل زمان ومكان وترك الإفتاء والقضاء بالتقليد وما جاء في ذلك من الوعيد الشديد قال ما نصه في صفحة (٦) وأما الأحاديث الدالة على وجوب العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فكثيرة (ففي الصحيحين من حديث ابن عباس): أن هلال بن أمية قذف امرأته بشريك بن سحماء عند النبي ﷺ، فذكر حديث اللعان وقول النبي ﷺ، أبصروها: فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الأليتين خدلج الساقين، فهو لشريك بن سحماء، وإن جاءت به كذا وكذا فهو لهلال بن أمية، فجاءت به على النعت المكروه، فقال النبي ﷺ: لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن، يريد والله اعلم بكتاب الله قوله تعالى: ﴿ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ﴾ ويريد بالشأن والله أعلم أنه كان يحدها لمشابهة ولدها بالذي رميت به، ولكن كتاب الله، فصل الحكومة وأسقط كل قول وراءه، ولم يبق للاجتهاد بعده موضع.

قال محمد تقي الدين: إذا كان رسول الله ﷺ، وهو سيد العلماء وإمام الأئمة وهو معصوم من الخطأ أحجم عن الحكم برأيه احترامًا للنص القرآني عملاً بقوله تعالى في هذه السورة (١٠٧): ﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ فإذا وجب على النبي ﷺ أن يدع رأيه لكتاب الله فكيف لا يجب على غيره من الناس، وهم ليسوا بأنبياء معصومين، ترك رأيهم إذا خالف نص الكتاب والسنة، هذا بيان ما قصده الأئمة من الاستدلال بهذا الحديث، ثم قال الفلاني رحمه الله: وقال الشافعي في الرسالة التي أرسلها إلى عبد الرحمن بن مهدي أخبرنا سفيان بن عيينة عن عبيد الله بن أبي يزيد عن أبيه قال: أرسله عمر بن الخطاب إلى شيخ من زهرة كان يسكن دارنا، فذهبت معه إلى عمر فسأله عن وليدة من ولائد الجاهلية، فقال، أما الفراش فلفلان وأما النطفة فلفلان، فقال صدقت، ولكن رسول الله ﷺ قضى بالفراش **قال محمد تقي الدين:** وجه الاحتجاج بهذا الخبر على من يفتي ويقضي بالتقليد أن عمر بن الخطاب، صدق الرجل في شهادته بأن النطفة لفلان، يعني الزاني بتلك الأمة، والفراش لفلان، يعني الذي كان يملك تلك الأمة، ومع ذلك حكم بأن الولد للفراش عملاً بقول النبي ﷺ: « الولد للفراش وللعاهر الحجر »

رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

فحكم بنص الحديث وترك الرأي جانبًا.

ثم قال الفلاني: قال الشافعي: وأخبرني من لا أتهم عن ابن أبي ذئب، قال: أخبرني مخلد بن خفاف، قال: ابتعت غلامًا فاستغللته، ثم ظهرت منه على عيب، فخاصمت فيه إلى عمر بن العزيز فقضى لي برده، وقضى علي برد غلته، فأتيت عروة فأخبرته فقال: أروح إليه العشية، فأخبره أن عائشة أخبرتني أن رسول الله ﷺ، قضى في مثل هذا، أن الخراج بالضمان، فعجلت إلى عمر، فأخبرته بما أخبرني به عروة عن عائشة عن رسول الله ﷺ، فقال عمر بن عبد العزيز: فما أيسر علي من قضاء قضيته — والله يعلم أني لم أرد فيه إلا الحق. فبلغتني فيه سنة عن رسول الله ﷺ فأرد قضاء عمر وأنفذ سنة رسول الله ﷺ فراح إليه عروة فقضى لي أن آخذ الخراج من الذي قضى به علي له.

قال محمد تقي الدين: بيان هذا الخبر لمن يقصر فهمه عنه من القراء، أن مخلد بن خفاف اشترى عبدًا من رجل واستخدمه، ثم ظهر له فيه عيب، فدعا بائعه إلى خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز الأموي فحكم عمر على البائع أن يأخذ العبد ويرد ثمنه إلى المشتري وحكم على المشتري أن يعطي البائع أجرة خدمة العبد في المدة التي بقي عنده، ثم قصد مخلد عروة بن الزبير ابن أخت عائشة وتلميذها فحكي له ما حكم به عمر، فظهر لعروة أن ما حكم به عمر مخالف للحديث الذي رواه عن خالته عائشة عن النبي ﷺ، وهو قضاؤه أن الخراج بالضمان.

ومعنى هذا أن النبي ﷺ حكم في مثل هذه القضية، أن المشتري لا يعطي البائع أجرة خدمة العبد، لأنه كان في ضمانه، فلو تلف العبد أو سرق لم يكن للمشتري أن يطالب البائع بثمنه، فأجرة خدمته تقابل ضمانه له، ومن الضمان إيواؤه والنفقة عليه، ووعد عروة السائل أن يذهب إلى الخليفة عمر ويخبره بأن حكمه في تلك القضية مخالف لما حكم به النبي ﷺ، غير أن الرجل لم يصبر حتى ينطلق عروة إلى الخليفة ويخبره بذلك بل ذهب من فوره وأخبر الخليفة بما قاله عروة، فقال الخليفة عمر بن عبد العزيز كلمته العظيمة، ومعناها، ما أسهل علي أن أرجع عن حكمي الذي حكمت به وأنفذ حكم رسول الله ﷺ، والله يعلم أني

لم أرد بحكم ذلك إلا الحق، وهو الموافق لكتاب الله وسنة رسوله، وإذ قد ظهر أني أخطأت فما أسهل الرجوع إلى الحق. قال مخلد: فذهب إليه عروة وأخبره بالحديث فحكم على البائع أن يرد لي ما أعطيته من أجرة خدمة ذلك العبد مدة إقامته عندي، وفي هذه القصة (فائدة أخرى جلية) وهي أن ملوك المسلمين في ذلك الزمان كانوا يذعنون للحق ويفرحون به وينفذونه، ولم يكن العلماء يهابونهم إذا أخطؤوا في الحكم أن يعلموهم بخطئهم.

وهذا يفسر لنا ما أدركه المسلمون في ذلك الزمان من العزة والسؤدد، فأين هذا من الديمقراطية التي يتبجح بها أهل هذا الزمان ؟ لا جرم لو أن قاضيًا من قضاة العصور المتأخرة حكم بحكم فجاءه عالم وأخبره بخطئه لكان نصيب ذلك العالم أن يسمع منه ما يكره، هذا إذا لم يأمر بحبسه، هذا إذا اعترض على قاض فقط، فكيف بمن هو فوقه من الرؤساء كوزير العدل، فضلاً عن رئيس الدولة.

ثم قال الفلاني: قال الشافعي: وأخبرني من لا أتهم من أهل المدينة عن ابن أبي ذئب قال: قضى سعد بن إبراهيم على رجل بقضية برأي ربيعة بن أبي عبد الرحمن فأخبرته عن النبي ﷺ بخلاف ما قضى به.

فقال سعد لربيعة: هذا ابن أبي ذئب وهو عندي ثقة يخبرني عن النبي ﷺ بخلاف ما قضيت به، فقال له ربيعة: قد اجتهدت ومضى حكمك، فقال سعد: وا عجبا، أنفذ قضاء سعد بن أم سعد وأرد قضاء رسول الله ﷺ فدعا سعد بكتاب القضية فشقه، وقضى للمقضي عليه.

فعليك بقراءة هذا الكتاب، فإن فيه من الفوائد العلمية ما تشتد حاجة كل طالب علم إلى معرفته.

سورة الأعراف

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ كِتَـٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا

تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢، ٣].

قال (ك): أي هذا كتاب أنزل إليك أي من ربك ﴿ **فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ** ﴾ قال مجاهد وقتادة والسدي: شك منه، وقيل لا تتحرج به في إبلاغه والإنذار به ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ** ﴾ ولهذا قال ﴿ **لِتُنذِرَ بِهِ** ﴾ أي أنزلناه إليك لتنذر به الكافرين ﴿ **وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ ثم قال تعالى مخاطبًا للعالم ﴿ **اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ** ﴾ أي اقتفوا آثار النبي الأمي الذي جاءكم بكتاب أنزل إليكم من رب كل شيء ومليكه ﴿ **وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء** ﴾ أي لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره فتكونوا قد عدلتم عن حكم الله إلى حكم غيره ﴿ **قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ** ﴾ كقوله ﴿ **وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ** ﴾ وقوله ﴿ **وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ** ﴾ الآية وقوله ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ** ﴾.

فصل

قال محمد تقي الدين: للدين مصدران اثنان فهما عينان نضاختان فيهما الهدى والنور والسعادة الأبدية فمن أعرض عنهما خاب وخسر ألا وهما كتاب الله وسنة رسوله ولا ثالث لهما فمن اتبع رأي شخص غير النبي ﷺ وقلده أمر دينه ولم يطالبه بدليل لأنه بالغ في تعظيمه حتى جعل رأيه مغنيًا عن كتاب الله وسنة رسوله فقد اتخذ من دون الله وليًا وأشرك به في عبادته فحبط عمله وهذا ينطبق على غلاة المتمذهبين وأصحاب الطرائق القدد والمتحزبين في هذا الزمان أحزابًا سياسية ينطح بعضها بعضا وكلهم خاسرون.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ [الأعراف: ٦، ٧].

قال (ك): ﴿ **فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ** ﴾ كقوله: ﴿ **وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ وقوله: ﴿ **يَوْمَ يَجْمَعُ اللّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ**

الْغُيُوبِ ﴾ فيسأل الله الأمم يوم القيامة عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به ويسأل الرسل أيضًا عن إبلاغ رسالاته ولهذا قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ قال عما بلغوا، وقال ابن عباس في قوله: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون ﴿ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ يعني أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير وجليل وحقير لأنه تعالى الشهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء ولا يغفل عن شيء بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾.

فصل

قال محمد تقي الدين: الذي أرسل إلينا نحن معشر المسلمين هو خير خلق الله محمد رسول الله فبلغ إلينا كل ما أنزل الله عليه والله يشهد وأهل العلم يشهدون أنه لم يكتم شيئًا من ذلك فإذا سأله الله تعالى شهد له المؤمنون وإذا سئلنا نحن هل بلغكم رسولكم ما أرسلته به إليكم فلا سبيل إلى الجحود فمن اتبعه بصدق وإخلاص سعد وفاز ومن اتخذ من دون الله أولياء أئمة وشيوخًا ورؤساء أحزاب وهوى وشهوات حقت عليه كلمة العذاب.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ

ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٨].

في (خك): ﴿ **وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَـذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ** ﴾ أي اكتب لنا في هذه الدنيا وفي الآخرة لتحصيل المقصود أي أوجب لنا وأثبت لنا فيهما حسنة وقد تقدم تفسير الحسنة في سورة البقرة ﴿ **إِنَّا هُدْنَـا إِلَيْكَ** ﴾ أي تبنا ورجعنا وأنبنا إليك. وقوله تعالى: ﴿ **قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ** ﴾ أي عظيمة الشمول والعموم كقوله تعالى إخبارًا عن حملة العرش ومن حوله أنهم يقولون: ﴿ **رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا** ﴾ روي الإمام أحمد عن سلمان عن النبي ﷺ قال: « إن لله عز وجل مائة رحمة فمنها رحمة يتراحم بها الخلق وبها تعطف الوحوش على أولادها وأخر تسعًا وتسعين إلى يوم القيامة » وأخرجه مسلم، وقوله تعالى: ﴿ **فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ** ﴾ الآية. يعني فأوجبها أي فسأوجب حصول رحمتي منة مني وإحسانًا إليهم. وقوله تعالى: ﴿ **لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ** ﴾ أي يتقون الشرك والعظائم من الذنوب. وقوله تعالى: ﴿ **وَيُؤْتُونَ الزَّكَـاةَ** ﴾ قيل زكاة النفوس، وقيل الأموال، يحتمل أن تكون عامة لهما فإن الآية مكية ﴿ **وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ** ﴾ أي يصدقون.

﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ** ﴾ وهذه صفة محمد ﷺ في كتب الأنبياء، بشروا أممهم ببعثه وأمروهم بمتابعته ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم، وأخرج البخاري وابن جرير عن عطاء بن يسار قال لقيت عبد الله بن عمرو فقلت أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة قال: أجل: والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا** ﴾ وحرزًا للأميين أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل. ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ولا يجزي السيئة ولكن يعفو ويصفح ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ويفتح به أعينًا عميًا وآذانًا صمًا وقلوبًا غلفًا اهـ.

هذه صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة وهكذا كانت حاله عليه الصلاة والسلام لا يأمر إلا بالخير ولا ينهى إلا عن الشر كما قال عبد الله بن مسعود: إذا سمعت الله يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ فأعرها سمعك فإنه خير تؤمر به أو شر تنهى عنه.

وقوله تعالى: ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ ﴾ أي يحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم من البحائر والسوائب والوصائل والحام ونحو ذلك مما كانوا ضيقوا به على أنفسهم، ﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ ﴾ كلحم الخنزير والربا وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المآكل التي حرمها الله تعالى: قال بعض العلماء. فكل ما أحل الله فهو طيب نافع في البدن والدين وكل ما حرمه فهو خبيث ضار في البدن والدين.

وقوله تعالى: ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي أنه جائز: بالتيسير والسماحة كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال: « بعثت بالحنيفية السمحة » .

وقوله ﷺ لأميرين معاذ وأبي موسى لما بعثهما إلى اليمن: « بشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا وتطاوعا ولا تختلفا » وقال عليه الصلاة والسلام فيما جاء عن صاحبه أبي برزة الأسلمي: « إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل » . وقال ﷺ: « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » ولهذا قال مرشدًا لهذه الأمة أن يقولوا: ﴿ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾.

وثبت في صحيح مسلم: أن الله تعالى قال بعد كل سؤال من هذه، قد فعلت قد فعلت. وقوله تعالى: ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ ﴾ أي عظموه ووقروه، وقوله تعالى: ﴿ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ ﴾ أي القرآن والسنة ﴿ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ في الدنيا والآخرة.

(قل) أي يا محمد ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ هذا خطاب عام للأحمر والأسود والأبيض والعربي

والعجمي ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ وهذا من شرفه وعظمته ﷺ أنه خاتم النبيين وأنه مبعوث إلى الناس كافة كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ ﴾ والآيات في هذا كثيرة والأحاديث أكثر من أن تحصر، وهو أمر معلوم من دين الإسلام ضرورة أنه صلوات الله وسلامه عليه رسول الله إلى الناس كلهم.

روي الإمام أحمد عن ابن شعيب عن أبيه عن جده: أن رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك قام من الليل يصلي فاجتمع وراءه رجال من أصحابه يحرسونه. حتى إذا صلى انصرف إليهم فقال لهم: « لقد أعطيت الليلة خمسًا ما أعطيهن أحد قبلي أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم عامة وكان من قبلي إنما يرسل إلى قومه، ونصرت على العدو بالرعب، ولو كان بيني وبينه مسيرة شهر لملئ مني رعبًا، وأحلت لي الغنائم أكلها وكان من قبلي يعظمون أكلها كانوا يحرقونها، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورا أينما أدركتني الصلاة تمسحت وصليت وكان من قبلي يعظمون ذلك إنما كانوا يصلون في بيعهم وكنائسهم والخامسة هي ما قيل لي سل فإن كل نبي قد سأل فأخرت مسألتي إلى يوم القيامة فهي لكم ولمن شهد أن لا إله إلا الله » . إسناده قوي جيد ولم يخرجوه وروي مسلم عن أبي موسى الأشعري عن رسول الله ﷺ: « والذي نفسي بيده لا يسمع بي رجل من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار » روي الإمام أحمد عن أبي موسى عن رسول الله ﷺ قال: « من سمع بي من أمتي يهودي أو نصراني فلم يؤمن بي لم يدخل الجنة » وقوله تعالى: ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِـي وَيُمِيتُ ﴾ صفة الله تعالى في قول رسول الله ﷺ: « أي الذي أرسلني هو خالق كل شيء وربه ومليكه الذي بيده الأحياء والإماتة وله الحكم » وقوله تعالى: ﴿ فَآمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ ﴾ أخبرهم أنه رسول الله إليهم وهو الذي وعدتم به وبشرتم به في الكتب المتقدمة فإنه منعوت بذلك في كتبهم ولهذا قال النبي الأمي وقوله تعالى: ﴿ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ ﴾ أي يصدق قوله عمله وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه ﴿ وَاتَّبِعُوهُ ﴾ أي اسلكوا طريقه واقتفوا أثره ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أي إلى الصراط المستقيم.

فصل

قال محمد تقي الدين: حسنة الدنيا التي طلبها موسى عليه السلام والتي ذكرها الله تعالى في سورة البقرة. في صفة عباده المؤمنين الذين يقولون ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار وأخبر سبحانه أن لهم نصيبًا مما كسبوا فسرها (ك) بقوله: (فإن الحسنة تشمل كل مطلوب دنيوي من عافية ودار، وزوجة ورزق وعلم نافع وعمل صالح، ومركب هين، وثناء جميل، فكل ذلك مندرج في الحسنة في الدنيا وأما الحسنة في الآخرة فاعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر، وتيسير الحساب وأما النجاة من النار فإنها تقتضي تيسير أسبابه في الدنيا من اجتناب المحارم والآثام، وترك الشبهات والحرام، وقال القاسم أبو عبد الرحمن: من أعطي قلبًا شاكرًا، ولسانًا ذاكرًا، وجسدًا صابرًا فقد أوتي في الدنيا وفي الآخرة حسنة ووقي عذاب النار ولهذا وردت السنة بالترغيب في هذا الدعاء.

وروى الإمام أحمد عن أنس: (أن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد صار مثل الفرخ فقال له رسول الله ﷺ: « هل تدعو الله بشيء أو تسأله إياه » قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجله في الدنيا فقال رسول الله ﷺ: « سبحان الله. لا تطيقه ولا تستطيعه فهلا قلت: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » قال: فدعا الله فشفاه. انفرد به مسلم.

روي الإمام الشافعي بسنده عن عبد الله بن السائب أنه سمع النبي ﷺ يقول فيما بين الركنين — ركن بني جمح والركن الأسود: « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » . روي ابن مردويه بسنده عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: « ما مررت على الركن إلا رأيت عليه ملكًا يقول: آمين فإذا مررتم عليه فقولوا: « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » .

قال محمد تقي الدين: أعظم الحسنات رضوان الله تعالى لقوله تعالى في سورة التوبة:
﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً

﴿فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وإذا حصل رضوان الله تعالى: حصل كل شيء من حسنات الدنيا والآخرة وركن بني جمح هو الركن اليماني الذي يمر عليه الحاج وهو يطوف بالبيت قبل أن يصل الركن الذي فيه الحجر الأسود.

قوله: لأن الآية مكية، يعني أن زكاة الأموال لم تكن مفروضة في مكة وإنما فرضت في المدينة والتحقيق أن الزكاة بمعنى الصدقة لم تزل مفروضة في الإسلام والزكاة التي هي أحد أركان الإسلام وقد بينها النبي ﷺ بين أنواعها والمقادير التي تعطى وأوقاتها ومن تصرف إليهم تأخر ذلك إلى ما بعد الهجرة قال الله تعالى في سورة البينة: **﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾** وسورة البينة مكية.

قال محمد تقي الدين: قوله **﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾** توهم الإمام (ك) أن الضمير يعود على النبي ﷺ والصحيح أنه يعود على القرآن لكن الإيمان بالنبي والإيمان بالقرآن متلازمان فمن لم يؤمن بالنبي لم يؤمن بالقرآن ومن لم يؤمن بالقرآن لا يؤمن بالنبي.

فصل

قال محمد تقي الدين: لما كان الغرض من تأليف هذا الكتاب إقامة البراهين على وجوب اتباع الكتاب والسنة وترك التفرق والتحزب بشكل مذاهب أو طرائق أو أحزاب لم أرد أن أتوسع فيما يرد أثناء البحث من المسائل الأخرى كبشارة الكتب السابقة بنبينا محمد ﷺ ولكني أبين المصادر التي وفتها حقها:

الأول: كتاب إظهار الحق: لرحمة الله الهندي فإنه ذكر ثماني عشرة بشارة نقلها من كتب اليهود والنصارى وأجاد في النقل والبحث والتحقيق انظر الكتاب المذكور مبتدئًا من صفحة (١١٨).

الثاني: فتح البيان للإمام القنوجي في هذا الموضع من تفسير سورة الأعراف.

الثالث: تفسير القاسمي.

الرابع: تفسير الرازي.

وينبغي: أن ينظر في هذه التفاسير في هذا الموضع من سورة الأعراف وفي سورة الصف وفي قوله تعالى: ﴿ **وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ** ﴾ من سورة البقرة.

فصل

الاستدلال بهذه الآيات على اتباع الرسول ﷺ من وجوه الأول: أن رحمة الله. لا تكتب إلا لمن يتبع الرسول.

الثاني: أن الفلاح الذي هو الفوز بالمرغوب والنجاة من المرهوب لا يحصل أبدًا إلا للذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه فهذه أمور أربعة: الإيمان به وتعزيزه أي تعظيمه ونصره في حياته ونصر سنته بعد وفاته واتباع النور الذي أنزل معه وهو القرآن والسنة فمن لم يجمع هذه الأربعة لا يكون من المفلحين أبدًا وكل من اتخذ وليجة تحول بينه وبين هذه الأربعة كالنحلة والمذهب والطريقة والحزب والوطنية والقومية لا يستطيع أبدًا أن يتصف بهذه الأربعة ويكون حنيفًا.

الثالث: قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ **فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾: توكيد لما تقدم وبيان أن الاهتداء بدون اتباع مستحيل.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥].

قال (ك): في قوله تعالى: ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا** ﴾. هو بلعام بن باعوراء ويتصل نسبه بلوط بن هارون بن آزر. قال ابن عساكر: وهو الذي كان يعرف الاسم الأعظم فانسلخ من دينه وله ذكر في القرآن.

روي محمد بن إسحاق بن يسار عن سالم ابن النضر أنه حدث.. أن موسى عليه السلام لما نزل بأرض بني كنعان من أرض الشام وأتى قوم بلعام إليه فقالوا له هذا موسى بن عمران في بني إسرائيل قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بني إسرائيل، وأنا قومك وليس لنا منزل وأنت رجل مجاب الدعوة، فاخرج فادع الله عليهم قال: ويكلم نبي الله معه الملائكة والمؤمنون كيف أذهب أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم. فلم يزالوا به حتى فتنوه فافتتن فسار متوجهًا إلى الجبل الذي يطل على عسكر بني إسرائيل، وهو جبل حسبان حتى إذا أشرف على رأس حسبان وعلى عسكر موسى وبني إسرائيل، جعل يدعو عليهم، ولا يدعو عليهم بشر إلا صرف الله لسانه إلى قومه، ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف لسانه إلى بني إسرائيل، فقال له قومه: أتدري يا بلعام ما تصنع ؟ إنما تدعو لهم وتدعو علينا قال فهذا ما لا أملك، هذا شيء قد غلب الله عليه ثم قال لهم: قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة، ولم يبق إلا المكر والحيلة فسأمكر لكم وأحتال: جملوا النساء وأعطوهن السلع ثم أرسلوهن إلى المعسكر يبعنها فيه.. ومروهن فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها فإنهم إن زنى رجل منهم واحد كفيتموهم، ففعلوا فلما دخلت النساء المعسكر مرت امرأة من الكنعانيين برجل عظيم من بني إسرائيل فلما رآها أعجبته، فقام فأخذ بيدها وأتى بها موسى وقال: إني أظنك ستقول هذا حرام عليك لا تقربها ؟ قال: أجل هي حرام عليك. قال: فوالله لا أطيعك في هذا، فدخل بها قبته فوقع عليها، وأرسل الله عز وجل الطاعون في بني إسرائيل، وكان فنحاص بن العيزار بن هارون صاحب أمر موسى غائبًا، فجاء.. والطاعون يجوس فيهم، فأخبر الخبر فأخذ حربته، وكانت من حديد كلها، ثم دخل القبة وهما متضاجعان فانتظمهما بحربته، ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء، وجعل يقول: اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك ورفع الطاعون، فبلغ عدد الهالكين سبعين ألفًا، ففي بلعام بن باعوراء أنزل الله: ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا** ﴾. إلى قوله: ﴿ **لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾. أي صار مثل الكلب في ضلاله واستمراره فيه هذا من حيث أن الكلب من عادته أن يلهث، إن زجرته أو تركته، وكذلك بلعام لم يعد ينتفع بالدعاء إلى الإيمان أو عدم الإيمان، ففي الحالتين لا ينتفع بالموعظة ولا بالدعوة إلى الإيمان وذلك كما قال تعالى: ﴿ وَسَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾. وقوله تعالى: ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ ﴾. أي لعل بني إسرائيل العالمين بحال بلعام وما جرى له في إضلال الله إياه وإبعاده من رحمته بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه في تعليمه الاسم الأعظم الذي إذا سئل به أعطي وإذا دعي به أجاب في غير طاعة ربه، بل دعا به على حزب الرحمان وشعب الإيمان، أتباع عبده ورسوله في ذلك الزمان كليم الله موسى بن عمران عليه السلام، ولهذا قال تعالى لعلهم يتفكرون أي فيحذرون أن يكونوا مثله فإن الله قد أعطاهم علمًا وميزهم على من عداهم من الأعراب وجعل بأيديهم صفة محمد ﷺ يعرفونها كما يعرفون أبناءهم فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرته ومؤازرته.

وأن من ينصرف عن الإيمان به ﷺ، منهم، وخالف ما في التوراة من صفته، وكتمها أحل الله به ذلا في الدنيا موصولاً بذل الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿ سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا ﴾. أي ساء مثلا مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله، فشبهوا بالكلاب التي لا هم لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة.

فمن خرج من حوزة العلم والهدى، وأقبل على شهوة نفسه، وأتبع هواه صار شبيهًا بالكلب وبئس المثل مثله، وقوله تعالى: ﴿ وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴾. أي ما ظلمهم الله ولكن هم ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن إتباع الهدى، والركون إلى دار البلى، وموافقة الهوى.

وقوله تعالى: ﴿ مَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾.

قال (ك): يقول تعالى: من هداه الله فإنه لا مضل له، ومن أضله فقد خاب وخسر وضل لا محالة، فإنه تعالى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولهذا جاء في حديث ابن مسعود.. (إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات

أعمالنا. من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له) الحديث بتمامه رواه أحمد وأهل السنن وغيرهم اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: كل من أتاه الله القرآن وعلمه السنة ولم يعمل بهما فهو بلعام أي يصيبه ما أصابه لأنه انسلخ من آيات الله وأتبعه الشيطان وكان من الغاوين ولم يرفعه الله بآيات القرآن بل خفضه بها. لأنه أخلد إلى أرض الشهوات ونبذ العمل بالآيات فمثله كمثل الكلب قال بعض العلماء لو علم الله مثلا شرًا من الكلب والحمار لضربه لعلماء السوء الذين لم يعملوا بكتاب الله فقد شبهوا بالكلاب في هذه الآية وبالحمير في آية الجمعة ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا** ﴾. فإذا حملت كتب العلم على ظهر الحمار لا يصل إلى قلبه منها شيء مع مشقة حملها فكذلك القراء والفقهاء المقلدون. الذين لا يتبعون كتاب الله ولا سنة رسوله وكذلك أصحاب الطرائق الضالون الذين يأخذون دينهم عن شيوخ السوء الجهلة بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير.

فصل

في قصة بلعام: عبرة عظيمة لأهل هذا العصر الذين فتنوا بالنساء وأغروهن بالتبرج وكشف سوآتهن على رؤوس الأشهاد وصاروا عبيدًا لهن فخسروا الدنيا والآخرة ولم يبق لهم عرض ولا دين، كذلك يضل الله الظالمين.

سورة الأنفال

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا

يُحْيِيكُمْ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٠-٢٩].

قال (ك): يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ﷺ ويزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به المعاندين له ولهذا قال تعالى: ﴿ **وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ** ﴾. أي تتركوا طاعته، وامتثال أوامره، وترك زواجره ﴿ **وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ** ﴾ أي بعد ما علمتم ما دعاكم إليه ﴿ **وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ** ﴾. قيل المراد المشركون وقيل المنافقون فإنهم يظهرون أنهم قد سمعوا واستجابوا وليسوا كذلك (قلت) ولا منافاة بين المشركين والمنافقين في هذا لأن كلا منهم مسلوب الفهم الصحيح والقصد إلى العمل الصالح، ثم أخبر الله تعالى: أن هذا النوع من بني آدم شر الخلق والخليقة فقال عز من قائل: ﴿ **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابَّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ** ﴾ أي عن سماع الحق ﴿ **الْبُكْمُ** ﴾ عن فهمه ولهذا قال سبحانه: ﴿ **الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ** ﴾ فهؤلاء شر البرية لأن كل دابة مما سواهم مطيعة لله فيما خلقها له وهؤلاء خلقوا للعبادة فكفروا.

ولهذا شبههم بالأنعام في قوله عز وجل: ﴿ **أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** ﴾. ثم أخبر تعالى بأنهم لا فهم لهم ولا قصد لهم صحيح فقال تعالى: ﴿ **وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ** ﴾. أي لأفهمهم وتقدير الكلام، ولكن لا خير فيهم فلم يفهمهم لأنه يعلم أنه ﴿ **وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ** ﴾ أي أفهمهم ﴿ **لَتَوَلَّواْ** ﴾ عن ذلك قصدًا وعنادًا بعد فهمهم

ذلك ﴿ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ عنه.

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾. إلى آخره.

روي البخاري ﴿ اسْتَجِيبُواْ ﴾. أجيبوا ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ لما يصلحكم ثم روي بسنده إلى أبي سعيد بن المعلي (رض) قال كنت أصلي فمر بي النبي ﷺ فدعاني فلم آته حتى صليت ثم أتيته فقال: « ما منعك أن تأتيني ؟ ألم يقل الله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾. ثم قال: « لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج » ، فذهب رسول الله ﷺ ليخرج فذكرت له. وقال معاذ عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: أنه بهذا سمع وقال ﴿ الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ هي السبع المثاني هذا لفظه بحروفه.

وقوله تعالى: ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾. قال: للحق، وقال: هو هذا القرآن فيه النجاة والبقاء والحياة، وقال ففي الإسلام حياتهم بعد موتهم بالكفر وقال: أي للحرب التي أعزكم الله تعالى بها بعد الذل والضعف والقهر وكله قريب وصحيح.

وقوله تعالى: ﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾. قال الإمام أحمد عن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « إن قلوب بني آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفها كيف يشاء.. ثم قال رسول الله ﷺ: اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك » انفرد بإخراجه مسلم عن البخاري.

وقوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾.

قال (ك) يحذر تعالى عباده المؤمنين، اختبارًا ومحنة يعم بها المسيء وغيره لا يخص بها أهل المعاصي ولا من باشر الذنب.

قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين ظهرانيهم. فيعمهم الله بالعذاب، وهذا تفسير حسن جدًا. ولهذا قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾. هي أيضًا لكم، يعني نزلت في أصحاب رسول الله ﷺ وفي غيرهم، والقول بأن هذا التحذير يعم الصحابة وغيرهم،

وإن كان الخطاب معهم هو الصحيح، ويدل عليه الأحاديث الواردة في التحذير من الفتن. ومن أخص ما يذكر هاهنا ما رواه الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال: « والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا من عنده ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم » . وقال عنه أيضًا إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ فيصير منافقًا، وإني لأسمعها من أحدكم في المقعد الواحد أربع مرات، لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتحاضن على الخير أو ليسحتكم الله جميعًا بعذاب، أو ليؤمرن عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم.

روي الإمام أحمد عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إذا ظهرت المعاصي في أمتي عمهم الله بعذاب من عنده فقلت يا رسول الله: أما فيهم أناس صالحون. قال: « بلى » . قالت: فكيف يصنع أولئك ؟ قال: يصيبهم ما أصاب الناس، ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان » .

وقوله تعالى: ﴿ **وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ** ﴾. الآية.

قال (ك) ينبه الله تعالى، عباده المؤمنين على نعمه عليهم وإحسانه إليهم، إذ كانوا قليلين فكثرهم ومستضعفين وخائفين فقواهم ونصرهم وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات، وكثرهم، فأطاعوه في جميع أوامره، هكذا كانوا بمكة قليلين مستضعفين مستخفين، يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر البلاد، فلم يزل ذلك شأنهم حتى أذن الله لهم بالهجرة إلى المدينة فآواهم إليها، وقيض لهم أهلها.

فآووا ونصروا يوم بدر وغيره وواسوا بأموالهم وبذلوا مهجهم في طاعة الله ورسوله، قال قتادة بن دعامة السدوسي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ **وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ** ﴾. قال كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلا وأشقاهم عيشا وأجوعهم بطونًا، وأعراهم جلودًا، وأبينهم ضلالاً، من عاش منهم عاش شقيًا ومن مات منهم ردي في النار. يؤكلون ولا يأكلون.

والله لا نعلم قبيلاً من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منزلاً منهم حتى جاء الله بالإسلام فمكن به البلاد. ووسع به الرزق، وجعلهم به ملوكًا على رقاب الناس،

وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم فاشكروا الله على نعمه فإن ربكم منعم يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ ﴾. إلى آخره.

قال (ك) قال: بعض المفسرين: نزلت في أبي لبابة ابن عبد المنذر حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة لينزلوا على حكم رسول الله ﷺ فاستشاروه في ذلك فأشار عليهم بذلك، وأشار بيده إلى حلقه، أي أنه الذبح، ثم فطن أبو لبابة ورأى أنه قد خان الله ورسوله، فحلف لا يذوق ذواقًا حتى يموت أو يتوب الله عليه، وانطلق إلى مسجد المدينة، فربط نفسه في سارية منه، فمكث كذلك تسعة أيام حتى كان يخر مغشيًا عليه من الجهد، حتى أنزل الله توبته على رسوله فجاء الناس يبشرونه بتوبة الله عليه، وأرادوا أن يحلوه من السارية. فحلف لا يحله منها إلا رسول الله ﷺ بيده، فحله فقال: يا رسول الله: إني كنت نذرت أن أنخلع من مالي صدقة. فقال: « يجزيك الثلث أن تصدق به » رواه عبد الرزاق عن قتادة والزهري.

قال (ك): والصحيح أن الآية عامة وإن صح أنها وردت على سبب خاص، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء.

والخيانة تعم. الذنوب الصغار والكبار اللازمة والمتعدية، وقوله تعالى: ﴿ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ ﴾. قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس، الأمانة: الأعمال التي ائتمن عليها العباد. يعني، الفريضة. يقول: لا تخونوا لا تنقضوها، وقال في رواية: لا تخونوا الله والرسول بترك سنته وارتكاب معصيته.

وقال السدي: إذا خانوا الله والرسول فقد خانوا أماناتهم، وقوله تعالى: ﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾. أي اختبار وامتحان منه لكم إذ أعطاكموها ليعلم أتشكرونه عليها وتطيعونه فيها أو تشتغلون بها عنه. كقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾. وقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾. أي ثوابه وعطاؤه وجناته خير لكم من الأموال والأولاد، وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ. « ثلاث من كن فيه، وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ومن كان يكره أن يعود إلى

الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار » .

وقوله تعالى: ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً ﴾ الآية. قال ابن إسحاق ﴿ فُرْقَاناً ﴾ أي فصلا بين الحق والباطل وهذا التفسير عام شامل فهو يستلزم المخرج والنجاة والنصر، فإن من اتق الله بفعل أوامره وترك زواجره. وفق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصره ونجاته ولنيل الثواب الجزيل، كقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

فصل

قال محمد تقي الدين: كل من أعرض عن كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وهو يدعي الإيمان بهما ينطبق عليه هذا الوصف فيكون من الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ويكون من شر الدواب لأن العبرة بعموم اللفظ ولا يكون مستجيبًا لله وللرسول وقد دعاه لما يحييه ففضل الموت على الحياة والظلمة على النور والضلال على الهدي وحيل بينه وبين قلبه فغوى واتبع هواه فسوف يلقى غيا إلا من تاب.

فصل

قول النبي ﷺ: « بين أصبعين من أصابع الرحمن » . كقوله تعالى لما خلقت بيدي وكقوله تعالى ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ ﴾. فنحن نؤمن أن لله يدين ووجها وأصابع لا كأيدينا ولا كوجوهنا ولا كأصابعنا كما أن له علما ليس كعلمنا وقدرة ليست كقدرتنا وحياة ليست كحياتنا وهذا هو إثبات الصفات الذي يأتي إن شاء الله في الجزء الثالث من هذا الكتاب سبيل الرشاد وهو قادر على أن يبلغنا أمنيتنا في إتمام سبيل الرشاد وانتفاعنا به قبل الموت وهو الغني الكريم ومن رد بعض الصفات وأثبت بعضها من أهل البدع كالخوارج والمعتزلة والأشعرية المتأخرة فقد حرم من إتباع الرسول والصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين وذلك هو الخسران المبين.

فصل

قال محمد تقي الدين: قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾. على تفسير ابن عباس يبين لنا أن كل قوم سكتوا على المنكر كالتبرج والزنى وأكل الربا والحكم بغير ما أنزل الله وشرب الخمر وصنعها وبيعها وأعظم من ذلك بناء القباب على القبور وعبادتها بالذبح والنذر والطواف بها وإقامة المواسم عليها والرشوة وعدم نصر المظلوم يعمهم الله بعذابه.

فصل

قال محمد تقي الدين: تأملوا قصة أبي لبابة، تعلموا أن الصحابة أيضا كانت تصدر منهم ذنوب والفرق بيننا وبينهم هو المبادرة إلى التوبة والإخلاص فيها فربط الإنسان نفسه بسارية من سوار المسجد وتركه الطعام والمنام والراحة تسعة أيام ليس بالأمر الهين ولم يكفه ذلك حتى أراد أن يخرج من ماله لولا أن النبي ﷺ منعه من ذلك وأذن له في الثلث فقط. فهكذا تكون توبة الصادقين.

فصل

قوله أي (اختبار وإمتحان منه لكم إذا أعطاكموه ليعلم أتشكرونه عليها وتطيعونه فيها أو تشتغلون بها عنه) ؟

العلم هنا علم ظهور يراه الناس ويعرفونه فإن الله لا يخفي عليه شيء في الأرض ولا في السماء وليس معناه لينكشف له شيء كان خافيا عليه تعالى الله عن ذلك.

سورة التوبة

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٦].

قال (ك) يقول تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ ﴾ أيها المؤمنون إن تهملوا فلا نخبركم بما يميز أهل العزم الصادق من الكاذب: ﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ أي بطانة دخيلة بل هم في الظاهر والباطن على النصح لله ولرسوله كما قال تعالى: ﴿ الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾.

واختباره المؤمنين هنا حصل بمشروعية الجهاد لهم وفيه الاختبار لعبيده من يطيعه فيه ممن يعصيه، وهو تعالى العالم بما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، فيعلم الشيء قبل كونه ومع كونه على ما هو عليه، لا إله إلا هو ولا رب سواه، ولا راد لما قدره وأمضاه.

(قال الحافظ ابن القيم في أعلام الموقعين) ج٢ ص ٢٩٣.

بعد أن ذكر الآيات التي وردت في ذم إتباع الآباء بلا بصيرة وقد تقدم بعضها في الباب الرابع من سورة البقرة ما نصه.

وهذا في القرآن كثير يذم فيه من أعرض عما أنزله وقنع بتقليد الآباء (فإن قيل) إنما ذم من قلد الكفار وآباءه الذين لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ولم يذم من قلد العلماء المهتدين بل قد أمر بسؤال أهل الذكر وهم أهل العلم وذلك تقليد لهم فقال تعالى: ﴿ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾. وهذا أمر لمن لا يعلم بتقليد من يعلم (فالجواب) أنه سبحانه ذم من أعرض عما أنزله إلى تقليد الآباء وهذا القدر من التقليد هو مما اتفق السلف والأئمة الأربعة على ذمه وتحريمه وأما تقليد من بذل جهده في إتباع ما أنزل الله وخفي عليه بعضه فقلد فيه من هو أعلم منه فهذا محمود غير مذموم ومأجور غير مأزور كما سيأتي بيانه عند ذكر التقليد الواجب السائغ إن شاء الله وقال تعالى: ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾. والتقليد ليس بعلم باتفاق أهل العلم كما سيأتي وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾. وقال تعالى: ﴿ اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾. فأمر بإتباع المنزل خاصة والمقلد ليس له علم. إن هذا هو المنزل وإن كان قد تبينت

له الدلالة في خلاف قول من قلده فقد علم أن تقليده في خلافه إتباع لغير المنزل وقال تعالى: ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾. فمنعنا سبحانه من الرد إلى غيره وغير رسوله وهذا يبطل التقليد وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾. ولا وليجة أعظم ممن جعل رجلا بعينه مختارا على كلام الله وكلام رسوله وكلام سائر الأمة يقدمه على ذلك كله ويعرض كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الأمة على قوله فما وافقه منها قبله لموافقته لقوله وما خالفه منها تلطف في رده وتطلب له وجوه الحيل فإن لم تكن هذه وليجة فلا ندري ما الوليجة.

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا ﴾. وهذا نص في بطلان التقليد (فإن قيل) إنما فيه ذم من قلد من أضله السبيل أما من هداه السبيل فأين ذم الله تقليده (قيل) جواب هذا السؤال في نفس السؤال فإنه لا يكون العبد مهتديا حتى يتبع ما أنزل الله على رسوله فهذا المقلد إن كان يعرف ما أنزل الله على رسوله فهو مهتد وليس بمقلد وإن كان لم يعرف ما أنزل الله على رسوله فهو جاهل ضال بإقراره على نفسه فمن أين يعرف أنه على هدى في تقليده وهذا جواب كل سؤال يوردونه في هذا الباب وإنهم إنما يقلدون أهل الهدى فهم في تقليدهم على هدى (فإن قيل) فأنتم تقرون أن الأئمة المقلدين في الدين على هدى فمقلدوهم على هدى قطعا لأنهم سالكون خلفهم (قيل) سلوكهم خلفهم مبطل لتقليدهم لهم قطعا فإن طريقتهم كانت إتباع الحجة والنهي عن تقليدهم فمن ترك الحجة وارتكب ما نهوا عنه ونهى الله ورسوله عنه قبلهم فليس على طريقتهم وهو من المخالفين لهم وإنما يكون على طريقتهم من اتبع الحجة وانقاد للدليل ولم يتخذ رجلا بعينه سوى الرسول ﷺ يجعله مختارا على الكتاب والسنة يعرضهما على قوله وبهذا يظهر بطلان فهم من جعل التقليد إتباعا وإيهامه وتلبيسه بل هو مخالف للإتباع وقد فرق الله ورسوله وأهل العلم بينهما كما فرقت الحقائق بينهما فإن الإتباع سلوك طريق المتبع والإتيان بمثل ما أتى به.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

قال (ك): روي الإمام أحمد والترمذي وابن جرير من طرق عن عدي بن حاتم رضي الله عنه. أنه لما بلغته دعوة الرسول ﷺ فر إلى الشام وكان قد تنصر في الجاهلية فأسرت أخته وجماعة من قومه ثم من رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها فرجعت إلى أخيها فرغبته في الإسلام، وفي القدوم على رسول الله ﷺ، فقدم عدي إلى المدينة وكان رئيسًا في قومه طيء، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم فتحدثت الناس بقدومه فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عدي صليب من فضة وهو يقرأ هذه الآية: ﴿ **اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ** ﴾ قال.. فقلت: إنهم لم يعبدوهم فقال: بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم.. وقال رسول الله ﷺ يا عدي ما تقول ؟ أيضرك أن يقال الله أكبر، فهل تعلم شيئًا أكبر من الله ؟ ما يضرك.. أيضرك أن يقال لا إله إلا الله، فهل تعلم إلهًا غير الله ؟ ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق. قال فلقد رأيت وجهه استبشر ثم قال: « إن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون » . وقوله تعالى: ﴿ **وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهًا وَاحِدًا** ﴾ أي الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام وما حلله فهو الحلال، وما شرعه اتبع وما حكم به نفذ ﴿ **لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ أي تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد لا إله إلا هو ولا رب سواه.

وقال الإمام صديق بن حسن القنوجي في فتح البيان ما نصه:

قال الرازي في تفسيره: قال شيخنا رحمه الله ثم شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء قرأت عليهم آيات كثيرة من كتاب الله تعالى في بعض المسائل وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات فلم يقبلوا تلك الآيات ولم يلتفتوا إليها وبقوا ينظرون إلي كالمتعجب يعني كيف يمكن العمل بظواهر هذه الآيات مع أن الراوية عن سلفنا وردت على خلافها ولو تأملت حق التأمل

وجدت هذا الداء ساريا في عروق الأكثرين من أهل الدنيا.

والقول الثاني في تفسير هذا الربوبية أن الجهال والحشوية إذا بالغوا في تعظيم شيخهم وقدوتهم فقد يميل طبعهم إلى الحلول والاتحاد وذلك الشيخ إذا كان طالبا للدنيا بعيدا عن الدين كان يأمر إتباعه وأصحابه بأن يسجدوا له وكان يقول لهم أنتم عبيدي فكان يلقي إليهم من حديث الحلول والاتحاد أشياء ولو خلا ببعض الحمقى من أتباعه فربما ادعى الإلهية فإذا كان ذلك مشاهدا في هذه الأمة فكيف يبعد ثبوته في الأمم السالفة وحاصل الكلام أن تلك الربوبية تحتمل أن يكون المراد منها أنهم قبلوا أنواع الكفر فكفروا بالله فصار ذلك جاريا مجرى أنهم اتخذوا أربابا من دون الله ويحتمل أنهم أثبتوا في حقهم الحلول والاتحاد وكل هذه الوجوه الأربعة مشاهد وواقع في هذه الأمة أهـ.

ثم قال القنوجي وفي هذه الآية ما يزجر من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد عن التقليد في دين الله وإيثار ما يقوله الأسلاف على ما في الكتاب العزيز والسنة المطهرة فإن طاعة المتمذهب لمن يقتدي بقوله ويستن بسنته من علماء هذه الأمة مع مخالفته لما جاءت به النصوص وقامت به حجج الله وبراهينه ونطقت به كتبه وأنبياؤه هو كاتخاذ اليهود والنصارى للأحبار والرهبان أربابًا من دون الله للقطع بأنهم لم يعبدوهم بل أطاعوهم وحرموا ما حرموا وحللوا ما حللوا وهذا هو صنيع المقلدين من هذه الأمة وهو أشبه به من شبه البيضة بالبيضة والتمرة بالتمرة والماء بالماء.

فيا عباد الله ويا أتباع محمد بن عبد الله ! ما بالكم تركتم الكتاب والسنة جانبًا وعمدتم إلى رجال هم مثلكم في تعبد الله لهم بهما وطلبه منهم بما دلا عليه وأفاداه فعلمتم بما جاؤوا به من الآراء التي لم تعمد بعماد الحق ولم تعضد بعضد الدين ونصوص الكتاب والسنة تنادي بأبلغ نداء وتصوت بأعلى صوت بما يخالف ذلك ويباينه، فأعرتموها آذانًا صمًا وقلوبًا غلفًا وأفهامًا مريضة وعقولاً مهيضة وأذهانًا كليلة وخواطر عليلة وأنشدتم بلسان الحال:

وما أنا إلا من غزية إن غوت   غويت وأن ترشد غزية أرشد

فدعوا: أرشدكم والله رأيًا من كتب كتبها لكم الأموات من أسلافكم واستبدلوا بها كتاب الله خالقهم ومتعبدهم ومتعبدكم ومعبودهم ومعبودكم واستبدلوا بأقوال من

تدعونهم بأئمتكم وما جاؤوكم به من الرأي بأقوال إمامكم وإمامهم وقدوتهم وقدوتكم وهو الإمام الأول محمد بن عبد الله ﷺ:

دعوا كل قول عند قول محمد فما آمن في دينه كمخاطر

اللهم هادي الضال مرشد التائه موضح السبيل اهدنا إلى الحق وأرشدنا إلى الصواب وأوضح لنا منهج الهداية.

﴿ وَمَا أُمِرُوٓاْ إِلاَّ لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَاحِدًا ﴾. أي والحال أنهم ما أمروا في الكتب القديمة المنزلة عليهم على ألسنة أنبيائهم إلا بعبادة الله وحده وما أمر الذين اتخذوهم أربابًا من الأحبار والرهبان إلا بذلك فكيف يصلحون لما أهلوهم له من اتخاذهم أربابًا اهـ.

وقال محمد بن يوسف الشهير بالمواق في شرحه لمختصر خليل عند قول خليل. (وجهر بها في مسجد كجماعة).

كره مالك اجتماع القراء في سورة واحدة، وقال لم يكن من عمل الناس ورآها بدعة، قال محيى الدين النووي في قوله ﷺ وما اجتمع قوم يتلون كتاب الله الحديث فيه جواز قراءة القرآن بالإدارة وهو مذهبنا ومذهب الجمهور وكرهه مالك وتأول ذلك بعض أصحابه. (ابن رشد) إنما كرهه مالك لأنه أمر مبتدع ولأنهم يبتغون به الألحان على نحو ما يفعل في الغناء فوجه المكروه في ذلك بين (المازري) وظاهر الحديث يبيح الاجتماع لقراءة القرآن في المساجد وإن كان مالك قد قال بالكراهة لنحو ما اقتضى هذا الظاهر جوازه وقال: يُقامون أي يُطردون. ولعله لما صادف العمل لم يستقر عليه كره إحداثه وكان كثيرًا ما يترك بعض الظواهر للعمل.

(وقال عز الدين بن عبد السلام): في قواعده من العجب العجيب أن يقف المقلد على ضعف مأخذ إمامه وهو مع ذلك يقلده كأن إمامه نبي أرسل إليه وهذا نأي عن الحق وبعد عن الصواب لا يرضى به أحد من أولي الألباب بل تجد أحدهم يناضل عن مقلده ويتحيل لدفع ظواهر الكتاب والسنة ويتأولها وقد رأيناهم يجتمعون في المجالس فإذا ذكر لأحدهم خلاف ما وطن عليه نفسه تعجب منه غاية العجب لما ألفه من تقليد إمامه حتى ظن أن الحق منحصر في مذهب إمامه ولو تدبر لكان تعجبه من مذهب إمامه أولى من تعجبه من مذهب غيره.

فالبحث مع هؤلاء ضائع مفض إلى التقاطع والتدابر من غير فائدة فالأولى ترك البحث مع هؤلاء الذين إذا عجز أحدهم عن تمشية مذهب إمامه. قال: لعل إمامي وقف على دليل لم أقف عليه ولا يعلم المسكين. أن هذا مقابل بمثله ويفضل لخصمه ما ذكره من الدليل الواضح فسبحان الله ما أكثر من أعمى التقليد بصره حتى حمله على مثل ما ذكرته وفقنا الله لاتباع الحق أينما كان وعلى لسان من ظهر اهـ بنصه:

(قال ابن عبد البر في كتابه جامع بيان العلم وفضله ج٢ ص١٧١).

واعلم يا أخي أن الفروع لا حد لها تنتهي إليه أبدًا ولذلك تشعبت فمن رام أن يحيط بآراء الرجال فقد رام ما لا سبيل له ولا لغيره إليه لأنه لا يزال يرد عليه ما لم يسمع ولعله أن ينسى أول ذلك بآخره لكثرته فيحتاج أن يرجع إلى الاستنباط الذي يفزع منه ويجبن عنه تورعًا بزعمه أن غيره كان أدرى بطريق الاستنباط منه فلذلك عول على حفظ قوله ثم إن الأيام تضطره إلى الاستنباط مع جهله بالأصول فجعل الرأي أصلاً واستنبط عليه، وقد تقدم في كتابنا هذا كيف وجه القول واجتهاد الرأي على الأصول عندما ينزل بالعلماء من النوازل في أحكامهم ملخصًا في أبواب مهذبة من تدبرها وفهمها وعمل عليها نال حظه ووفق لرشده إن شاء الله.

(واعلم): أنه لم تكن مناظرة بين اثنين أو جماعة من السلف إلا لتفهم وجه الصواب فيصار إليه ويعرف أصل القول وعلته فيجري عليه أمثلته ونظائره وعلى هذا الناس في كل بلد إلا عندنا كما شاء الله ربنا وعند من سلك سبيلنا من أهل المغرب فإنهم لا يقيمون علة ولا يعرفون للقول وجهًا. وحسب أحدهم أن يقول: فيها رواية لفلان ورواية لفلان.

ومن خالف عندهم الرواية التي لا يقف على معناها وأصلها وصحة وجهها فكأنه قد خالف نص الكتاب وثابت السنة ويجيزون حمل الروايات المتضادة في الحلال والحرام وذلك خلاف أصل مالك وكم لهم من خلاف أصول مذهبه مما لو ذكرناه لطال الكتاب بذكره ولتقصيرهم عن علم أصول مذهبهم صار أحدهم إذا لقي مخالفًا ممن يقول بقول أبي حنيفة أو الشافعي أو داوود بن على أو غيرهم من الفقهاء وخالفه في أصل قوله بقي متحيرًا ولم يكن عنده أكثر من حكاية قول صاحبه فقال: هكذا قال فلان وهكذا روينا ولجأ إلى أن يذكر

فضل مالك ومنزلته فإن عارضه الآخر بذكر فضل إمامه أيضًا صار في المثل كما قال الأول:

شكونا إليهم خراب العرا ... ق فعابوا علينا شحوم البقر

فكانوا كما قيل فيما مضى ... أريها السها وتريني القمر

وفي مثل ذلك يقول منذر بن سعيد رحمه الله:

عذيري من قوم يقولون كلما ... طلبت دليلاً هكذا قال مالك

فإن عدت قالوا هكذا قال أشهب ... وقد كان لا تخفي عليه المسالك

وقد قاله بن القاسم العالم الذي ... على قصد منهاج الهدى هو سالك

فإن زدت قالوا قال سحنون مثله ... ومن لم يقل ما قاله فهو آفك

فإن قلت قال الله ضجوا وأكثروا ... وقالوا جميعًا أنت قرن مماحك

وإن قلت قد قال الرسول فقولهم ... أتت مالكًا في ترك ذاك المسالك

وأجازوا النظر في اختلاف أهل مصر وغيرهم من أهل المغرب فيما خالفوا فيه مالكًا من غير أن يعرفوا وجه قول مالك ولا وجه قول مخالفه منهم ولم يبيحوا النظر في كتب من خالف مالكًا إلى دليل يبينه ووجه يقيمه لقوله وقول مالك جهلاً منهم وقلة نصح وخوفًا من أن يطلع الطالب على ما هم فيه من النقص والتقصير فيزهد فيهم وهم مع ما وصفنا يعيبون من خالفهم ويغتابونه ويتجاوزون القصد في دمه ليوهموا السامع أنهم على حق وأنهم أولى باسم العلم وهم ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾.

وأن شبه الأمور بما هم عليه ما قاله منصور الفقيه:

خالفوني وأنكروا ما أقول ... قلت لا تعجلوا فإني سؤول

ما تقولون في الكتاب فقالوا ... هو نور على الصواب دليل

وكذا سنة الرسول وقد ... أفلح من قال ما يقول الرسول

واتفاق الجميع أصل وما تنـ ... ـكر هذا وذا وذاك العقول

وكذا الحكم بالقياس فقلنا ... من جميل الرجال يأتي الجميل

فتعالوا نرد من كل قول ما نفى الأصل أو نفته الأصول

فأجابوا فناظروا فإذا العلم لديهم هو اليسير القليل

فعليك يا بني بحفظ الأصول والعناية بها واعلم أن من عني بحفظ السنن والأحكام المنصوصة في القرآن ونظر في أقاويل الفقهاء فجعله عونًا له على اجتهاده ومفتاحًا لطرائق النظر وتفسيرًا لجمل السنن المحتملة للمعاني ولم يقلد أحدًا منهم تقليد السنن التي يجب الانقياد إليها على كل حال دون نظر ولم يرح نفسه مما أخذ العلماء به أنفسهم من حفظ السنن وتدبرها واقتدى بهم في البحث والتفهم والنظر وشكر لهم سعيهم فيما أفادوه ونبهوه عليه وحمدهم على صوابهم الذي هو أكثر أقوالهم ولم يبرئهم من الزلل كما لم يبرؤوا أنفسهم منه فهذا هو الطالب المتمسك بما عليه السلف الصالح وهو المصيب لحظه والمعاين لرشده والمتبع لسنة نبيه ﷺ وهدي صحابته ﷺ ومن أعفى نفسه من النظر وأضرب عما ذكرنا وعارض السنن برأيه ورام أن يردها إلى مبلغ نظره فهو ضال مضل.

ونقل الحافظ بن رجب في كتابه جامع العلوم والحكم عن الإمام ابن هبيرة الحنبلي أنه قال: من مكايد الشيطان أن يقيم أوثانًا في المعنى تعبد من دون الله مثل أن يتبين لأحدهم الحق فيقول ليس عليه مذهبنا تعظيمًا لمقلد عنده قد قدمه على الحق.

فصل

قال محمد تقي الدين: انظر إلى كرم رسول الله ﷺ وإنزاله الناس منازلهم ورحمته لعزيز قوم ذل. فإن أخت عدي ابنة حاتم الطائي الذي يضرب به المثل في الجود أسرت مع من أسر من قومها فلما وصلت إلى النبي ﷺ لم يقتصر على إطلاق سراحها بل زادها العطاء فكان ذلك سببًا لأن تدعو أخاها عديًا بعدما فر من بلاد الإسلام إلى الشام إلى إخوانه النصارى اليونانيين فجاء إلى النبي ﷺ وقد تبدل خوفه أمنًا وبغضه حبًا وإدباره إقبالاً وكان في عنقه صليب من فضة والنصارى لفساد عقولهم يعتقدون أن المسيح صلب من أجل إنقاذهم ويقدسون عقيدة الصلب ويجعلونها أهم شيء في دينهم ولذلك يتبركون بالصلبان ويتخذونها من الذهب والفضة وغيرهما من المعادن أو الأخشاب ويعتقدون أن اتخاذها في البيوت وتعليقها في الأعناق ينجيهم من الشر في الدنيا والآخرة وإذا مروا بكنيسة خطوا

بأصابعهم في الهواء صلبانًا مشابهة للصليب الذي فوق الكنيسة وقصة الصلب في الأناجيل الأربعة كذبها ظاهر لكل من يقرؤها انظر كتابي البراهين الإنجيلية.

ولما رأى النبي ﷺ الصليب في عنق عدي قال له: ألق عنك هذا الوثن فالصليب وثن حسي وكذلك القبة والقبر إذا عبدا ورجيت منهما البركة وكل جماد ينسب إلى ملك أو نبي أو صالح ترجى منه البركة فهو وثن وما أحسن كلام النبي ﷺ لعدي في بيان التوحيد.

فصل

قال محمد تقي الدين: فكل من جعل له التحليل والتحريم والإيجاب والإباحة والاستحباب من المخلوقين فقد اتخذ ربا حاشا رسل الله الذين يبلغون رسالات الله ولا ينطقون عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى من يطع الرسول فقد أطاع الله فالرسل لا يطالبون بالدليل لأن كلامهم في الدين نعم الدليل وغيرهم لا يجوز قبول قوله إلا بدليل.

فصل

قال محمد تقي الدين: ما أحسن قول الإمام الرازي: ولو تأملت وجدت هذا الداء ساريًا في عروق الأكثرين من أهل الدنيا.

سمي التقليد داء وقد أحسن في هذه التسمية فإن التقليد أشد أمراض القلوب فإن مرض الجسم يمنع الإنسان من الحركة والعمل اللذين بهما يتوصل إلى المنافع والتقليد داء في القلب يمنعه من التفكير والبحث والاستدلال الذي يوصله إلى معرفة الحق.

فصل

قال محمد تقي الدين: قول الإمام الرازي: ولو خلا بالحمقى من أصحابه فربما ادعى الإلهية، أقول قد ادعاها الحلاج وابن العربي الحاتمي وابن سبعين وابن الفارض انظر كتاب تنبيه الغبي على تكفير ابن عربي للإمام البقاعي وتاريخ مكة للفاسي وقد أنشد ابن عربي في الفتوحات لنفسه.

العبد رب والرب عبد ... يا ليت شعري من المكلف

إن قلت عبد فذاك حق ... أو قلت رب أنى يكلف

وقال فيها في تفسير قوله تعالى:

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ** ﴾ الآية. ما نصه إن الذين عبدوا العجل ما عبدوا إلا الله. وإلى ذلك أشار الإمام الصنعاني بقوله في القصيدة الدالية التي تقدم بعضها في أول هذا الكتاب ونص ما قال فيهم يقصد ابن عربي الحاتمي:

واكفر أهل الأرض من ظن أنه ... إله تعالى الله جل عن الند
مسماه كل الكائنات جميعها ... من الكلب والخنزير والفهد والقرد
وإن عذاب النار عذب لأهلها ... سواء عذاب النار أو جنة الخلد
وعباد عجل السامري على هدى ... ولائمهم في اللوم ليس على رشد
تناشدنا عنه نصوص فصوصه ... تنادي خذوا في النظم مكنون ما عندي
وكنت امرأ من جند إبليس فارتقى ... بي الأمر حتى صار إبليس من جندي
فلو مات قبلي كنت أدركت بعده ... دقائق كفر ليس يدركها بعدي
يلوذون عند العجز بالذوق ليتهم ... يذوقون طعم الحق فالحق كالشهد
فقلنا لهم ما الذوق قالوا مثاله ... عزيز فلا بالرسم يدرك والحد
ففشرهم بالكشف والذوق مشعر ... بأنهم عن مطلب الحق في بعد
ومن يطلب الإنصاف يدلي بحجة ... ويرجع أحيانًا ويهدي ويستهدى
هيهات كل في الديانة تابع ... أباه كأن الحق بالأب والجد

فصل

قال محمد تقي الدين: إيراد المواق لكلام عز الدين بن عبد السلام قصد به الرد على الذين يقدسون قول مالك إذا جاء مخالفًا لما يفهم من حديث النبي ﷺ والذي كرهه مالك وأباحه الشافعي واستدل عليه النووي بحديث أبي هريرة عند مسلم وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم الحديث، هو القراءة بالإدارة كما قال النووي وذلك أن يجتمع جماعة من القراء فيقرؤون بالتناوب في سورة واحدة يقرأ أحدهم آيات محدودة ثم يسكت ويقرأ الذي يليه عن يمينه نصيبًا معلومًا، ثم يقرأ الذي يليه وهكذا

حتى ترجع النوبة إلى الأول وكل منهم يجتهد أن يجود قراءته ليستمتعوا باختلاف الأصوات والنغمات أما القراءة التي جاءت من الأندلس إلى المغرب في زمان الموحدين على ما يقال وهي القراءة بصوت واحد مجتمعين لا يستمع أحد لأحد فهي بدعة لم يعرفها مالك ولا وقعت في زمانه لأنها مأخوذة من الكنيسة النصرانية فإن النصارى يرتلون صلواتهم من الأناجيل بصوت واحد فهذه بدعة جديدة وفيها مفاسد متعددة.

الأولى: أنها بدعة، وكل بدعة ضلالة.

الثانية: أن فيها معصية لله تعالى. في قوله: ﴿ وَإِذَا قُرِىءَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ ﴾.

الثالثة: أن كل واحد من القراء تتقطع قراءته عند اضطراره إلى التنفس فتفوته كلمة أو كلمات.

الرابعة: أنهم يضطرون إلى قطع المد الواجب لأجل التنفس في نحو. جاء وشاء وذلك حرام وفي نصوص محمد التهامي بن الطيب السجلماسي الغرفي صاحب نصرة الكتاب. ما نصه.

الجمع بين الوصل والوقف حرام: نص عليه غير عالم همام هذا في الوقف على آخر الكلمة دون سكت فكيف بمن يقطع الكلمة نصفين. وقد شرع أخونا حسن وجاج في تأليف كتاب يقيم فيه البراهين القاطعة على بدعة ما يسمى عند المغاربة بالحزب ويحدد تاريخ وصولها إلى المغرب وما فيها من المفاسد وهو عمل مشكور نرجو أن ينفع الله به من شاء من عباده حتى يقضي على هذه البدعة التي أصيب بها المغاربة وحدهم دون جميع المسلمين والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

قول الإمام (عز الدين بن عبد السلام) رحمه الله: فالأولى ترك البحث مع هؤلاء، لأن البحث مع المقلد كالكلام مع البهيمة بل بعض البهائم يفهم ما يقال له ويستجيب إذا دعي كالكلب المعلم والقرد والمقلد لا يكاد يفهم ولا يجيب فهو كما قال ابن المعتز (لا فرق بين بهيمة تنقاد. وإنسان يقلد) وتقدمت أبيات الحافظ بن عبد البر التي يقول فيها:

لا فرق بين مقلد وبهيمة تنقاد بين جنادل ودعاثر

ولكن هنالك طريق آخر لإيصال الحق إلى القلوب السليمة وهو طريق الدعوة إلى إتباع الكتاب والسنة وطرح التقليد والمذهب. وقد سلكنا هذا الطريق منذ خمس وخمسين سنة فوجدناه مفيدًا له ثمرة طيبة وفيه القضاء على المقلدين من أدعياء الفقه لأنهم إذا رأوا العامة أعرضوا عنهم حين تبين لهم نور الكتاب والسنة ونبذوهم نبذ الحذاء الممزق يسقط في أيديهم ويبقون وحدهم منعزلين كالبعير الأجرب فيرجع كيدهم في نحورهم ولا يضرون إلا أنفسهم.

قوله (ولا يعلم المسكين إلى آخره) مثال ذلك مقلد يزعم أنه مالكي يعادي سنة وضع اليمنى على اليسرى عند القيام في الصلاة تناظر مع حنفي أو شافعي أو حنبلي أو مالكي مهتدي فيقول المدعي أنه مالكي وضع اليمنى على اليسرى مكروه والسنة السدل فيقول له خصمه وما دليلك فيقول دليلي ما جاء في المدونة.

وهو أن سحنونًا روي عن ابن القاسم أن مالكًا كره وضع اليمنى على اليسرى في الصلاة الفريضة لما فيه من الاعتماد المزعوم فيقول له خصمه وقد روي إمامي أنا عن شيوخه خلاف ذلك وشيوخ إمامي أقدم من إمامك وأقرب إلى زمان النبوة فيسقط كلامه بكلام خصمه ويفضل لخصمه الدليل القاطع الذي رواه جميع الأئمة ومنهم إمامه على حسب دعواه فإن البخاري ومسلمًا رويا حديث وضع اليمنى على اليسرى عن مالك ولم يثبت أن مالكًا سدل يديه بل قال ابن عبد البر وهو أعلم الناس بعلم مالك.

ما زال مالك يقبض حتى قبضه الله. وجميع أصحاب مالك من العراقيين والحجازيين والمصريين إلا ابن القاسم على قول الحافظ بن عبد البر. (وعلى هذا الناس في كل بلد إلا عندنا كما شاء الله ربنا وعند من سلك سبيلنا من أهل المغرب فإنهم لا يقيمون علة ولا يعرفون للقول وجهًا، وحسب أحدهم أن يقول: فيها رواية لفلان ورواية لفلان، إلى آخر ما تقدم نقله يدلك على أن هذا المرض وهو الجمود على الفروع التي هي من آراء الرجال بدون دليل ظلمات بعضها فوق بعض هذا المرض قديم في الأندلس والمغرب فإن الإمام بن عبد البر من علماء القرن الخامس فإنه توفي سنة ٤٦٣. وقد مضى على وفاته أزيد من تسع مائة سنة زاد فيها الجهل والبعد عن الكتاب والسنة وذهب أمثاله من العلماء الذين كانوا

ينورون الظلمات ويقمعون أهل التقليد والرأي ولكن حتى في زماننا هذا ولله الحمد يوجد بصيص من نور الكتاب والسنة أوقده شيخنا محمد بن العربي العلوي رحمة الله عليه واقتبسه من كتب الشيخين الربانيين ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله زادنا الله من هذا النور فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

وقول الحافظ ابن عبد البر في إنشاده البيتين:

شكونا إليهم خراب العراق فعابوا علينا شحوم البقر

أنشده الحافظ ابن القيم في هذا المعنى وسأشرحه حسب ما يظهر لي فإن كان صوابًا فمن الله وإن كان خطأ فهو مني.

خراب العراق: معناه القحط والجدب وقلة الطعام. وشحوم البقر: معناه التوسع في المآكل والمشارب.

ومعنى ذلك أنهم فهموا ضد ما أردنا كما في المثل العربي القديم: أريها السها، كوكب صغير يكاد لا يرى بالبصر والقمر واضح يراه كل ذي بصر فيضرب هذا المثل لمن يتكلم في أمر دقيق لا يفهمه إلا الأذكياء، يقابل بأمر واضح يفهمه جميع الناس ولا يحتاج إلى بحث كالذي يعلم إنسانًا دقائق علم الجبر فيقول له (الواحد نصف الاثنين) وحضرني الآن مثل يضرب في بلدنا سجلماسة وهو قولهم: كانت امرأة فقيرة تحمل ابنها الصغير وهو يبكي وكانت تتكلم مع امرأة غنية ومعها ابنها أيضًا فقال ابن الغنية لأمه لماذا يبكي هذا فقالت من الجوع يا بني فقال لها فهلا صعد إلى غرفة بيته وأكل بوسكري. وبوسكري بلغة المغاربة هو التمر المعروف بالسكري في بلاد نجد وهو أفضل أنواع التمر. فظن الغلام أن كل غرفة يوجد فيها السكري كما يوجد في غرفة أبيه وأمه وفي هذا النوع من التمر قال الأديب الكبير والعالم المحقق فخر سجلماسة بل فخر المغرب أحمد بن عبد العزيز الهلالي:

جدير بأن يدعى الشهى أبو سكري أبا سكر بين الثمار بلا نكري

يكاد يحاكي في لذاذة طعمه مذاكرتي في العلم مع أبوي بكري

وكان لهذا العالم تلميذان كل منهما يدعى أبا بكر وإليهما أشار بقوله مذاكرتي في العلم مع أبوي بكري.

قال محمد تقي الدين: منذر بن سعيد إمام حافظ حجة انظر ترجمته في نفح الطيب وله أخبار ظريفة طريفة وهذه الأبيات تدل على علمه وأنه كان يحارب التقليد والعصبية الجاهلية للمذهب وقد صرح بأن معاصريه من المقلدين الدواب جعلوا قول مالك وابن القاسم وأشهب وحتى سحنون الذي هو لتلاميذ مالك كل ذلك جعلوه حجة يخالفون من أجله كتاب الله وسنة رسوله ويحاربون من اقتدى بهما ويقولون له أنت قرن مماحك أي خصم مغالط وإذا احتج عليهم بالحديث الصحيح المحكم قالوا له هذا الحديث لا يخفى على مالك وما تركه إلا لعلة أوجبت تركه كأن مالكًا أحاط علمًا بجميع أحاديث الرسول ﷺ لا يغفل عن شيء منها ولا يسهو ولا يخطئ في فهم شيء كذبوا والله مالك بريء من هذا القول على أن الأحاديث المسندة في الموطأ لا تزيد على خمسمائة والأحاديث الصحيحة والحسنة تعد بآلاف يعلم ذلك كل من له أدنى علم بالحديث ومالك رحمه الله بريء منهم كما تقدم.

قوله: (وأجازوا النظر في اختلاف أهل مصر وغيرهم من أهل المغرب فيما خالفوا فيها مالكًا إلى آخره).

هذا من عجائب المتمذهبين يعتدون بالخلاف في داخل المذهب وإن لم يكن عليه دليل ولا يعتدون بالخلاف في خارج المذهب وإن كان معه ألف دليل فمثلهم مثل الأحزاب في هذا الزمان فأهل الحزب الواحد إذا وقع بينهم اختلاف يخذون برأي الأكثر أما إذا وقع بينهم وبين حزب آخر الخلاف فإنهم يضربون به عرض الحائط وقد تقدم أن الواجب على المؤمنين بالله أن يردوا كل نزاع إلى الوحي والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم قول منصور الفقيه (هذا وذا وذاك). يريد الكتاب والسنة والإجماع فتأملوا رحمكم الله فيما نقلته من كلام هذا الإمام. فلله دره ما أنصحه للأمة وما أعلمه بأمراضها ودوائها جعلنا الله وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾

قال (ك): عن ابن عباس في هذه الآية: كان ينطلق من كل حي من العرب عصابة فيأتون النبي ﷺ فيسألونه عما يريدون من أمر دينهم ويتفقهون فيه ويقولون للنبي ﷺ ما تأمرنا أن نفعله ؟ وأخبرنا بما نأمر به عشائرنا إذ قدمنا عليهم، قال فيأمرهم نبي الله ﷺ بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ ويبعثهم إلى قومهم بالصلاة والزكاة وكانوا إذا أتوا قومهم قالوا: من أسلم فهو منا وينذرونهم حتى أن الرجل ليفارق أباه وأمه وكان النبي ﷺ يخبرهم وينذرهم قومهم فإذا رجعوا إليهم يدعونهم إلى الإسلام وينذرونهم النار ويبشرونهم بالجنة.

قال محمد تقي الدين: ومن المناسب أن يذكر هنا حديث مالك بن الحويرث الذي رواه البخاري في صحيحه.

قال مالك بن الحويرث أتينا رسول الله ﷺ ونحن شببة فأقمنا عنده ست عشرة ليلة أو سبع عشرة ليلة وكان رحيمًا فرأى أنا قد اشتقنا إلى أهلنا فقال: ارجعوا فعلموا من وراءكم وإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم وليؤمكم أكبركم سنًا وصلوا كما رأيتموني أصلي.

نفهم من هذا أن الناس كانوا يرحلون من أوطانهم إلى النبي ﷺ ليتعلموا منه ويشاهدوا صلاته ووضوءه ويسمعوا أحاديثه ويتفقهوا في دين الله عند سيد المعلمين وخير الفقهاء وإمام الأئمة صلوات الله وسلامه عليه.

قال البخاري في كتاب العلم: (باب من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين). ثم روي بسنده عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطي، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله » .

قال الحافظ في الفتح: (وهذا الحديث مشتمل على ثلاثة أحكام: أحدها فضل التفقه في الدين. وثانيها: أن المعطي في الحقيقة هو الله. وثالثها: أن بعض هذه الأمة يبقى على الحق أبدًا: فالأول لائق بأبواب العلم، والثاني: لائق بقسم الصدقات، والثالث: لائق بذكر أشراط الساعة، وقد أورده المؤلف في الاعتصام لالتفاته إلى مسألة عدم خلو الزمان عن مجتهد والمراد بأمر الله هنا الريح التي تقبض روح كل من في قلبه شيء من الإيمان ويبقى شرار الناس فعليهم تقوم الساعة ثم قال الحافظ:

وقد جزم البخاري بأن المراد بهم أهل الحديث بالآثار، وقال أحمد بن حنبل: إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم.

فصل

قال محمد تقي الدين: المراد بالتفقه في الدين في الآية والحديث معرفة معاني كتاب الله وأحاديث رسول الله ﷺ وكل علم يوصل إلى ذلك أما الفروع المولدة التي يسميها المتأخرون فقهًا فهي فقر وجهل ولا تمت إلى الفقه بصلة وقد تقدم الكلام في ذلك وجزم البخاري وأحمد بن حنبل بأن المراد بالطائفة التي أخبر الرسول ﷺ بوجودها في أمته حتى يأتي أمر الله هم العلماء بالحديث العالمون به الداعون إليه.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [التوبة: ١٢٨، ١٢٩].

قال (ك) يقول الله تعالى ممتنًا على المؤمنين لما أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم أي من جنسهم وعلى لغتهم كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿ **رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ** ﴾. وقال تعالى: ﴿ **لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ** ﴾ أي منكم وبلغتكم كما قال جعفر بن أبي طالب ﷺ للنجاشي والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى: أن الله بعث فينا رسولاً منا نعرف نسبه وصفته ومدخله ومخرجه وصدقه وأمانته وذكر الحديث.

فصل

قال محمد تقي الدين: وقيل معناه من أنفسكم يا بني آدم فاتباعه أسهل عليكم من إتباع رسول من الملائكة. ﴿ **عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ** ﴾ أي يشق عليه كل ما يوقعكم في العنت والشدة والمشقة ﴿ **حَرِيصٌ عَلَيْكُم** ﴾ أي على هدايتكم وسعادتكم. ﴿ **بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ أي شديد الرأفة والرحمة مشفق عليهم من عذاب الله في الدنيا والآخرة إذا خالفوه وعصوا ربهم ﴿ **فَإِن تَوَلَّوْاْ** ﴾. أي أعرضوا عن الإيمان والإتباع ﴿ **فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ** ﴾. أي يكفيني ﴿ **عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ** ﴾ أي اعتمدت وقد ضمن لي النصر على من ناوأني وعاداني فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ﴿ **وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ** ﴾ وهو على نصر رسوله ومن اتبعه قدير.

وفي صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنه قال: إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارًا، فجعل الفراش والجنادب يقعن فيها وهو يصدهم عنها فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تأبون إلا أن تقحموا فيها هذا معنى الحديث. فالنبي ﷺ حريص على إبعادنا عن كل شر وأن يوصلنا إلى كل خير فمن اتبع الرسول في كل ما جاء به وانتهى عما نهاه عنه ظفر بالسعادة الكبرى ومن قصر عن ذلك كانت سعادته بقدر ما وفق إليه من الإتباع. وأبواب الشر التي حرص الرسول ﷺ أن يبعدنا عنها هي الشرك والابتداع والتقليد والمعاصي.

سورة يونس

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحۡمَةٌ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٌ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ۝٥٨ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٍ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ۝٥٩ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾ [يونس: ٥٧-٦٠].

قال القنوجي في فتح البيان ما نصه باختصار:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾. قيل أراد قريشًا وقيل هو على العموم وهو الأولى ﴿ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ ﴾. يعني القرآن يتعظ به من رآه وعرف معناه والوعظ هو التذكير بالعواقب بالترغيب والترهيب ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾. أي موعظة كائنة من مواعظ ربكم ﴿ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ ﴾. من الشكوك التي تعتري بعض المرتابين، وإنما خص الصدر بالذكر لأنه موضع القلب وداء الجهل أضر للقلب من داء المرض للبدن والقرآن مزيل لأمراض القلب كلها، والهدى الإرشاد لمن اتبع القرآن وتفكر فيه وتدبر معانيه إلى الطريق الموصل إلى الجنة والرحمة، هي ما يوجد في الكتاب العزيز من الأمور التي يرحم بها عباده ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ ﴾. المراد بالفضل من الله سبحانه هو تفضله على عباده في الآجل والعاجل بما لا يحيط به الحصر وعن أنس قال. قال رسول الله ﷺ: فضل الله القرآن ورحمته أن جعلكم من أهله » . رواه أبو الشيخ والأولى حمل الفضل والرحمة على العموم والفرح هو اللذة في القلب بسبب إدراك المطلوب ﴿ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾. أي من حطام الدنيا ولذاتها الفانية.

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً ﴾. أنكم تحكمون بتحليل البعض وتحريم البعض فإن كان بمجرد الهوى فهو مهجور باتفاق العقلاء مسلمهم وكافرهم وإن كان لاعتقادكم أنه حكم الله فيكم وفيما رزقكم فلا تعرفون ذلك إلا بطريق موصلة إلى الله ولا طريق يتبين بها الحلال من الحرام إلا من جهة الرسل الذين أرسلهم الله إلى عباده، (ومعنى إنزال الرزق كون المطر ينزل من جهة العلو) ﴿ قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ ﴾. في هذا التحليل والتحريم والهمزة للإنكار. ﴿ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ ﴾. قال الكرخي: وكفى به زاجرًا لمن أفتى بغير إتقان كبعض فقهاء هذا الزمان اهـ. وإظهار الاسم الشريف وتقديمه على الفعل للدلالة على كمال قبح الافتراء. قلت وفي هذه الآية الشريفة ما يصك مسامع المتصدرين للإفتاء لعباد الله في شريعته بالتحليل والتحريم والجواز وعدمه مع كونهم من المقلدين الذين لا يعقلون حجج الله ولا يفهمونها ولا يدرون ما هي ومبلغهم من العلم الحكاية لقول قائل من هذه الأمة قد قلدوه في دينهم وجعلوه شارعًا مستقلاً ما عمل به من الكتاب والسنة فهو المعمول به عندهم شارعًا مستقلاً ما عمل به من الكتاب والسنة فهو

المعمول به عندهم وما لم يبلغه أو بلغه ولم يفهمه حق فهمه وأخطأ الصواب في اجتهاده وترجيحه فهو في حكم المنسوخ عندهم المرفوع حكمه عن العباد مع كون من قلدوه متعبدًا بهذه الشريعة كما هم متعبدون بها ومحكومًا عليه بأحكامها كما هم محكوم عليهم بها وقد اجتهد رأيه وأدى ما عليه وفاز بأجرين مع الإصابة واجر مع الخطأ إنما الشأن في جعلهم لرأيه الذي أخطأ فيه شريعة مستقلة ودليلاً معمولاً به وقد أخطأوا في هذا خطأ بينًا وغلطوا غلطًا فاحشًا فإن الترخيص للمجتهد في اجتهاد رأيه يخصه ولا قائل من أهل الإسلام المعتد بأقوالهم أنه يجوز لغيره أن يعمل به تقليدًا له واقتداء به. وما جاء به المقلدة في تحسين هذا الباطل فهو من الجهل العاطل. اللهم كما رزقتنا من العلم ما نميز به الحق والباطل فارزقنا من الإنصاف ما نظفر به بما هو الحق عندك يا وهاب الخير. قال النسفي الآية زاجرة عن التجوز فيما يسأل من الأحكام وباعثة على وجوب الاحتياط فيه وأن لا يقول أحد في شيء جائز أو غير جائز إلا بعد إيقان وإتقان وإلا فهو مفتر على الديان.

وقال الحافظ ابن القيم في أعلام الموقعين (ص٢٩٣ ج٢). في الرد على المقلدين الذين يحلون ويحرمون بآرائهم وآراء غيرهم بدون دليل من الكتاب والسنة.

وقد قال تعالى: ﴿ **وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ** ﴾. ولم يقل إلى أقيستكم وآرائكم ولم يجعل الله آراء الرجال وأقيستها حاكمة بين الأمة أبداً (قالوا) وقد قال تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ** ﴾. فإنما منعهم من الخيرة عند حكمه وحكم رسوله لا عند آراء الرجال وأقيستهم وظنونهم وقد أمر سبحانه رسوله بإتباع ما أوحاه إليه خاصة. وقال: ﴿ **إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ** ﴾. وقال: ﴿ **وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ** ﴾. وقال تعالى: ﴿ **أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ** ﴾. قالوا (فدل هذا النص على أن ما لم يأذن به الله من الدين فهو شرع غيره الباطل (قالوا) وقد أخبر النبي ﷺ عن ربه تبارك وتعالى أن كل ما سكت عن إيجابه أو تحريمه فهو عفو عفا عنه لعباده مباح إباحة العفو فلا يجوز تحريمه ولا إيجابه قياسا على ما أوجبه أو حرمه بجامع بينهما فإن ذلك يستلزم رفع هذا القسم بالكلية وإلغاءه إذ السكوت عنه لابد أن يكون بينه وبين المحرم شبه ووصف جامع أو بينه وبين الواجب

فلو جاز إلحاقه به لم يكن هناك قسم قد عفا عنه ولم يكن ما سكت عنه قد عفا عنه بل يكون ما سكت عنه قد حرمه قياسا على ما حرمه وهذا لا سبيل إلى دفعه وحينئذ فيكون تحريم ما سكت عنه تبديلا لحكمه ومضى إلى أن قال: وقال تعالى: ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ** ﴾. فقسم الحكم إلى قسمين قسم أذن فيه وهو الحق وقسم افترى عليه وهو ما لم يأذن فيه فأين أذن لنا أن نقيس البلوط على التمر في جريان الربا فيه، وأن نقيس القصدير على الذهب والفضة والخردل على البر. فإن كان الله ورسوله وصانا بهذا فسمعا وطاعة لله ولرسوله وإلا فإنا قائلون لمنازعين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فما لم تأتنا به وصية من عند الله على لسان رسوله ﷺ فهو عين الباطل. وقد أمرنا الله برد ما تنازعنا فيه إليه وإلى رسوله ﷺ فلم يبح لنا قط أن نرد ذلك إلى رأي ولا قياس ولا تقليد إمام ولا منام ولا كشوف ولا إلهام ولا حديث قلب ولا استحسان ولا معقول ولا شريعة الديوان ولا سياسة الأمراء ولا عوائد الناس التي ليس على شرائع المرسلين أضر منها.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [يونس: ١٠٨، ١٠٩].

قال (ك) يأمر تعالى النبي ﷺ أن يخبر الناس أن ما جاءهم به من الله هو الحق لا شك فيه فالمهتدي إنما ينفع نفسه ومن ضل فراجع ذلك عليه ﴿ **وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ** ﴾. أي وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين وإنما أنا نذير لكم والهداية من الله تعالى، وقوله عز وجل، ﴿ **وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ** ﴾. أي تمسك بما أوحاه إليك واصبر على مخالفيك ﴿ **حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ** ﴾. بينك وبينهم ﴿ **وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ** ﴾. بعدله وحكمته سبحانه وتعالى لا رب غيره.

فصل

قال محمد تقي الدين: أريد أن أتحف القراء والمستمعين بنقل نبذة من كلام ابن القيم في التشنيع على من اتبع الرأي والقياس وترك أحاديث الرسول ﷺ. قال ابن القيم في أعلام الموقعين ج٢ ص٣٠٢.

لو كان القياس من الدين لكان أهله أتبع الناس للأحاديث وكان كلما توغل فيه الرجل كان أشد إتباعا للأحاديث والآثار ونحن نرى أن كل ما اشتد توغل الرجل فيه اشتدت مخالفته للسنن ولا نرى خلاف السنن والآثار إلا عند أصحاب الرأي والقياس فيالله كم من سنة صحيحة صريحة قد عطلت به وكم من أثر درس حكمه بسببه فالسنن والآثار عند الآرائيين والقياسيين خاوية على عروشها معطلة أحكامها معزولة عن سلطانها وولايتها لها الاسم ولغيرها الحكم لها السكة والخطبة ولغيرها الأمر والنهي (وإلا فلماذا ترك العمل بالأحاديث التالية:

(١) حديث العرايا. (٢) حديث أن للزوجة سبع ليال إن كانت بكرا، وثلاثا إن كانت ثيبا ثم يقسم بالسوية. (٣) حديث تغريب الزاني غير المحصن. (٤) حديث المسح على الجوربين. (٥) حديث عمران بن حصين وأبي هريرة في أن كلام الناسي والجاهل لا يبطل الصلاة. (٦) حديث. المصراة. (٧) حديث خيار المجلس. (٨) حديث إتمام الصوم لمن أكل ناسيا. (٩) حديث إتمام صلاة الصبح لمن طلعت عليه الشمس وقد صلى منها ركعة. (١٠) حديث من وجد متاعه عند رجل قد افلس. (١١) حديث القضاء بالشاهد مع اليمين. (١٢) حديث تخيير الغلام بين أبويه إذا افترقا. (١٣) حديث من تزوج امرأة أبيه فيه الأمر بضرب عنقه وأخذ ماله. (١٤) حديث لعن الله المحلل والمحلل له. (١٥) حديث لا نكاح إلا بولي. (١٦) حديث أصدقها ولو خاتما من حديد. (١٧) حديث إباحة لحوم الخيل. (١٨) حديث كل مسكر حرام. (١٩) حديث الرهن مركوب ومحلوب. (٢٠) حديث النهي عن تخليل الخمر. (٢١) حديث لا تحرم المصة ولا المصتان. (٢٢) حديث إذا لم يجد المحرم الإزار يلبس السراويل. (٢٣) حديث منع الرجل من تفضيل بعض ولده على بعض وأنه جور لا تجوز الشهادة عليه. (٢٤) حديث أنت ومالك لأبيك.

(٢٥) حديث الوضوء من لحوم الإبل. (٢٦) حديث المسح على العماملة. (٢٧) حديث الأمر بإعادة الصلاة لمن صلى خلف الصف وحده. (٢٨) حديث من دخل والإمام يخطب يصلي تحية المسجد. (٢٩) حديث الجهر بآمين في الصلاة. (٣٠) حديث جواز رجوع الأب فيما وهبه لولد ولا يرجع غيره. (٣١) حديث الخروج إلى العيد من الغد إذا علم بالعيد بعد الزوال. (٣٢) حديث نضح بول الغلام الذي لم يأكل الطعام. (٣٣) حديث من زرع في أرض قوم بغير إذنهم فليس له من الزرع شيء وله نفقته. (٣٤) حديث بيع جابر بعيره واشتراط ظهره. (٣٥) حديث لا يمنع أحدكم جاره أن يغرز خشبته في جداره. (٣٦) حديث أن أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج. (٣٧) حديث من باع عبدا وله مال فماله للبائع. (٣٨) حديث إذا أسلم وتحته أختان اختار أيتهما شاء. (٣٩) حديث الوتر على الراحلة. (٤٠) حديث كل ذي ناب من السباع حرام. (٤١) حديث من السنة وضع اليمنى على اليسرى في الصلاة. ٤٢) أحاديث رفع اليدين في الصلاة عند الركوع والرفع منه. (٤٣) أحاديث الاستفتاح. (٤٤) حديث كان للنبي ﷺ سكتتان في الصلاة. (٤٥) حديث حمل الصبية في الصلاة. (٤٦) حديث لو أن رجلا اطلع عليك بغير إذنك ففقأت عينه فلا شيء عليك. (٤٧) حديث أيدع يده في فيك تقضمها كما يقضم الفحل. (٤٨) حديث أن بلالا يؤذن بليل. (٤٩) حديث النهي عن عسب الفحل. (٥٠) حديث المحرم إذا مات لم يخمر رأسه.

قال محمد تقي الدين: هذه خمسون حديثًا اخترتها من الأحاديث التي ذكرها الحافظ بن القيم رحمه الله مما يخالفها أصحاب المذاهب تعصبًا لقول إمامهم أو بعض أهل مذهبهم وسأبين هنا معانيها باختصار الحديث:

الأول: رخص النبي ﷺ في بيع العرايا بخرصها من التمر اليابس والعرايا جمع عرية وهي النخلة تكون في بستان رجل فيكره أن يدخل بستانه صاحبها في كل يوم ليجني رطبها شيئًا فشيئًا، فيقول بعني رطب هذه النخلة بخرصها تمرًا يابسًا مع أن بيع التمر بالتمر لا يجوز لأنه من أنواع الربا إلا مثلاً بمثل يدا بيد واستثنى النبي ﷺ العرية للضرر الذي يحلق صاحب البستان بدخول ذلك الرجل كل يوم هكذا فسرها مالك وقال الشافعي العرية رطب نخلة

أو نخلتين يشتريه شخص بمثله تمرًا يابسًا على سبيل الخرص.

الثاني: إذا كان للرجل زوجة أو أكثر ثم تزوج امرأة يجوز أن يقيم عندها سبعة أيام إن كانت بكرًا وثلاثة أيام إن كانت ثيبًا يخصها بذلك ثم بعد ذلك يجب عليه القسم بين الزوجتين أو الزوجات لكل واحدة يومًا وليلة.

الثالث: إذا زنا رجل بامرأة وهو غير محصن أي غير متزوج يجلد مائة وينفي من بلده سنة خالفها بعض المذاهب فنفى التغريب.

الرابع: المسح على الجوربين من صوف أو شعر أو قطن جائز بالأحاديث الصحيحة وقد ألف فيه جمال الدين القاسمي وبعض المذاهب يشترط أن يكون الممسوح من جلد.

الخامس: إذا تكلم الرجل في صلاته وهو يجهل أن الكلام لا يجوز ثم نبه على ذلك وترك الكلام فصلاته صحيحة وكذلك إذا تكلم ناسيًا أو تكلم لإصلاح الصلاة لا تبطل صلاته وقالت الحنفية: تبطل بكل كلام كيف ما كان.

السادس: المصراة، هي الشاة أو البقرة يترك صاحبها حلبها يومًا أو يومين ليخدع المشتري فإذا فعل ذلك فللمشتري أن يردها ويرد معها صاعًا من تمر ترك العمل به بعض المذاهب.

السابع: قال النبي ﷺ: « المتبايعان بالخيار ما لم يتفرقا » ، ومعناه أن كل واحد من المتبايعين يجوز له أن يرجع عن البيع أو الشراء ما داما في المجلس الذي وقع فيه البيع، وقالت المالكية لا يجوز وأولوا التفرق بالتفرق في الكلام تعصبًا لمذهبهم، مع أن عبد الله بن عمر الذي روي الحديث عن النبي ﷺ كان إذا باع شيئًا وأراد أن يثبت البيع فارق ذلك المجلس ثم يرجع إن شاء.

الثامن: قال رسول الله ﷺ: « من أكل أو شرب في نهار رمضان ناسيًا فإنما أطعمه الله وسقاه فلا قضاء عليه » ، وقالت المالكية يجب عليه القضاء.

التاسع: صح عن النبي ﷺ أن من صلى ركعة من الصبح قبل أن تطلع الشمس فقد أدرك الصبح، وقالت الحنفية: إذا طلعت عليه الشمس وهو في صلاة الصبح بطلت.

العاشر: صح الحديث عن النبي ﷺ أن من وجد متاعه بعينه عند رجل أفلس فله أن يأخذه وأنكر بعض المذاهب وقالوا: يقتسمه الغرماء فردوا صريح الحديث تعصبًا لمذهبهم.

الحادي عشر: صح عن النبي ﷺ القضاء بشاهد واحد مع يمين المدعي بكسر العين ورده بعض المذاهب وقالوا لابد من شاهدين.

الثاني عشر: صح عن النبي ﷺ أن الغلام. أي الصبي إذا كان مميزًا وافترق أبوه مع أمه يخير أن يتبع أيهما شاء ورده بعض المذاهب وقالوا لا خيار له بل يجب أن تحضن عليه أمه.

الثالث عشر: صح عن النبي ﷺ، أنه بعث إلى من تزوج بامرأة أبيه أن يقتل ويؤخذ ماله وبعض المذاهب لا يقول بذلك.

الرابع عشر: هذا الحديث صريح في تحريم التحليل وهو أن الرجل إذا حرمت عليه زوجته بأن طلقها ثلاثًا يستأجر رجلاً يتزوج بها ليلة ثم يطلقها له ليتزوج بها ويتحمل لعنة الرسول ﷺ المحلل والمحلل له.

الخامس عشر: ثبت عن النبي ﷺ من حديثه ومن دلالة كتاب الله أنه لا يصح نكاح بلا ولي وقالت الحنفية يجوز للمرأة أن تزوج نفسها.

السادس عشر: صح عن النبي ﷺ أنه قال لرجل: أراد أن يتزوج بامرأة التمس ولو خاتمًا من حديد. فخالفه بعض المذاهب وحددوا الصداق، بعضهم بربع دينار وبعضهم بأكثر وردوا حديث النبي ﷺ.

السابع عشر: روي البخاري عن أسماء بنت أبي بكر الصديق أنها قالت نحرنا على عهد النبي ﷺ فرسًا فأكلناها فقالت الملكية لا يجوز أكل لحوم الخيل.

الثامن عشر: صح عن النبي ﷺ أن كل ما أسكر كثيره من الأشربة فقليله حرام وهو خمر ويقام الحد على شاربه وقالت الحنفية: إن الخمر لا تكون إلاّ من العنب والأشربة التي من غيرها لا يحد شاربها ولو سكر ويجوز تناول القليل منها الذي لا يسكر مع أن الخمر لما أنزل الله تحريمها وأمر النبي ﷺ بإراقتها لم يكن في المدينة خمر إلا من تمر.

التاسع عشر: صح عن النبي ﷺ في الرهن إذا كان حيوانًا يركب أو يحلب أن ينتفع المرهون عنده بركوبه أو لبنه في مقابلة العلف والضمان ورده بعض المذاهب وقالوا لا يجوز.

العشرون: صح النهي عن تخليل الخمر عن النبي ﷺ أي تصييرها خلا بالطبخ أو غيره وقال بعض المذاهب إذا خللت حلت.

الحادي والعشرون: صح عن النبي ﷺ أن المصة والمصتين يمصهما الطفل أو الطفلة من امرأة غير أمه لا يحرم بهما النكاح وإنما يحرم بخمس رضعات كاملات وقالت الحنفية والمالكية تثبت الحرمة بقليل الرضاع وكثيره.

الثاني والعشرون: صح عن النبي ﷺ أنه رخص للمحرم إذا لم يجد إزارًا أن يلبس سراويل وإذا لم يجد نعلين أن يلبس خفين ويقطعهما أسفل من الكعبين وقال بعض المذاهب لا يجوز ذلك.

الثالث والعشرون: صح عن النبي ﷺ أن رجلاً جاءه ليشهده على شيء منحه لأحد أبنائه وقال له النبي ﷺ أمنحت كل واحد من أبنائك مثله قال: لا فقال له النبي ﷺ: أشهد غيري فإني لا أشهد على باطل اتقوا الله وأعدلوا بين أولادكم. خالفه بعض المذاهب فقال يجوز للأب أن يخص بعض أولاده بهبة دون الآخرين.

الرابع والعشرون: صح عن النبي ﷺ أنه قال لرجل تخاصم مع أبيه في مال أنت ومالك لأبيك ورده بعض المذاهب ولم يبيحوا للأب أن يأخذ شيئًا من مال ابنه.

الخامس والعشرون: صح عن النبي ﷺ أنه سئل: أنتوضأ من لحوم الغنم قال إن شئت فقال السائل أنتوضأ من لحوم الإبل قال: نعم، وأكثر المذاهب ردوا هذا الحديث وقالوا لا وضوء على من أكل لحم الإبل.

السادس والعشرون: صح عن النبي ﷺ المسح على العمامة أو على الناصية والعمامة ورده بعض المذاهب وقالوا لا يجوز المسح على العمامة.

السابع والعشرون: صح عن النبي ﷺ أنه أبطل صلاة من صلى منفردًا خلف الصف وبعض المذاهب يقولون بصحتها.

الثامن والعشرون: قال النبي ﷺ إذا دخل أحدكم والإمام يخطب فليركع ركعتين وقالت الحنفية والمالكية لا يركع ركعتين وهذه معصية للرسول ظاهرة.

التاسع والعشرون: ثبت عن النبي ﷺ من غير وجه الجهر بالتأمين ورفع الصوت ومده بآمين وقالت الحنفية والمالكية لا يجهر بها.

الثلاثون: ثبت عن النبي ﷺ أن الأب له أن يرجع فيما وهب أبناءه ورده بعض المذاهب وقالوا لا يرجع.

الحادي والثلاثون: ثبت عن النبي ﷺ أنه جاءه رجل بعد الزوال فأخبره أنه رأى هلال العيد فأمر الناس أن يخرجوا إلى مصلاهم صباح الغد وبعض المذاهب يقولون لا يخرجون.

الثاني والثلاثون: ثبت عن النبي ﷺ النضح من بول الغلام الرضيع قبل أن يأكل الطعام والغسل من بول الجارية وقال بعض المذاهب هما سواء.

الثالث والثلاثون: ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: ليس لعرق ظالم حق فمن زرع في أرض قوم بغير إذنهم فلا حق له في الزرع وإنما يعطي نفقته وخالفه بعض المذاهب.

الرابع والثلاثون: باع جابر بعيرًا من النبي ﷺ واشترط أن يركبه إلى المدينة وقال بعض المذاهب لا يصح هذا البيع.

الخامس والثلاثون: روي أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: لا يمنعن أحدكم جاره أن يغرز خشبته في جداره وقال بعض المذاهب له أن يمنعه.

السادس والثلاثون: حديث يدل على أن ما شرطه ولي المرأة على الزوج يجب الوفاء به وقال بعض المذاهب لا يجب.

السابع والثلاثون: ثبت عن النبي ﷺ أن من باع عبدًا يكون ماله لبائعه ولا حق فيه لمن اشتراه وقال بعض المذاهب له الحق فيه.

الثامن والثلاثون: ثبت عن النبي ﷺ أن من أسلم وعنده أختان يختار إحداهما ويطلق الأخرى وخالفه بعض المذاهب.

التاسع والثلاثون: ثبت عن النبي ﷺ أنه كان يصلي الوتر على راحلته حيث توجهت به ومنع ذلك بعض المذاهب.

الأربعون: روي مالك في الموطأ وغيره أن النبي ﷺ قال: « كل ذي ناب من السباع حرام » وقالت المالكية فيه ثلاثة أقوال عن مالك والمشهور أنه مكروه كراهة تنزيه وبذلك: أباحوا أكل الكلاب حتى عيرتهم جميع المذاهب بذلك قال: الزمخشري:

وأن مالكيًا قالوا قلت بأنني ... أبحت لهم أكل الكلاب وهم هم

فنسبوا إلى مالك تحليل ما حرمه النبي ﷺ فماذا تركوا لأعداء مالك وهم يدعون محبته وتعظيمه وحاشا لمالك أن يحل ما حرمه الرسول بل هم كاذبون عليه.

الحادي والأربعون: ثبت عن النبي ﷺ وضع اليد اليمنى على اليد اليسرى في الصلاة وثبت عن جميع أئمة المذاهب مثل ذلك ومنهم مالك وأصحابه الحجازيون والعراقيون والمصريون إلا ابن القاسم فرجحت المالكية خطأ ابن القاسم على ذلك كله وقالوا بكراهته انظر كتاب الصوارم والأسنة في الذب عن السنة للمحقق محمد بن أبي مدين الشنقيطي.

الثاني والأربعون: ثبت عن النبي ﷺ رفع اليدين عند كل ركوع وكل رفع من الركوع وعند القيام من اثنتين رفع اليدين وألف فيه البخاري كتابًا ورده الحنفية وجهال المالكية.

الثالث والأربعون: أحاديث دعاء الاستفتاح ثابتة عن النبي ﷺ وأخذ بها جميع أهل المذاهب وأنكرتها المالكية تعصبًا وجهلاً.

الرابع والأربعون: ثبت عن النبي ﷺ في الركعة الأولى من الصلاة الجهرية ثلاث سكتات وفي الثانية سكتتان وأحاديثها في الصحيحين وغيرهما وأنكرتها المالكية تعصبًا وجهلاً.

الخامس والأربعون: ثبت عن النبي ﷺ أنه حمل أمامة ابنة ابنته زينب وصلى بها فكان إذا سجد وضعها وإذا قام حملها وقال بعض المذاهب لا يجوز ذلك لأنه عمل كثير يبطل الصلاة ولأن الطفلة لا تؤمن عليها النجاسة وهذه غاية الوقاحة.

السادس والأربعون: ثبت عن النبي ﷺ أن من اطلع على قوم بغير إذنهم وفقؤوا عينه بإشفي لم يكن له أن يطالبهم بدية ولا بقصاص ورده بعض المذاهب.

السابع والأربعون: ثبت عن النبي ﷺ أن من عض يد إنسان فجذب يده فانكسرت سن الجاني فلا دية ولا قصاص على المعضوض وخالفه بعض المذاهب.

الثامن والأربعون: ثبت في الصحيحين قول النبي ﷺ أن بلالاً يؤذن بليل فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم وكان رجلاً أعمى لا يؤذن حتى يقال له أصبحت أصبحت وقال بعض المذاهب لا يجوز الآذان إلا بعد طلوع الفجر.

التاسع والأربعون: ثبت عن النبي ﷺ أنه نهى عن أخذ ثمن عسب الفحل إذا طلب إنسان ثور إنسان أو كبشه أو تيسه أو حصانه للضراب لا يجوز لصاحب الفحل أن يطلب أجرة وقال بعض المذاهب له ذلك.

الخمسون: ثبت عن النبي ﷺ أنه نهى عن تغطية رأس المحرم إذا مات محرمًا وقال: إنه يبعث ملبيًا وقال بعض المذاهب بل يغطي رأسه انتهى شرح الأحاديث باختصار وفيها عبرة لمن اعتبر ورد لما يدعيه أصحاب المذاهب من قولهم وكلهم من رسول الله ملتمس، بل كل واحد منهم يصيب ويخطئ فيجب علينا أن نأخذ صوابه ونترك خطأه والذي لا يخطئ أبدًا هو النبي ﷺ فهو في الحقيقة إمامنا وإمام كل من هداه الله إلى الصراط المستقيم رضينا به إمامًا ومن لم يرض به فليطلب غيره والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

سورة هود

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود: ١١٢].

قال (ك) يأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء ومخالفة الأضداد ونهى عن الطغيان وهو البغي فإنه مصرعه وخيم ولو كان على مشرك وأعلم أنه تعالى بصير بأعمال العباد لا يخفى عليه شيء.

وقال القنوجي: في فتح البيان ما نصه:

فاستقم كما أمرت أي كما أمرك الله فيدخل في ذلك جميع ما أمره به وجميع ما نهاه عنه لأنه قد أمره بتجنب ما نهاه عنه كما أمره بفعل ما تعبده بفعله وأمته أسوته في ذلك قال سفيان استقم على القرآن وعن الحسن قال لما نزلت هذه الآية قال شمروا شمروا فما رئى ضاحكًا، قال أبو السعود وبالجملة فهذا الأمر منتظم لجميع محاسن الأحكام الأصلية والفرعية والكمالات النظرية والعملية. والخروج عن عهدته في غاية ما يكون من الصعوبة ولذلك قال ﷺ شيبتني سورة هود (وأخواتها) ليستقم **﴿ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾**. أي آمن ورجع عن الكفر إلى الإسلام وشاركك في الإيمان وما أعظم موقع هذه الآية وأشد أمرها

فإن الاستقامة كما أمر الله لا تقوم بها إلا الأنفس المطهرة والذوات المقدسة ولهذا يقول المصطفى ﷺ شيبتني هود كما تقدم وعن سفيان بن عبد الله قال: قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدًا بعدك قال: قل آمنت بالله ثم استقم. أخرجه مسلم.

أقول هي تشمل العقائد والأعمال والأخلاق فإنها في العقائد اجتناب التشبيه والتأويل والتعطيل والصرف عن الظاهر وفي الأعمال الاحتراز عن الزيادة والنقصان والبدع المحدثات والتغيير للكتاب والتبديل للسنن والتقليد للرجال وللآراء وفي الأخلاق التباعد عن طرفي الإفراط والتفريط وهذا في غاية العسر وبالله التوفيق وهو المستعان ﴿ وَلاَ تَطْغَوْاْ ﴾. الطغيان مجاوزة الحد لما أمر الله سبحانه بالاستقامة المذكورة بيد أن الغلو في العبادة والإفراط في الطاعة على وجه يخرج به عن الحد الذي حده والمقدار الذي قدره ممنوع منه منهي عنه وذلك كمن يصوم ولا يفطر ويقوم الليل ولا ينام ويترك الحلال الذي أذن الله به ورغب فيه ولهذا يقول الصادق المصدوق فيما صح عنه: « أما أنا فأصوم وأفطر وأقوم وأنام وأنكح النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني » .

فصل

قال محمد تقي الدين: (الأمر بالاستقامة المطابقة لما أمر الله به وهو الكتاب والسنة والنهي عن الطغيان كل ذلك عام لا يخص قومًا دون قوم ولا زمانًا دون زمان). وقوله تعالى: ﴿ **كَمَا أُمِرْتَ** ﴾. مقيد للاستقامة لتكون طبق الأمر فإذا خالفته فهي غير مقبولة. « والطغيان » تجاوز الحد الذي حده الله في العقائد والعبادات وأحكام الشريعة وقد أحسن الإمام القنوجي عند ما أورد حديث الثلاثة الذين سألوا عن عبادة النبي ﷺ فلما سمعوها كأنهم تقالوها وأرادوا الزيادة عليها فغضب عليهم النبي ﷺ وأخبرهم أنه جاء بالاعتدال والتوسط في العبادات ومراعاة جميع الحقوق والواجبات فإن المتعبد إذا أفرط في نوع ضيع غيره ويحسن هنا أن يورد حديث زيارة سلمان لأبي الدرداء إذا وجده قد أفرط في الصيام والقيام وإهمال حقوق زوجته وضيفه ونفسه فقال له: إن لربك عليك حقًا وإن لنفسك عليك حقًا وأن لزوجك عليك حقًا وإن لضيفك عليك حقًا فأعط كل ذي حق حقه فلما بلغ ذلك النبي ﷺ قال: صدق سلمان وهذا يبطل ما عليه أصحاب الطرائق وسائر

المتصوفة من الترهب بدخول الخلوة واعتزال الناس والسياحة للتعبد بها لا للجهاد ولا حج ولا طلب علم فقد روي أبو داوود في سننه من حديث أبي أمامة أن رجلاً قال يا رسول الله ائذن لي في السياحة فقال النبي ﷺ: « سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله » والمراد من السياحة ما يفعله بعض من يتعبد بمجرد السياحة في الأرض والتفرد في شواهق الجبال والكهوف والبراري، فإن هذا ليس بمشروع إلا في أيام الفتن والزلازل في الدين، كما ثبت في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: « يوشك أن يكون خير مال الرجل غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن » وعن عمارة بن غزية أن السياحة ذكرت عند رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: « أبدلنا الله بذلك الجهاد في سبيل الله والتكبير على كل شرف » . **قال محمد تقي الدين:** (السياحة من أعظم أركان الدين الهندي البرهمي) قال الدكتور أحمد شلبي في كتابه مقارنة الأديان وهو مقرر في الجامعة الأزهرية في التعليم العالي ما نصه:

وفي كتبهم المقدسة عندهم: (أي عند الهنادك) البراهمة، ما معناه أن الذي تغلب على نفسه فقد تغلب على حواسه التي تقوده إلى الشر، والنفس لا تشبع أبدًا بل يزداد جشعها بعد أن تنال مشتهاها، فالذي أوتي كلما يشتهي وأعطي نفسه هواها فقد أهلكها وأشقاها، أما الذي ترك كلما تشتهيه نفسه وتخلى عن الدنيا فقد أنقذ نفسه وقادها إلى السعادة.

على طالب العلم أن يهذب نفسه بأن يتجنب الحلوى واللحوم والروائح الطيبة والنساء، وكذلك يجب عليه أن لا يدلك جسده بما له رائحة ولا يكتحل ولا يلبس حذاء ولا يتظلل من الشمس وعليه ألا يهتم برزقه بل يحصل رزقه بسؤال الناس، وعندما تدخل في الشيخوخة عليك بالعزلة وعدم قرب النساء والأهل والإقامة في الغابة وإذا أقمت في الغابة فليس لك أن تقص شعرك ولحيتك وشاربك ولا أن تقلم أظافرك وليكن طعامك ما تنبته الأرض وتثمره الأشجار ولا تقطف الثمر بيدك بل كل منه ما سقط من الشجرة، وعليك بالصوم تصوم يومًا وتفطر يومًا وإياك واللحم والخمر، عود نفسك على تقلبات الفصول فاجلس تحت الشمس المحرقة وابق أيام المطر تحت السماء وارتد الرداء المبلل في الشتاء، لا تفكر في الراحة البدنية، اجتنب سائر الملذات نم على الأرض ولا تأنس بالمكان الذي أنت

فيه، إذا مشيت فامش حذرًا لا تتخطى عظمًا أو شعرًا وحتى لا تطأ حشرة، وإذا شربت الماء فاحذر أن تبلع بعوضة أو نحوها. لا تفرح باللذيذ ولا تحزن للرديء، وفي الكتب المقدسة عند البراهمة يجب على البرهمي أن يقسم حياته ثلاثة أقسام:

(القسم الأول): من طفولته إلى أن يبلغ الخامسة والعشرين من عمره يسيح في الأرض لطلب العلم ولا يشتغل بالكسب بل يعيش على ما يجده من الثمر الساقط من الأشجار والنبات وإذا اضطر إلى السؤال سأل الناس.

(القسم الثاني): بعد نهاية خمس وعشرين سنة يشتغل بالكسب ويتزوج ويكون له أولاد إلى أن يبلغ خمسين سنة، (القسم الثالث): بعد نهاية خمسين سنة يسيح في الأرض على الصفة التي تقدم ذكرها من التقشف والبعد عن الملاذ والاعتزال عن الناس إلا إذا كانوا زهادًا مثله ويستمر على ذلك إلى أن يموت وجاء في سيرة بوذ أنه كان ابن أحد كبار الأغنياء ولما بلغ خمسًا وعشرين سنة تزوج فولد له ولد ثم هجر معيشة الترف وساح هائمًا على وجهه فلقي خمسة من الزهاد فصحبهم مدة ثم تركهم واستمر في السياحة والتقشف وتعذيب النفس إلى أن جاءته الحكمة وهو جالس تحت شجرة في الغابة ثم توجه إلى بنارس وأخذ يعلم الناس دينه وهذه السياحة الهندية الوثنية هي التي ذكرت عند رسول الله ﷺ فنهى عنها وقال قد أبدلنا الله بذلك (الجهاد في سبيل الله والتكبير على كل شرف) وقد اقتبس بعض الجهال من المتصوفة تعذيب النفس من الدين الهندي الوثني، وقد ذكر الحافظ ابن الجوزي في كتابه تلبيس إبليس حكايات كثيرة في تعذيب المتصوفة أنفسهم بالجوع زادوا فيها على نساك الهند الوثنيين أضعافًا كثيرة أذكر منها شيئًا يسيرًا فمن ذلك ما ذكره الحافظ ابن الجوزي في الكتاب المذكور ص٢٠٠: حكي أبو حامد الطوسي عن سهل يعني ابن عبد الله التستري قال كان سهل يقتات ورق النبق مدة وأكل دقاق التبن مدة ثلاث سنين واقتات بثلاثة دراهم في ثلاث سنين.

ولم يزل جهال المتصوفة يأخذون هذه الضلالات عن عبدة الأصنام في الهند وعن رهبان النصارى إلى يومنا هذا ومن ذلك السياحة التي يدعو إليها طائفة التبليغ المتبعين للشيخ محمد إلياس الهندي وهم منتشرون في جميع أنحاء الدنيا والركن الأعظم من طريقتهم هو ما

يسمونه الخروج في سبيل الله فإنهم يبذلون جهودًا عظيمة في الدعوة إلى هذا الركن وهم في ذلك مخلصون لطريقتهم وناجحون في عملهم وكل داع مخلص ناجح على قدر إخلاصه يكون نجاحه سواء دعا إلى حق أو إلى باطل وهذا الركن الذي يسمونه الخروج في سبيل الله وما يلزمه من التقشف في المعيشة هو بعينه السياحة التي تقدم ذكرها ونهى عنها النبي ﷺ وهي بدعة محضة لم يفعلها النبي ﷺ فإنه خرج إلى الطائف لدعوة أميرها ولم يكن معه إلا خادمه مولاه أي عبده المعتق زيد بن حارثة فلما دعا أمير الطائف رد عليه ردًا قبيحًا وقعد له سفهاء الطائف في طريقه سماطين أي صفين ورموه بالحجارة حتى سال الدم من رجليه عليه الصلاة والسلام ثم رجع إلى مكة والقصة معروفة في السيرة ولم يخرج معه أحد من المسلمين من أهل مكة وكذلك توجه إلى دعوة أحد رؤساء العرب وهو ابن عبد ياليل بن عبد كلال وحده فرد عليه ردًا قبيحًا فأصابه من الغم ما أذهله حتى إنه مشي في البرية مغمومًا محزونًا فلم يشعر إلا وهو في قرن الثعالب فرفع بصره إلى السماء فرأى سحابة وفيها جبريل ومعه ملك الجبال فسلم ملك الجبال على النبي ﷺ وأخبره أن الله تعالى أمره أن يفعل ما يأمره به النبي ﷺ وقال له إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين أي الجبلين فقال النبي ﷺ إني أرجو أن يخرج الله من ظهورهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئًا وهذا أشد يوم على النبي ﷺ فإن عائشة ﵂ سألته: هل مر عليك يوم أشد من يوم أحد ؟ فقال لها: « نعم » وأخبرها بالحكاية المتقدمة وفي غزوة أحد كان المشركون قد حفروا حفرًا في الجبل فسقط النبي ﷺ في إحدى الحفر فأغمي عليه ودخلت حلقة من حلقات المغفر في خد النبي ﷺ فأخرجها أحد الصحابة عاضًا عليها بأسنانه حتى انكسرت له سن وكسرت رباعية النبي ﷺ أي سنة في ذلك السقوط وجرحت شفته وسال الدم من وجهه ولما استفاق ورجع إلى المعسكر خرج له أبي بن خلف راكبًا على فرس له مدججًا بالسلاح فقال: أين محمد ؟ فانتدب عشرة من الصحابة لقتاله فمنعهم النبي ﷺ وخرج له وهو على تلك الحال وأخذ حربة وكان عدو الله قد غطى جسمه بالحديد ورأسه كذلك ولا يظهر منه إلا ثغرة في نحره فطعنه النبي ﷺ بالحربة في تلك الثغرة فسقط على الأرض ومات بعد ذلك ورجع النبي ﷺ مظفرًا منصورًا فهذه هي الشدائد التي أصابته في يوم أحد ومع ذلك كانت هذه الشدائد

أهون عليه مما أصابه من الغم حين دعا ذلك الكافر ولم يجبه لأنه كان في يوم أحد معه جيش وفي يوم قرن الثعالب لم يكن معه أحد، وادعاؤهم أن تلك البدعة سنة النبي ﷺ وأصحابه ولولا ذلك لم ينتشر الإسلام في الشرق والغرب باطل لأن الصحابة حين نشروا الإسلام خرجوا للجهاد في سبيل الله وكانوا لا يتركون بلدًا حتى يسلم أهله أو يصالحوا المسلمين أو يكونوا تحت ذمتهم وترتفع فيه راية الإسلام ويحكم بشريعته ثم يتقدمون إلى بلد آخر لا على طريقة السياحة الصوفية المقتبسة من الديانة الوثنية التي ليس فيها جهاد ولا تغيير منكر بل فيها إقرار المناكر والسكوت عليها والصلاة عند الأضرحة المعبودة وفاعلها ملعون على لسان النبي ﷺ فقياس هذه السياحة على الجهاد في سبيل الله من أفسد القياس وفي هذه السياحة مفاسد كثيرة منها تضييع العيال وقد قال النبي ﷺ: « كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يعول » وقد جاء رجل إلى النبي ﷺ وعرض عليه نفسه ليجاهد في سبيل الله معه فقال له: « ألك والدان ؟ » قال: نعم. قال: « ارجع ففيهما فجاهد » أي ارجع إلى برهما وخدمتهما فهي أفضل من الجهاد وهؤلاء الألياسيون يكرهون الناس بسيف الحياء على السياحة فإذا اعتذروا لهم بالوالدين الضعيفين أو بالأولاد والزوجة أو بالتجارة أو بالعمل الذي التزمه الإنسان فوجب عليه أداؤه وحرم عليه تركه كالأجير والمعلم: يقولون اترك ذلك وتوكل على الله وكيف يترك ما أوجبه الله عليه وينقض عهد الله من بعد ميثاقه ويخون الأمانة ويكون مع ذلك متوكلاً على الله وخارجًا في سبيل الله وقد أخبرني أحمد الزوين الذي يسوق سيارة النقل للأخ السلفي الحاج مصطفى بن هاشم الودغيري أنه كان قد حمل في سيارته ما يساوي خمسة عشر ألف درهم من فواكه فجاءه جماعة الألياسيين وقالوا له تخرج معنا في سبيل الله فقال لهم: انظروا هذه السلعة المحمولة على السيارة أنا متوجه بها إلى الجزائر فقالوا له اتركها وتوكل على الله وذهبوا إلى السيد أحمد بن إدريس الأدريسي وهو صاحب معامل النسيج في مدينة مراكش وصاحب تجارة واسعة يؤدي زكاتها وله زوجة شابة فأخرجوه من بيته وأخذوه إلى الهند فبقي سبعة أشهر غائبًا وهذا حرام بلا شك من وجوه منها ما تقدم ومنها أن عمر ﷺ سأل أم المؤمنين حفصة ابنته كم تستطيع المرأة أن تصبر عن زوجها إذا خرج للجهاد في سبيل الله فقالت أربعة أشهر فأمر أن لا يتغيب جندي

عن أهله أكثر من أربعة أشهر، كم من عامل وموظف ومعلم وطالب كانوا لهم سببًا في طردهم من أعمالهم ولا ننكر أنه تاب على أيديهم كثير من الفساق والفجار واهتدوا وتمسكوا بالدين ولكن المحافظة على رأس المال وهو سنة النبي ﷺ قبل التشوف إلى الربح وكذلك نعترف لهم بحسن الخلق وحسن المعاشرة والسمت الحسن فعسى الله أن يوفقهم لترك بدعة السياحة وتغيير المنكر والحب في الله والبغض في الله والموالاة لله والمعاداة لله ويوفق أهل الهند وباكستان منهم أن يتركوا بدعة الجمود على المذهب الحنفي ويعملوا بكل حديث صح عن النبي ﷺ ويتركوا كذلك العقيدة الأشعرية والماتريدية ويعتقدوا ما كان عليه رسول الله ﷺ والصحابة والتابعون والأئمة المجتهدون ومنهم أبو حنيفة النعمان بن ثابت رحمه الله فإن عقيدته كانت مطابقة لعقيدة الصحابة والتابعين جعلنا الله من أتباعهم.

ومن مصائب هذا الزمان أن الناس مفتونون بالخوارق فصاروا بذلك فريسة للدجالين والمحتالين يوقعونهم في حبائلهم بأدنى الأسباب وقد كان في تطوان شيخ ضال يدعي التصوف وكان يمخرق على الناس بسحر خسيس وذلك أنه يدعو شخصًا من المغفلين فيملأ كأسًا من الماء ويأخذه المغفل في يده فيتكلم الشيخ الضال بكلام من السحر مما يسمونه استحضار الأرواح فلا يزال كذلك حتى تهتز الكأس في يد المغفل وذلك علامة على أن شيطانه قد حضر فيسأل حاجته منه وقد دعا أحد المفتونين صاحبنا الشيخ الزبير التفروتي لمشاهدة هذه الكرامة بزعمه وناوله الشيخ الضال الكأس مملوءة بالماء وأخذ يتكلم بالسحر حتى اهتزت الكأس في يد الشيخ الزبير فألقاها في الأرض فانكسرت وأريق ماؤها فقال الشيخ الزبير للسحار هل تستطيع أن ترد الكأس صحيحة وترد لها ماءها ولو أنك استطعت ذلك ما آمنت بسحرك فبطل كيد الساحر وافتضح.

والجهال المحرومون يستدلون بمثل هذه المخارق على استقامة فاعلها وصلاحه وولايته لله وأن طريقته مقبولة عند الله وقال الجنيد رحمه الله إذا رأيتم الرجل يطير في الهواء أو يسير على الماء فلا تعتبروه شيئًا حتى تعرضوا قوله وعمله على كتاب الله وسنة رسوله فتروهما موافقين لهما، ويروي عنه أنه قال: الاستقامة أفضل من ألف كرامة وقد قال الجنيد رحمه الله طريقتنا هذه مبنية على أربعة أمور إتباع السنة، ويتضمن ذلك العلم بالقرآن والحديث حتى

يعرف ما يتبع وما لا يتبع وأكل الحلال وكف الأذى وحمل الأذى **قال محمد تقي الدين:** وهذه الأربعة دلائلها موجودة في كتاب الله وسنة رسوله وبذلك يعلم أن طريقة الجنيد بريئة من مخالفة كتاب الله وسنة رسوله فانتساب أصحاب الطرائق إلى الجنيد كذب وزور.

سورة يوسف

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

قال (ك) يقول تعالى لرسوله ﷺ آمرًا له أن يخبر الإنس والجن أن هذه سبيله أي طريقه ومسلكه وسنته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان هو وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ عى بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي. وقوله تعالى: ﴿ **سُبْحَانَ اللَّهِ** ﴾ أي وأنزه الله وأجله وأعظمه وأقدسه عن أن يكون له شريك أو نظير أو ولد أو والد أو صاحبة أو وزير أو مشير تبارك وتقدس وتنزه وتعالى عن ذلك كله علوًا كبيرًا.

فصل

قال محمد تقي الدين: كل مسلم يجب عليه أن يدعو إلى الله وأن تكون دعوته على بصيرة فمن ترك الدعوة إلى الله لا يصح أن يكون متبعًا لرسول الله كل بقدر طاقته ووسعه العالم بعلمه والغني بماله والفقير بلسانه وعمله كما قال تعالى: وتعاونوا على البر والتقوى وكذلك ذو الجاه بجاهه ولابد أن تكون الدعوة على بصيرة أي علم وبرهان لا بجهل وتقليد ومن كان لا يحسن إقامة البرهان يتبع من يحسنها ويؤيده ويعينه كما كان أصحاب رسول الله ﷺ: فهذان أمران: الأول أن تكون الدعوة إلى الله: والثاني أن تكون على بصيرة. ويضادهما. أمران: الأول أن تكون الدعوة إلى غير الله في الحقيقة (١) وإن كانت باللسان والادعاء إلى الله كمن يدعو إلى اتباعه أو إتباع شيخه أو أهل مذهبه أو حزبه ويسمى ذلك دعوة إلى الله تلبيسًا على الناس وخداعًا لهم فليحذر من هذه حاله. الثاني: أن تكون على بصيرة فمن

دعاكم إلى أن تعبدوا معه شيخه بالبدع كالرقص والخوار والمكاء والتصدية واتخاذ السبح والاستمداد من شيخه والاستغاثة به فإنما هو شيطان فلا تتبعوه فإن دعوته ليست على بصيرة ومن دعاكم إلى أن تنصروا معه مذهبه أو فرقته أو حزبه دون أن يستدل بالقرآن والحديث الصحيح على ما يفعله وعلى ما يترك فإياكم أن تتبعوه. قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ **وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾. فسبيل الله واحدة وسبل الضلال كثيرة.

قال الحافظ ابن عبد البر في كتابه جامع بيان العلم وفضله ج٢ ص١٧٣ ما نصه: واعلم يا أخي أن السنة والقرآن هما أصل الرأي والعيار عليه وليس الرأي بالعيار على السنة بل السنة عيار عليه ومن جهل الأصل لم يصل الفرع أبدًا.

وقال ابن وهب: حدثنا مالك أن إياس بن معاوية قال لربيعة أن الشيء إذا بني على عوج لم يكد يعتدل، قال مالك يريد بذلك المفتي الذي يتكلم على أصل يبني عليه كلامه، قال أبو عمر ولقد أحسن صالح بن عبد القدوس حيث يقول:

يا أيها الدارس علمًا ألا ... تلتمس العون على درسه

لن تبلغ الفرع الذي رمته ... إلا ببحث منك عن أسه

قال محمد تقي الدين: وصالح بن عبد القدوس هذا كان زنديقًا والحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها.

خذ الثمار وخل العود للنار.

ولما أراد الخليفة العباسي قتله من أجل الزندقة وقامت عليه الحجة أظهر التوبة فلم يقبلها منه بناء على القول بأن الزنديق لا توبة له واحتج عليه الخليفة ببيت من هذه القصيدة وهو قوله:

والشيخ لا يترك أخلاقه ... حتى يواري في ثرى رمسه

فقال له أنت شيخ طاعن في السن فلن تترك زندقتك فأنت حكمت على نفسك وقال عبد الله بن مسعود الصراط المستقيم هو ما تركنا عليه رسول الله ﷺ.

سورة الرعد

الباب الأول

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [الرعد: ٣١].

قال (ك): يمدح الله القرآن الذي أنزله على محمد ﷺ. وفضله على سائر الكتب المنزلة قبله فقال: سبحانه: **﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ﴾** أي لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها، أو تنشق به الأرض، أو تكلم به الموتى في قبورها، لكان هذا القرآن أولى بالكتب اتصافًا بذلك لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنس والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا بأن يأتوا بمثله، ولا بسورة من مثله، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون له **﴿ بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا ﴾** أي مرجع الأمور كلها إلى الله عز وجل، وقد يطلق اسم القرآن على كل من الكتب المتقدمة لأنه جامع لها، روي الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « خفف على داوود القرآن فكان يأمر بدابته أن تسرج فكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرج دابته، وكان لا يأكل إلا من عمل يديه » انفرد به البخاري والمراد بالقرآن الزبور وقوله تعالى: **﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾** أي من إيمان جميع الخلق ويعلموا أو يتبينوا: **﴿ أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾** فإنه ليس ثم حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع في العقول والنفوس من هذا القرآن الذي ما تركه من جبار إلا قصمه الله. ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله.

وقوله تعالى: **﴿ وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ﴾** أي بسبب تكذيبهم لاتزال القوارع تصيبهم في الدنيا، أو تصيب من حولهم ليتعظوا ويعتبروا روي أبو داوود الطيالسي عن ابن عباس في قوله تعالى: **﴿ وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا**

صَنَعُواْ قَارِعَةٌ ﴾ قال سرية: ﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ﴾. قال (فتح مكة) وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ أي لا ينقض وعده لرسله بالنصرة ولأتباعهم في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿ فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾.

فصل

قال محمد تقي الدين: أنزل الله هذا القرآن على عبده ورسوله محمد ليكون للعالمين نذيرا وهو أفضل الكتب السماوية كما قال تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾. وقد نفع الله بجميع الكتب التي بعث بها رسله إلا أن نفع هذا القرآن أعظم لأنه قلب العالم وغير معالمه وأحواله في خمس وعشرين سنة وصل في المشرق إلى الصين ووصل في المغرب إلى أرضنا هذه ولم يعرف بعدها في ذلك الزمان أرض معمورة ولما انكشفت أمريكا وصلها القرآن أيضا ولم يؤثر كتاب سماوي في البشر مثل تأثيره فلو أن كتابا سماويا نقلت به الجبال من أماكنها وشقت به الأرض حتى صارت قطعًا مفصولا بعضها عن بعض أو كلم به الموتى في قبورهم فسمعوا وأجابوا لكان هذا الكتاب الذي أنزل على محمد من عظم شأنه وقوة تأثيره إذا وجد آذانا صاغية وقلوبا واعية وهمما عالية تحدث به العجائب والغرائب. وإذا طرح في زوايا الإهمال وبقى نسيا منسيا فإنها تحدث به عجائب وغرائب أيضا من الذلة والإهانة والخزى المبين حتى تغلب ثلاثة ملايين سبعمائة مليون وأي شيء أعجب من هذا وطريق الخلاص واضح وهو الرجوع إلى الكتاب وبيانه من سنة النبي ﷺ والله يهدي من ينيب وهذا التفرق في المذاهب وفي الطرائق والأحزاب وفي القومية والوطنيات من أسباب شقاء هذه الأمة.

سورة إبراهيم

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن

زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾ [إبراهيم: ٤٤-٤٦].

قال (ك) يقول تعالى مخبر عن قول الذين ظلموا أنفسهم عند معاينة العذاب: ﴿ **رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ** ﴾. كقوله تعالى: ﴿ **حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ** ﴾. وكقوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا** ﴾. فقال تعالى رادا عليهم: ﴿ **أَوَلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ** ﴾. أي أو لم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحالة أنه لا معاد ولا جزاء فذوقوا هذا بذاك كقوله تعالى: ﴿ **وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللّهُ مَن يَمُوتُ** ﴾ وقوله تعالى: ﴿ **وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ** ﴾. أي قد رأيتم وبلغكم ما أحل بالأمم المكذبة قبلكم ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر ولم يكن فيما أوقعنا بهم لكم مزدجر ﴿ **حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ** ﴾. وقوله تعالى: ﴿ **وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ** ﴾. وقد روى العوفي عن ابن عباس في تفسيرها يقول: ما كان مكرهم لتزول منه وقال كذا قال الحسن البصري ووجهه بن جرير بأن هذا الذي فعلوه بأنفسهم من شركهم بالله.

وكفرهم به ما ضر ذلك شيئًا من الجبال ولا غيرها وإنما عاد وبال ذلك عليهم قلت: ويشبه هذا قول الله تعالى: ﴿ **وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً** ﴾. والقول الثاني في تفسيرها ما رواه على بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ **وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ** ﴾ يقول شركهم كقوله تعالى: ﴿ **تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا** ﴾ وهكذا قال الضحاك وقتادة.

فصل

قال محمد تقي الدين: إنما سقت هذه الآيات وتفسيرها لقوله تعالى: فيقول الذين ظلموا ربنا أخرجنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل والذين ظلموا عام في جميع الظالمين يدخل فيه الذين ظلموا أنفسهم بالشر والكفر ويدخل فيه الذين ظلموا أنفسهم بمعصية الرسول وعدم إتباعه والاكتفاء بتقليد الرجال كل هؤلاء الظالمين يندمون يوم القيامة على عدم إتباع الرسول ويتمنون أن يعودوا إلى الدنيا للتكفير عن ذنوبهم بإتباع الرسول وهيهات هيهات.

سورة النحل

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٣، ٤٤].

قال (ك) قال الضحاك عن ابن عباس: لما بعث الله محمدًا ﷺ أنكر قسم من العرب ذلك وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشرًا، فأنزل الله تعالى: ﴿ **أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ** ﴾ الآية وقال تعالى هنا ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾ يعني فسألوا أهل الكتب الماضية أبشرًا كانت الرسل إليهم أم ملائكة ؟ فإن كانت ملائكة أنكرتم وإن كانوا بشرًا فلا تنكروا أن يكون محمد ﷺ بشرًا رسولاً وكذا قال مجاهد عن ابن عباس أن المراد بأهل الذكر هم أهل الكتاب، والغرض أن هذه الآية الكريمة أخبرت بأن الرسل الماضين قبل محمد ﷺ كانوا بشرًا كما هو بشر، كما قال تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ** ﴾ ثم أرشد تعالى الذين يشكون في كون الرسل من البشر أن يسألوا أصحاب الكتب المتقدمة عن الأنبياء الذين سلفوا هل كان أنبياؤهم بشرًا أو ملائكة، ثم ذكر تعالى أن أرسلهم ﴿ **بِالْبَيِّنَاتِ**

﴿ وَالزُّبُرِ ﴾ بالحجج والدلائل والزبر وهي الكتب قال ابن عباس وغيره، والزبر جمع زبور، تقول العرب: زبرت الكتاب إذا كتبته، وقال تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ ﴾ يعني القرآن ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ أي من ربهم لعلمك بمعنى ما أنزل الله عليك وحرصك عليه وإتباعك له ولعلمنا بأنك أفضل الخلائق وسيد ولد آدم، فتفصل لهم ما أجمل وتبين ما أشكل ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي ينظرون لأنفسهم فيهتدون فيفوزون في الدارين.

فصل

قال محمد تقي الدين: قد احتج العلماء بقوله تعالى: ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ على أن من لم يعرف شيئًا من أصول الدين وفروعه وجب عليه أن يسأل أهل القرآن وأهل القرآن لا يكونون إلا أهل الحديث كما تقدم عن البخاري وأحمد بن حنبل وكما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ فميراث الرسول ﷺ منحصر في القرآن والسنة والفقه منحصر في فهمهما ولم يمنع العلماء تفسير ابن عباس أنها نزلت فيما تقدم ذكره لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَـٰذَا حَلَـٰلٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل: ١١٦].

وفي تفسير الجلالين ما نصه: ﴿ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمْ ﴾ أي لوصف ألسنتكم ﴿ الْكَذِبَ هَـٰذَا حَلاَلٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ ﴾ لما لم يحله الله ولم يحرمه ﴿ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ ﴾ بنسبة ذلك إليه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ ﴾ لهم متاع قليل في الدنيا ﴿ وَلَهُمْ ﴾ في الآخرة ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مؤلم.

قال القنوجي في فتح البيان: عن أبي نضرة قال: قرأت هذه الآية في سورة النحل فلم أزل أخاف الفتيا إلى يومي هذا. قلت صدق رحمه الله فإن هذه الآية تتناول بعموم لفظها فتيا

من أفتى بخلاف ما في كتاب الله أو في سنة رسول الله ﷺ كما يقع كثيرًا من المؤثرين للرأي المقدمين له على الرواية أو الجاهلين لعلم الكتاب والسنة كالمقلدة وأنهم لحقيقون بأن يحال بينهم وبين فتاواهم ويمنعوا من جهالاتهم فإنهم أفتوا بغير علم من الله ولا هدى ولا كتاب منير فضلوا وأضلوا فهم ومن يستفتيهم كما قال القائل:

كبهيمة عمياء قاد زمامها أعمى على عوج الطريق الحائر

وقال الحافظ ابن القيم في أعلام الموقعين ج٣ ص١ ما نصه: في حكم عمل أهل المدينة.

فصل

وأما العمل الذي طريقه الاجتهاد والاستدلال فهو معترك النزال ومحل الجدال، قال القاضي عبد الوهاب: وقد اختلف أصحابنا فيه على ثلاثة أوجه:

(أحدها) أنه ليس بحجة أصلاً وأن الحجة هي إجماع أهل المدينة من طريق النقل ولا يرجع به أيضًا أحد الاجتهادين على الآخر.

(وهذا قول أبي بكر وأبي يعقوب الرازي والقاضي أبي بكر بن منتاب والطيالسي والقاضي أبي الفرج والشيخ أبي بكر الأبهري) وأنكروا أن يكون هذا مذهبًا لمالك أو لأحد من معتمدي أصحابه.

(والوجه الثاني) أنه وإن لم يكن حجة فإنه يرجح به اجتهادهم على اجتهاد غيرهم وبه قال بعض أصحاب الشافعي.

(والثالث) أن إجماعهم من طريق الاجتهاد حجة وإن لم يحرم خلافه كإجماعهم من طريق النقل، وهذا مذهب قوم من أصحابنا.

ثم قال ابن القيم: ومن المعلوم أن العمل بعد انقراض عصر الخلفاء الراشدين والصحابة بالمدينة كان بحسب من فيها من المفتين والأمراء والمحتسبين وصار عملاً. فهذا هو الذي لا يلتفت إليه في مخالفة السنن، لا عمل رسول الله ﷺ وخلفائه والصحابة فذاك هو السنة فلا يخلط أحدهما بالآخر فنحن لهذا العمل أشد تحكيمًا وللعمل الآخر إذا خالف السنة أشد تركًا وبالله التوفيق.

وقد كان ربيعة بن عبد الرحمن يفتي وسليمان بن بلال المحتسب ينفذ فتواه فتعمل الرعية بفتوى هذا وتنفيذ هذا كما يطرد العمل في بلد أو إقليم ليس فيه إلا قول مالك على قوله وفتواه ولا يجوزون العمل هنالك بقول غيره من أئمة الإسلام. فلو عمل به أحد لاشتد نكيرهم عليه وكذلك كل بلد أو إقليم لم يظهر فيه إلا مذهب أبي حنيفة فإن العمل المستمر عندهم على قوله. والعلم الصحيح ما وافق السنة.

وإذا أردت وضوح ذلك فانظر العمل في زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ في جهره بالاستفتاح في الفرض في مصلى النبي ﷺ وعمل الصحابة به ثم العمل في زمن مالك بوصل التكبير بالقراءة من غير استفتاح ولا تعوذ، وانظر العمل في زمن الصحابة كعبد الله بن عمر في اعتبار خيار المجلس ومفارقته لمكان التبايع ليلزم العقد ولا يخالفه في ذلك صحابي ثم العمل به في زمن التابعين.

وإمامهم وعالمهم سعيد بن المسيب يعمل به ويفتي به ولا ينكره عليه منكر، ثم صار العمل في زمن ربيعة وسليمان بن بلال بخلاف ذلك (وانظر إلى العمل) في زمن رسول الله ﷺ والصحابة خلفه وهم يرفعون أيديهم في الصلاة في الركوع والرفع منه ثم العمل في زمن الصحابة بعده حتى كان عبد الله بن عمر إذا رأى من لا يرفع يديه حصبه وهو عمل كأنه رأى عين وجمهور التابعين يعمل به في المدينة وغيرها من الأمصار كما حكاه البخاري ومحمد بن نصر المروزي وغيرهما عنهم صار العمل بخلافه.

وانظر إلى العمل الذي كأنه رأى عين من صلاة رسول الله ﷺ على ابني بيضاء سهيل وأخيه في المسجد والصحابة معه وصلت عائشة على سعد بن أبي وقاص في المسجد وصلى على عمر بن الخطاب في المسجد ذكره مالك عن نافع عن عبد الله.

(قال الشافعي): ولا نرى أحدا من الصحابة حضر موته فتخلف عن جنازته فهذا عمل مجمع عليه عندكم. قاله لبعض المالكية.

وروى هشام عن أبيه أن أبا بكر صلى عليه في المسجد فهذا العمل حق ولو تركت السنن للعمل لتعطلت سنن رسول الله ﷺ ودرست رسومها وعفت آثارها.

وكم من عمل قد أطرد بخلاف السنة الصريحة على تقادم الزمان وإلى الآن، وكل وقت تترك سنة ويعمل بخلافها ويستمر عليه العمل فتجد يسيرًا من السنة معمولا به على نوع تقصير، وخذ بلا حساب ما شاء الله من سنن قد أهملت وعطل العمل بها جملة فلو عمل بها من يعرفها لقال الناس تركت السنة فقد تقرر أن كل عمل خالف السنة الصحيحة لم يقع من طريق النقل البتة وإنما يقع من طريق الاجتهاد والاجتهاد إذا خالف السنة كان مردودا، وكل عمل طريقه النقل فإنه لا يخالف سنة صحيحة البتة.

فلنرجع إلى الأمثلة التي ترك فيها المحكم للمتشابه فنقول. ترك السنة المحكمة الصحيحة في الجهر بآمين في الصلاة كقوله في الصحيحين، إذا أمن الإمام فأمنوا فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه، ولولا جهره بالتأمين لما أمكن المأموم أن يؤمن معه ويوافقه في التأمين.

وبالإسناد المتصل عن وائل بن حجر قال كان رسول الله ﷺ إذا قال ولا الضالين قال آمين ورفع بها صوته وفي لفظ وطول بها. رواه الترمذي وغيره وإسناده صحيح.

ثم قال: ومن ذلك ترك القول بالسنة الصحيحة الصريحة المحكمة في أن الصلاة الوسطى صلاة العصر، بالمتشابه من قوله وقوموا لله قانتين وهذا عجب من العجب، وأعجب منه تركها بان في مصحف عائشة وصلاة العصر.

ومن ذلك ترك السنة الصحيحة الصريحة في قول الإمام ربنا ولك الحمد كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة كان رسول الله ﷺ إذا قال سمع الله لمن حمده قال اللهم ربنا ولك الحمد.

قال محمد تقي الدين: واكتفي بهذا القدر من ذكر الأمثلة التي خالف فيها المالكيون السنن الواضحة بالرأي الفاسد أو بادعاء عمل أهل المدينة وقد علمت ما فيه.

وقال ابن القيم: (وأعجب منه تركها بان في مصحف عائشة وصلاة العصر) فيه إبهام يحتاج إلى بيان – والمعني – (وأعجب مما تقدم ترك السنة الصحيحة الصريحة) وهي القول **بأن الصلاة الوسطى هي صلاة العصر مع أن في مصحف عائشة (حافظوا على الصلوات**

والصلاة الوسطى صلاة العصر) وهذه الزيادة وإن لم تكن قرآنا لعدم تواترها فهي في حكم الحديث الصحيح.

سورة الإسراء

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الإسراء: ٩، ١٠].

قال (ك): يمدح الله تعالي كتابه العزيز الذي أنزله علي رسوله محمد ﷺ وهو القرآن بانه يهدي لأقوم الطرق وأوضح السبل ، ويبشر المؤمنين به الذين يعملون الصالحات علي مقتضاه أن لهم أجرا كبيرا أي يوم القيامة وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة، أي ويبشر الذين لا يؤمنون بالآخرة أن لهم عذابا أليما. أي يوم القيامة ، كما قال تعالي: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾.

فصل

قال محمد تقي الدين: اختلف المفسرون في تقدير الموصوف بالتي هي أقوم هل يكون (الطريقة) أو (الحال) أو (الملة) أو (الكلمة) والخطب في ذلك سهل لان هذه الكلمات معناها واحد فالقرآن والسنة التي هي بيانه يهديان كل أمه تمسكت بهما إلى الطريقة أو الحالة التي هي أكثر استقامة وفيها سعادة الدنيا والآخرة ويبشر أعداءهم بأن لهم عذابا أليما في الدنيا والآخرة فهذه الجماعات استنكفت أن تسمى أنفسها باسم الإسلام وخدعها أعداء الإسلام فصارت تدعو إلى العروبة وهذه الشعوب التي تنتسب إلى الإسلام خذلت القرآن والسنة فحرمت الهداية إلى التي هي أقوم وسلكت طرقا معوجة وحرمت النصر والعزة وأصيبت بالانهزام والذلة وذلك هو العذاب الأليم في الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾. وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾. والعروبة

(قسمان) عروبة « محمد رسول الله ﷺ » وهي ملازمة للقرآن والسنة وعروبة « أبي جهل » وهي ملازمة لعداوة القرآن والسنة، والشقاء في الدنيا والآخرة مضمون لأصحابها أما الشعوب من غير العرب التي تنتسب إلى الإسلام وتعرض عن القرآن والسنة فإنها مصابة بعبادة القوميات المختلفة وذلك يضمن لها الخسران في الدنيا والآخرة وإذا كان إتباع القرآن والسنة سببًا لكل خير وعدم إتباعهما سواء أكان إعراضًا أو تقليدًا لغير المعصوم فلا يجوز لأحد أن يفتي أو يقضي إلا بدليل منهما أو ما في معناهما قال ابن القيم في أعلام الموقعين « ج٣ ص٤٤٦ » ما نصه:

ومن أفتى الناس ليس بأهل للفتوى فهو آثم عاص ومن أقره من ولاة الأمور على ذلك فهو آثم أيضًا قال أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله ويلزم ولي الأمر منعهم، وهؤلاء بمنزلة من يدل الركب وليس له علم بالطريق وبمنزلة الأعمى الذي يرشد الناس إلى القبلة وبمنزلة من لا معرفة له بالطب وهو يطب الناس بل هؤلاء أسوأ حالاً من هؤلاء كلهم وإذا تعين على ولي الأمر منع من لم يحسن التطبب من مداواة المرضى فكيف بمن لم يعرف الكتاب والسنة ولم يتفقه في الدين.

(وكان شيخنا) ﷺ شديد الإنكار على هؤلاء فسمعته يقول: قال لي بعض هؤلاء. أجعلت محتسبًا على الفتوى ؟ فقلت يكون على الخبازين والطباخين محتسب ولا يكون على الفتوى محتسب.

وقد روي الإمام أحمد وابن ماجه عن النبي ﷺ مرفوعًا: من أُفتي بغير علم كان إثمه ذلك على الذي أفتاه.

(وفي الصحيحين) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ عن النبي ﷺ: « إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من صدور الرجال ولكن يقبضه بقبض العلماء فإذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا » . وفي أثر مرفوع ذكره أبو الفرج وغيره من أفتى الناس بغير علم لعنته ملائكة السماء وملائكة الأرض (وكان مالك) رحمه الله يقول من سئل عن مسألة فينبغي له قبل أن يجيب فيها أن يعرض نفسه على الجنة والنار وكيف يكون خلاصه في الآخرة ثم يجيب فيها. وسئل عن مسألة

فقال لا أدري. فقيل له: إنها مسألة خفيفة سهلة. فغضب وقال: ليس في العلم شيء خفيف، أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ فالعلم كله ثقيل وخاصة ما يسأل عنه يوم القيامة وقال ما أفتيت حتى شهد لي سبعون أني أهل لذلك.

وقال: وإذا كان أصحاب رسول الله ﷺ تصعب عليهم المسائل ولا يجيب أحد منهم عن مسألة حتى يأخذ رأي صاحبه مع ما رزقوا من السداد والتوفيق والطهارة فكيف بنا نحن الذين غطت الذنوب والخطايا قلوبنا.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

قال (ك): ﴿ **وَلاَ تَقْفُ** ﴾ أي لا تقل. ﴿ **مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ** ﴾ أي لا تقل رأيت ولم تر، وسمعت ولم تسمع، وعلمت ولم تعلم، فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله وقوله تعالى: ﴿ **كُلُّ أُولـئِكَ** ﴾ أي هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد ﴿ **كَانَ عَنْهُ مَسْـؤُولاً** ﴾ أي سيسأل العبد عنها يوم القيامة وتسأل عنه وعما عمل بها.

قال القنوجي في تفسيره لهذه الآية ما نصه:

وأما التواثب على الرأي مع وجود الدليل في الكتاب أو السنة ولكنه قصر صاحب الرأي عن البحث فحاد برأيه فهو داخل تحت هذا النهي دخولاً أوليًا لأنه محض رأي في شرع الله وللناس عنه غنى بكتاب الله سبحانه وبسنة رسوله ﷺ ولم تدع إليه حاجة على أن الترخيص في الرأي عند عدم وجود الدليل إنما هو رخصة للمجتهد يجوز له أن يعمل به ولم يدل دليل على أنه يجوز لغيره العمل به وينزله منزلة مسائل الشرع وبهذا يتضح لك أتم اتضاح ويظهر لك أكمل ظهور أن هذه الآراء المدونة في الكتب الفروعية ليست من الشرع في شيء والعامل بها على شفا جرف هار، فالمجتهد المستكثر من الرأي قد قفا ما ليس له به علم والمقلد المسكين العامل برأي ذلك المجتهد قد عمل بما ليس له به علم ولا لمن قلده ظلمات بعضها فوق بعض.

وقال الحافظ أبو عمر في كتابه جامع بيان العلم وفضله ج١ ص١٧٧. ما نصه:

ومن هذا القبيل كراهة السلف الصالح الجرأة على الفتيا والحرص عليها والمسارعة إليها والإكثار منها، وروي ابن لهيعة عن عبد الله بن جعفر مرسلاً عن النبي ﷺ قال: « أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على النار » وقال علقمة كانوا يقولون أجرؤكم على الفتيا أقلكم علمًا، وعن البراء قال أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ يسأل أحدهم عن المسألة ما منهم من رجل إلا ود أن أخاه كفاه، وفي رواية فيردها هذا إلى هذا وهذا إلى هذا حتى ترجع إلى الأول، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: أن الذي يفتي الناس في كل ما يستفتونه لمجنون، وسئل عمر بن عبد العزيز عن مسألة فقال: ما أنا على الفتيا بجرئ وكتب إلى بعض عماله إني والله ما أنا بحريص على الفتيا ما وجدت منها بدًا وليس هذا الأمر لمن ود أن الناس احتاجوا إليه إنما هذا الأمر لمن ود أنه وجد من يكفيه، وعنه أنه قال: أعلم الناس بالفتاوي أسكتهم وأجهلهم بها أنطقهم، وقال سفيان الثوري أدركنا الفقهاء وهم يكرهون أن يجيبوا في المسائل والفتيا حتى لا يجدوا بدًا من أن يفتوا وإذا أعفوا منها كان أحب إليهم.

وقال الإمام أحمد: من عرض نفسه للفتيا فقد عرضها لأمر عظيم إلا أنه قد تلجئ إليه الضرورة قيل له فأيهما أفضل الكلام أم السكوت، قال الإمساك أحب إلي قيل له فإن كانت الضرورة فجعل يقول الضرورة الضرورة وقال الإمساك أسلم له وليعلم المفتي أنه يوقع عن الله أمره ونهيه وأنه موقوف ومسؤول عن ذلك، قال الربيع بن خيثم أيها المفتون انظروا كيف تفتون وكان بن سيرين إذا سئل عن الشيء من الحلال والحرام تغير لونه وتبدل حتى كأنه ليس بالذي كان، وكان النخعي يسأل فتظهر عليه الكراهة ويقول ما وجدت أحدًا تسأله غيري.

وقال قد تكلمت ولو وجدت بدًا ما تكلمت، وإن زمانًا أكون فيه فقيه أهل الكوفة لزمان سوء، وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: إنكم لتستفتوننا استفتاء نود أن لا نسأل عما نفتيكم به، وعن محمد بن واسع قال: أول من يدعي إلى الحساب الفقهاء وعن مالك رحمه الله أنه كان إذا سئل عن المسألة كأنه واقف بين الجنة والنار. وقال بعض العلماء لبعض

المفتين إذا سئلت عن مسألة فلا يكن همك تخليص السائل ولكن تخليص نفسك أولاً. وقال لآخر إذا سئلت عن مسألة فتفكر فإن وجدت لنفسك مخرجًا فتكلم وإلا فاسكت.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلاً ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٧٣-٧٥].

قال القاسمي: إخبار عن تأييده تعالى رسوله صلوات الله عليه وسلامه، وتثبيته وعصمته وتولي أمره وحفظه، فإن المشركين، لكثرة تفننهم في ضروب الأذى وشدة تعنتهم وقوة شكيمتهم، كادوا أن يفتنوه، ولكن عناية الله وحفظه، هو الذي ثبت قدمه في مثل مقامه في الدعوة إلى الله الذي لا يثبت فيه أحد غيره، وقد روي أن ثقيفًا قالوا: لا نؤمن حتى تعطينا خصالاً نفتخر بها على العرب، لا ننحني في الصلاة، ولا نكسر أصنامنا بأيدينا، وإن تمتعنا باللاة سنة من غير أن نعبدها فإن خشيت أن يسمع العرب (لم أعطيتهم ما لم تعطنا ؟) فقل الله أمرني بذلك.

وروي أن قريشًا قالوا: لا ندعك يا محمد أن تستلم الحجر الأسود حتى تمس آلهتنا، وقالوا أيضًا، نؤمن بك أن تمس آلهتنا.

قال الإمام الطبري: يجوز أن تكون الفتنة ما ذكر، وأن تكون غير ذلك. ولا بيان في الكتاب ولا في خبر يقطع العذر أي ذلك كان، فالأصوب الإيمان بظاهره حتى يأتي ما يجب التسليم له، ببيان ما عني بذلك منه.

قال الزجاج: معنى الكلام كادوا يفتنونك، ودخلت (أن) المخففة من الثقيلة و (اللام) للتأكيد، والمعنى: أن الشأن قاربوا أن يفتنوك أن يخدعوك، ويصرفوك عن القرآن أي عن حكمه، وذلك لأن في إعطائهم ما سألوا مخالفة لحكم القرآن.

وقوله: ﴿ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ﴾ أي غير ما أوحينا إليك وهو قولهم: قل الله أمرني بذلك: ﴿ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ﴾ أي لو فعلت ما أرادوا لاتخذوك خليلاً، وأظهروا للناس أنك موافق لهم على كفرهم، وراض بشركهم، ثم قال: ﴿ وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ ﴾ أي على الحق بعصمتنا إياك ﴿ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ ﴾ أي تميل إليهم شيئًا قليلاً وقوله ﴿ شَيْئًا ﴾ عبارة عن المصدر، أي ركونا قليلاً. وعن قتادة: لما نزلت هذه الآية، قال النبي ﷺ: « اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين » ثم توعده في ذلك أشد التوعد، فقال:

﴿ إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ﴾ أي ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات، يريد عذاب الدنيا وعذاب الآخرة (والضعف عبارة عن أن يضم إلى الشيء مثله، ودل على إضمار العذاب، وصف العذاب بالضعف في كثير من الآيات، كقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴾. وقال: ﴿ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ ﴾. والسبب في تضعيف العذاب: أن أقسام نعم الله على الأنبياء أكثر فكانت ذنوبهم أعظم، فكانت العقوبة المستحقة عليها أكثر، ونظيره قوله تعالى: ﴿ يَا نِسَاء النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾.

فصل

قال محمد تقي الدين: المقصود بإيراد هاتين الآيتين أنه إذا كان النبي ﷺ، وهو أفضل خلق الله لو ترك الوحي لضوعف له العذاب في الدنيا والآخرة فكيف بغيره من آحاد الأمة إذا أعرض عن الوحي فلم يتعلمه ولا عمل به أو تعلمه ولم يعمل به أو عمل بما يوافق هواه ومذهبه أو طريقته أو حزبه ورفض العمل بما يخالف ذلك فإنه بلا شك يضاعف له العذاب ضعفين والنبي ﷺ، لم يركن إلى الكفار لأنه معصوم من ذلك فالمعني بهاتين الآيتين غيره من أمته وهذا كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ وعن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكان منها أجادب أمسكت الماء على الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وكان منها طائفة

أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من نفعه الله بما جئت به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » . رواه البخاري فالمتمذهبون المتعصبون وأصحاب الطرائق القدد لم ينفعهم الله بما جاء به النبي ﷺ فما رفعوا به رأسًا ولا قبلوا هدى الله الذي أرسل به فكانوا من الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا ولما كنت في الهند للمرة الأولى سنة اثنين وأربعين وثلاث مائة وألف وكنت ضيفًا عن السيد سليمان الندوي في دار المصنفين بمدينة (أعظم كر) جاءني رجلان مدرسان في المدرسة الحنفية وأخذا يجادلانني ويدافعان عن المذهب الحنفي فيما خالف فيه السنة من صلاة المغرب إلى أذان العشاء فقالاً لي إن ما تقول هو الحق ولكن لو أننا أخذنا به واطلع على ذلك أهل المدرسة لعزلونا وكل واحد منا له زوجة وأولاد وليس لنا ما نعيش به إلا ما نأخذه من التعليم في هذه المدرسة فقلت لهما فهلا اعترفتما بهذا في أول المعركة وكفيتماني مؤونة هذا الجدال الطويل الذي أرهقني عسرًا ووقع مثل ذلك هنا في مكناس مع فقيه مشهور اسمه عبد الرحمن الهواري فإنه جادلني ساعتين ثم قال لي: إن ما تقول هو الحق ولكني لا أعمل به لأنني عدل أكتب الشهادات ولو اطلع الناس على أني أعتقد هذا وأدعو إليه لتعطل شغلي فنعوذ بالله من الخذلان استيلاء الشيطان على قلب الإنسان.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٨٩].

قال القنوجي في فتح البيان: ﴿ **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ** ﴾ أي بينا أو كررنا ضروب القول فيه من الأمثال والعبر والحكم والحجج والمواعظ والقصص والأخبار والأوامر والنواهي وغيرها وقيل في زائدة والتقدير ولقد صرفنا هذا القرآن والتصريف في الأصل صرف الشيء من جهة إلى جهة والتشديد فيه للتكثير والتكرير وقيل معنى التصريف المغايرة أي غايرنا بين المواعظ، قوله فأبى أكثر الناس إلا كفورًا فسره بعضهم بالجحود.

فصل

قال محمد تقي الدين: والمراد أن أكثر الناس أعرضوا عن القرآن ولم ينتفعوا بما فيه من الحجج والمواعظ والأمثال فبعضهم كفر به وبعضهم ادعى الإيمان به ولكنه لم ينتفع به للطبع الذي في قلبه وللشبهات التي تعرض له ومن الموانع التي تمنع من الاهتداء به والتعصب للمذاهب والطرائق والأوطان والأحزاب ومن شرح الله صدره للإسلام وكان على نور من ربه ولم يمنعه شيء من ذلك ولم يبال بمن خالفه وصمم على إتباعه ولو بقي وحده ولم يستوحش من قلة الأنصار وكثرة المحاربين ففاز بالسعادة الكبرى فعليك بهذا القرآن وبالسنة التي تبينه وهي مفتاحه تظفر بخير الدنيا والآخرة.

سورة الكهف

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾ [الكهف: ١-٣].

قال (ك): يمدح الله تعالى نفسه المقدسة، عند فواتح الأمور وخواتمها، فإنه المحمود على كل حال، وله الحمد في الأولى والآخرة، ولهذا حمد نفسه على إنزاله كتابه العزيز على رسوله الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه، فإنه أعظم نعمة أنعمها الله على أهل الأرض إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور، حيث جعله كتابًا مستقيمًا لا اعوجاج فيه ولا زيغ ولهذا قال تعالى: ﴿ **وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا** ﴾ أي ليس معوجًا ولا مائلاً بل ﴿ **قَيِّمًا** ﴾ أي مستقيمًا ﴿ **لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِن لَّدُنْهُ** ﴾ أي لينذر به الذين لا يؤمنون به عقوبة في الدنيا والآخرة ﴿ **وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ أي الذين صدقوا إيمانهم بالعمل الصالح ﴿ **أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا** ﴾ أي مثوبة من عند الله ﴿ **مَاكِثِينَ فِيهِ** ﴾ في ثوابهم وهو الجنة خالدين فيه ﴿ **أَبَدًا** ﴾ دائمًا لا زوال له.

فصل

قال محمد تقي الدين: علم الله تعالى عباده كيف يحمدونه على النعمة الكبرى وهي إنزاله القرآن على عبده ورسوله محمد ﷺ في غاية الاستقامة والكمال كفيلاً بمصالح العباد لا يعتريه نقص من أي جهة أنذر الله به عباده وحذرهم من عذابه في الدنيا والآخرة وبشر به المؤمنين العاملين كلما أمرهم به التاركين كل ما نهاهم عنه أن لهم أجرًا عظيمًا حسنًا في الدنيا والآخرة يمكثون أي يبقون فيه أبدًا لا ينتهي بالموت ولا ينقطع بعده فكل من بلغه وأعرض عنه يناله البأس الشديد ويلزمه الشقاء في الدنيا والآخرة وليس له عن ذلك محيد وهذه الأمم التي سعدت به نراها شقية بتركه تتخبط في ظلمات الجهل قد انسدت الأبواب في وجوهها فلا تجد مخرجًا ولا مفرًا ومن المعلوم أن القرآن لا يمكن الاهتداء به إلا بمعرفة بيان الرسول الذي جاء به.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴾ [الكهف: ٢٦].

قال (ك): أي إذ سئلت عن لبثهم وليس عندك علم في ذلك وتوفيق من الله تعالى فلا تتقدم فيه بشيء بل قل في مثل هذه **﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾** أي لا يعلم ذلك إلا هو ومن اطلعه عليه من خلقه، هذا الذي قلناه قاله غير واحد من علماء التفسير كمجاهد وغير واحد من السلف والخلف، وقوله تعالى: **﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ﴾** أي ما أبصره وما أسمعه يعني لا أحد أبصر من الله ولا أسمع وقوله تعالى: **﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾** أي أنه تعالى له الخلق والأمر لا معقب لحكمه، وليس له وزير ولا نصير ولا شريك ولا مشير تعالى الله وتقدس.

فصل

قال محمد تقي الدين: فسروا الحكم في قوله تعالى بالقضاء أي لا يشرك الله تعالى في قضائه أحدا.

ومعنى الحكم أعم من ذلك فقد قال الله تعالى في شأن المهاجرات المؤمنات إلى المدينة ﴿ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ إشارة إلى عدم ردهن إلى الكفار وأنهن لا يحللن لهم وأنهم يعطون أزواجهن ما أنفقوا عليهن وأنه يجوز لهم أن يتزوجوا بهن فسمي الله ذلك حكمًا – وقال تعالى في سورة المائدة: ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ﴾ أي بالرجم على الزانيين المحصنين. وقال النبي ﷺ لسعد بن معاذ حين حكم بقتل رجال بني قريظة لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع سموات فالحكم هنا كذلك يشمل الأحكام الخمسة وهي الواجب والمندوب والحرام والمكروه والمباح كلها لله كما قال النبي ﷺ: « الحلال ما أحل الله في كتابه والحرام ما حرم الله في كتابه وما سكت عنه رحمة بكم من غير نسيان فهو مما عفا عنه » . وقال تعالى: ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ فالله تعالى هو الذي له الحكم لا يشاركه فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل وما حكم به النبي ﷺ فهو حكم الله لأنه معصوم لا ينطق عن الهوى فمن جعل الحكم لإمام أو شيخ أو أمير أو قائد وأطاعه طاعة مطلقة فقد عبده من دون الله وتذكر حديث عدي بن حاتم الذي تقدم في سورة التوبة عند قوله تعالى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله اهـ.

سورة طه

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴾ [طه: ٩٩-١٠١].

قال (ك): كما يقص تعالى على نبيه محمد ﷺ خبر موسى عليه السلام تماما بلا نقص، فإنه يقول سبحانه: ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء مَا قَدْ سَبَقَ ﴾. أي كذلك نقص عليك الأخبار الماضية هذا ﴿ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ﴾. أي من عندنا ﴿ ذِكْرًا ﴾. وهو القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل والذي لم يعط نبي كتابا مثله ولا أكمل منه ولا أجمع لخبر ما سبق وخبر ما هو كائن وحكم الفصل بين الناس.

وقوله تعالى: ﴿ **مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ** ﴾. أي كذب به ولم يتبعه، وابتغى الهدي في غيره ﴿ **فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا** ﴾. أي إثما، وهذا عام في كل من بلغه القرآن فهو نذير له وداع فمن اتبعه هدى، ومن أعرض عنه ضل وشقى في الدنيا والنار موعده في الآخرة. وقوله: ﴿ **خَالِدِينَ فِيهِ** ﴾. أي لا محيد لهم عنه أي عن ذلك الحمل ﴿ **وَسَاء لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً** ﴾. أي بئس الحمل حملهم.

فصل

قال محمد تقي الدين: سمي القرآن ذكرا لما فيه من التذكرة لمن اتبعه واستقام على طاعة ربه وبالعقاب لمن صد عنه واتبع هواه وآثر الحياة الدنيا ومن أعرض عنه وعن بيانه الذي جاء به رسول الله ﷺ بأقواله وأفعاله وتروكه يحمل يوم القيامة وزرا أي ذنبا عظيما يثقل كاهله ويدخله النار فيخلد في عذابها بعد ما أصابه من عذاب الدنيا والحاصل أن من بلغه الكتاب والسنة ولم يستضئ بنورهما فإنه يشقى في دنياه وأخراه وسبب شقاء هؤلاء القوم الذين ينتسبون إلى الإسلام في هذا الزمان ويقرأ فيهم القرآن فلا يعبؤون به هو إعراضهم عن الذكر ولا دواء لدائهم ولا فرج لكربتهم إلا الرجوع إلى اتباع الذكر والاهتداء به.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٧].

قال (ك): يقول تعالى لآدم وحواء وإبليس: ﴿ **اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا** ﴾، أي من الجنة كلكم وقد بسطنا ذلك في سورة البقرة: ﴿ **بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ** ﴾ قال آدم وذريته وإبليس وذريته. وقوله تعالى: ﴿ **فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى** ﴾ قال أبو العالية: الأنبياء والرسل والبيان ﴿ **فَمَنِ اتَّبَعَ**

﴿ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى ﴾ قال ابن عباس لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي ﴾ أي خالف الأمر الذي أنزلته على رسولي وتناساه وأخذ من غيره هداه ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ أي ضنكًا في الدنيا فلا طمأنينة ولا انشراح، بل صدره ضيق لضلاله فمهما تنعم من نعم الدنيا فإن قلبه لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو دائمًا في قلق وحيرة وشك وفي الآخرة ينتظر عذاب القبر ثم عذاب النار، وروي البزار عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله عز وجل: ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ قال: المعيشة، الضنك الذي قال الله إنه يسلط عليه تسعة وتسعين حية ينهشون لحمه حتى تقوم الساعة وقوله تعالى: ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ قال عكرمة: عمي عليه كل شيء إلا جهنم، ويحتمل أن يكون المراد أنه يبعث أو يحشر إلى النار أعمى البصر والبصيرة أيضًا كما قال تعالى: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ الآية.. ولهذا يقول: ﴿ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴾ أي في الدنيا: ﴿ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى ﴾ أي لما أعرضت عن آيات الله وعاملتها معاملة من لم يذكرها بعد بلاغها إليك تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها وكذلك اليوم، نعاملك معاملة من ينساك ﴿ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا ﴾ فإن الجزاء من جنس العمل، فأما نسيان لفظ القرآن، مع فهم معناه والقيام بمقتضاه، فليس داخلاً في هذا الوعيد الخاص، وإن كان متوعدًا عليه من جهة أخرى، روي الإمام أحمد عن سعد بن عبادة ﷺ عن النبي ﷺ قال: « ما من رجل قرأ القرآن فنسيه إلا لقي الله يوم يلقاه وهو أجذم » .

وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ ﴾ الآية. **قال (ك)**: يقول تعالى: وهكذا نجازي المسرفين المكذبين بآيات الله في الدنيا والآخرة. ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾.

أي أشد ألمًا من عذاب الدنيا وأدوم عليهم فهم مخلدون فيه ولهذا قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين: « إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة » .

فصل

قال محمد تقي الدين: من آيات الله الكبرى التي نشاهدها في هذا الزمان أن كل من أعرض عن القرآن من الشعوب التي عرفته وسعدت به في الماضي في حربها وسلمها نراها في معيشة ضنك ويتبين لك ذلك في الأمم المتحدة في رؤوسها وأذنابها فقد أسست على أساس فاسد فخمسة دول منها وهي الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وبريطانية وفرنسا والصين.

رؤوس يقبلون من أحكام الأمم المتحدة ما شاءوا ويرفضون ما شاءوا وسائر الأمم وهي أكثر من مائة وخمسة وعشرين أذناب، عليهم أن يقبلوا كل حكم وليس لهم أن يرفضوا شيئًا من الأحكام وإن كان ظلمًا صريحًا منصبًا على رؤوسهم، وليس لهم من الشجاعة والقوة ما يمكنهم من الخروج عن هذه الربقة والمسلمون والعرب وعددهم سبعمائة مليون في درجة الأذناب حقوقهم مهضومة وكلمتهم غير مسموعة يرمون ولا يرمون ويأكلون كل ما علفوا من خبيث وطيب فأي معيشة ضنك أشد من هذه ولما كان القرآن سراجًا منيرًا بأيديهم كانوا رؤوسًا وكان غيرهم أذنابًا فسبحان من طبع على قلوبهم فرضوا بهذا الذل وقنعوا بهذا الغبن ومن الغريب أن الصين الشيوعية خرجت عليهم وتحدثهم وصرخت عليهم وغبرت في وجوههم واستغنت عنهم والصين الوطنية التي هي إحدى الدول المؤسسة الرئيسية لما سحقت تحت الأقدام لم تكتف الدول الرؤوس بخذلانها وعدم نصرتها بل اغتصبت التاج الذي كان على رأسها وتملقت به للصين الشيوعية وقدمته لها رشوة فسبحان من يغير ولا يتغير وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم.

قال الحافظ بن القيم في أعلام الموقعين ج١ ص٩ ما نصه:

ولما كانت الدعوة إلى الله والتبليغ عن رسوله شعار حزبه المفلحين. وأتباعه من العالمين. كما قال تعالى: ﴿ **قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ وكان التبليغ عنه من عين تبليغ ألفاظه وما جاء به وتبليغ معانيه كان العلماء من أمته منحصرين في قسمين أحدهما حفاظ الحديث وجهابذته والقادة الذين هم أئمة الأنام وزوامل الإسلام الذين حفظوا على الأمة معاقد الدين ومعاقله، وحموا من

التغيير والتكدير موارده ومناهله، حتى ورد من سبقت له من الله الحسنى تلك المناهل صافية من الأدناس لم تشبها الآراء تغييرًا، ووردوا فيها عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرًا. وهم الذين قال فيهم الإمام أحمد بن حنبل في خطبته المشهورة في كتابه الرد على الزنادقة والجهمية الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله تعالى الموتى، ويبصرون بنور الله أهل العمى، وكم قتيل لإبليس قد أحيوه وكم من ضال تائه قد هدوه فما أحسن أثرهم على الناس وما أقبح أثر الناس عليهم ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة وأطلقوا عنان الفتنة فهم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب مجمعون على مفارقة الكتاب يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم يتكلمون بالمتشابه من الكلام ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم فنعوذ بالله من فتنة المضلين.

سورة الأنبياء

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٥].

قال (ك): أي ما أنذرتكم به إنما هو الوحي من الله تعالى ولكن لا يجدي الإنذار بالعذاب من أعمى الله بصيرته جزاء صدوده عن آيات الله، ولهذا قال سبحانه: ﴿ **وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاء إِذَا مَا يُنذَرُونَ** ﴾. وقوله تعالى: ﴿ **وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ...** ﴾ إلخ. أي يعترفون بذنوبهم عندما يقع بهم أدنى شيء من العذاب، وبما ظلموا أنفسهم في الدنيا.

فصل

قال محمد تقي الدين: أخبر الله تعالى أن إنذار رسوله ﷺ لا يكون إلا بالوحي والوحي هو القرآن والسنة فكذلك المنذرون من هذه الأمة لا يجوز لهم أن ينذروا الناس إلا بالوحي لا بآراء الرجال أما أهل المذاهب والطرائق لأن الله قد أكمل دينه وأتم نعمته فمن زاد في

دينه شيئًا فقد تعدى وظلم لأن الزيادة في الكامل نقص وأخبرنا سبحانه أن من أعرض عن الوحي واتبع الآراء تمسه نفحة من عذاب الله فيندم ويقول يا ويلنا إنا كنا ظالمين نعوذ بالله من الحور بعد الكور والضلال بعد الهدى.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ۝٤٩ وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٨-٥٠].

قال (ك): قد تقدم التنبيه على أن الله تعالى كثيرًا ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما، وبين كتابيهما، ولهذا قال جل وعلا: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ** ﴾ يعني التوراة حلالها وحرامها وما فرق الله بين الحق والباطل، كما أن كل الكتب السماوية مشتملة على هذا، وعلى ما يحصل نورًا في القلوب، وهداية وخوفًا وإنابة وخشية، ولهذا قال تعالى: ﴿ **الْفُرْقَانَ وَضِيَاء وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾. أي تذكيرًا لهم وعظة ثم وصفهم فقال: ﴿ **الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ** ﴾ كقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ** ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ **وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ** ﴾ يعني القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد ﴿ **أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ** ﴾ أي فتنكرونه وهو في غاية الجلاء ؟

فصل

قال محمد تقي الدين: إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب ليعبد وحده لا شريك له وتتبع رسله وكتبه وبذلك وحده تسعد الأمة وتنكشف عنها الغمة وتنتصر على أعدائها ولا يستطيع أحد أن يقف في وجهها والفرقان الذي أعطاه الله تعالى، أمة محمد ﷺ والضياء والذكر أفضل من كل ما أعطى من قبلها ولكن هذا الضياء وهذا الفرقان وهذا الذكر لا يتذكر به ولا ينتفع به إلا المتقون الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون

وكل من مات فقد قامت قيامته الصغرى وأخذ يواجه مصيره ويجد ما قدمه ﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾. ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ فهذه الضيافة من الحميم وهو الماء الحار الذي يقطع الأمعاء يحتسيه المسلمون والعرب في هذه الدار وإن لم يتوبوا إلى الله فستكمل لهم الضيافة بتصلية الجحيم صدق الله العظيم وقوله تعالى: ﴿ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ نعم قد أنكره الأولون فأذلهم الله وقطع دابرهم بسيوف المؤمنين وهؤلاء المتأخرون ينكرونه وقد أذلهم الله بقنابل أعدائهم وصاروا عبرة للآخرين.

قال الإمام المجدد محيي السنة ومميت البدعة وعدو التقليد صالح بن محمد بن نوح العمري الشهير بالفلاني المتوفى في المدينة سنة ثماني عشرة ومائتين وألف رحمه الله كتابه إيقاظ همم أولي الأبصار للإقتداء بسيد المهاجرين والأنصار ما نصه:

المقدمة في وجوب طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ وإتباع الكتاب والسنة وذم الرأي والقياس على غير أصوله والتحذير من إكثار المسائل وبيان أصول العلم وحده مقسومًا ومجزأ ومن يستحق أن يسمى فقيهًا أو عالمًا حقيقة لا مجازًا وبيان فساد التقليد في دين الله وسنة نبيه.

قال الله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾. ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾. وقد فرض الله تعالى عليهم إتباع ما نزل إليهم واعلم أن معصيته تعالى في ترك أمره وأمر رسوله ﷺ ولم يجعل لهم إلا إتباعه ولذا قال لرسول الله ﷺ: ﴿ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللهِ ﴾ مع ما علم الله تعالى نبيه ثم ما فرض من إتباع كتابه فقال: ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ﴾. وقال: ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ ﴾ وأعلمهم أنه أكمل لهم دينه فقال عز وجل: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا ﴾ ثم من عليهم بما أتاهم من العلم فأمرهم بالاقتصار عليه وأن لا يقولوا

غيره إلا ما علمهم فقال لنبيه ﷺ: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ ﴾: وقال لنبيه ﷺ: ﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ ﴾ ثم أنزل على نبيه ﷺ: ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾.

وبعثه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون وأنزل عليهم كتابه بالهدى والنور لمن اتبعه وجعل رسوله الدال على ما أراد من ظاهره وباطنه وخاصه وعامه وناسخه ومنسوخه وما قصد له الكتاب فكان رسول الله ﷺ هو المعبر عن كتاب الله الدال على معانيه شاهده في ذلك أصحابه الذين ارتضاهم الله تعالى لنبيه واصطفاهم له ونقلوا ذلك عنه فكانوا هم أعلم الناس برسول الله ﷺ بما أراد الله تعالى من كتابه بمشاهدتهم ما قصد له الكتاب فكانوا هم المعبرين عن ذلك بعد رسول الله ﷺ.

سورة النور

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ

ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنًاۚ يَعۡبُدُونَنِى لَا يُشۡرِكُونَ بِى شَيۡـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَـٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ [النور: ٤٧-٥٦].

قال (ك): يخبر تعالى عن صفات المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون، يقولون قولاً بألسنتهم ﴿ **آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ** ﴾ أي يخالفون أقوالهم بأعمالهم فيقولون مالا يفعلون، ولهذا قال تعالى: ﴿ **وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ** ﴾ وقوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ** ﴾ الآية: أي إذا طلبوا إتباع الهدى فيما أنزل الله على رسوله أعرضوا عنه واستكبروا في أنفسهم عن إتباعه وهذه كقوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ** ﴾. إلى قوله: ﴿ **رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا** ﴾. وقوله تعالى: ﴿ **وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ** ﴾ أي وإذا كانت الحكومة لهم لا عليهم جاؤوا سامعين مطيعين، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ **مُذْعِنِينَ** ﴾ وإذا كانت الحكومة عليهم أعرضوا ودعوا إلى غير الحق، وأحبوا أن يتحاكموا إلى غير النبي ﷺ ليروجوا باطلهم، ثم إن ادعائهم أولاً لم يكن عن اعتقاد منهم أن ذلك هو الحق. بل لأنه موافق لهواهم ولهذا لما خالف قصدهم عدلوا عنه إلى غيره ولهذا قال تعالى: ﴿ **أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ** ﴾ الآية، يعني لا يخرج أمرهم عن أن يكون في القلوب مرض لازم لها. أو قد عرض لها شك في الدين، أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم، وأيا ما كان فهو كفر محض، والله عليم بكل منهم وما هو منطو عليه من هذه الصفات.

وقوله تعالى: ﴿ **بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ أي هم الظالمون والله ورسوله مبرآن مما يظنون، ثم أخبر تعالى عن صفات المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله الذين لا يبغون دينًا سوى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فقال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا** ﴾ أي سمعًا وطاعة ولهذا وصفهم الله بالفلاح فقال تعالى: ﴿ **وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ وقال قتادة: ذكر لنا أن أبا الدرداء قال: لا إسلام إلا بطاعة الله. ولا خير إلا في جماعة والنصيحة لله ولرسوله وللخليفة وللمؤمنين عامة، وقوله تعالى:

﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ قال قتادة: يطيع الله ورسوله فيما أمراه به وترك ما نهياه عنه ويخشى الله فيما مضى من ذنوبه ويتقه فيما يستقبل. وقوله تعالى: ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ يعني الذين فازوا بكل خير وأمنوا من كل شر في الدنيا والآخرة.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾. إلى قوله: ﴿ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾.

قال (ك): يخبر تعالى عن أهل النفاق الذين كانوا يحلفون للرسول ﷺ لئن أمرتهم بالغزو ليخرجن فقال الله تعالى: ﴿ قُل لاَّ تُقْسِمُوا ﴾ أي لا تحلفوا، وقوله تعالى: ﴿ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ أي طاعتكم معروفة أنها لا فعل معها بل قول مجرد، وحلفهم كاذب: كما قال تعالى ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي خبير بكم وبمن يطيع ممن يعصي فلا فائدة من إظهار الطاعة والباطن بخلافه فإن الله لا يروج عليه شيء من التدليس فهو الخبير بسرائر عباده وإن أظهروا خلافها ثم قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ أي اتبعوا الكتاب والسنة، وقوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوا ﴾ أي تركوا ما جاءهم به ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ ﴾ أي إبلاغ الرسالة ﴿ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ﴾ أي بقبولها وتنفيذها ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ وذلك لأنه يدعو إلى صراط مستقيم وقوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ كقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ﴾. إلى وقوله: ﴿ الْفَاسِقُونَ ﴾. **قال (ك)** هذه وعد من الله تعالى لرسوله ﷺ بأنه سيجعل أمته الولاة على الناس فتصلح بهم البلاد، وتخضع لهم العباد وليبدلنهم بعد خوفهم أمنًا وحكمًا وقد فعله تبارك وتعالى وله الحمد والمنة ففتح رسول الله ﷺ مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكاملها وأخذ الجزية من مجوس هجر ومن بعض أطراف الشام وهاداه هرقل والمقوقس وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة الذي تملك بعد النجاشي المسلم أصحمة رحمه الله وأكرمه.

ثم تولى أبو بكر الصديق، فلم شعث ما وهي بعد موته عليه الصلاة والسلام فمهد الجزيرة العربية، وفتح طرقًا من فارس بقيادة خالد بن الوليد وألهم الله الصديق أن يستخلف

عمر الفاروق الذي قام بعده بالأمر قيامًا تامًا فتم في أيامه فتح الشام ومصر وأكثر إقليم فارس وتقهقر كسرى إلى أقصى مملكته، وفر قيصر إلى القسطنطينية وأنفق أموالهما في سبيل الله.

ثم امتدت دولة عثمان إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها ففتحت المغرب إلى البحر المحيط، ومن ناحية المشرق مدائن العراق وخراسان والأهواز، وقتل المسلمون الترك مقتلة عظيمة جدًا، وخذل الله ملكهم « خاقان » ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: « إن الله زوي لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها » فها نحن نتقلب فيما وعد الله ورسوله ﷺ والقيام بشكره على الوجه الذي يرضيه عنا. قال البراء بن عازب: نزلت هذه الآية: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ ونحن في خوف شديد – أي كانوا خائفين يمسون ويصبحون في السلاح.

وأن رجلاً من الصحابة قال: يا رسول الله: أبد الدهر نحن خائفون هكذا ؟ أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح فقال رسول الله ﷺ لن تصبروا إلا يسيرًا حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبيًا ليس فيه حديدة فأنزل الله هذه الآية الكريمة ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ** ﴾ الآية كقوله تعالى: ﴿ **وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ **وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ** ﴾ كما روي أحمد عن أبي بن كعب قال. قال رسول الله ﷺ: « بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة، والدين والنصر والتمكين في الأرض فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب » .

وقوله: ﴿ **يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا** ﴾ يفسره ما جاء في الصحيحين من حديث قتادة عن أنس أن معاذ بن جبل حدثه قال، بينا أنا رديف النبي ﷺ على حمار ليس بيني وبينه إلا آخرة الرحل قال: يا معاذ، قلت لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: « هل تدري ما حق الله على العباد ؟ » قلت الله ورسوله أعلم قال: « حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا » قال ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذ بن جبل قلت لبيك يا رسول الله وسعديك قال:

« فهل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك » قال: قلت الله ورسوله أعلم. قال: « فإن حق العباد على الله أن لا يعذبهم » .

وقوله تعالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أي فمن خرج عن طاعتي بعد ذلك فقد خرج عن أمر ربه وكفى بذلك ذنبًا عظيمًا، فالصحابة ﷺ لما كانوا أقوم الناس بعد النبي ﷺ بأوامر الله عز وجل وأطوعهم له ؟ كان نصرهم بحسبهم، ولما قصر الناس بعدهم في بعض الأوامر نقص ظهورهم بحسبهم، وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ قال: « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى يوم القيامة — وفي رواية — حتى ينزل عيسى بن مريم وهم ظاهرون » وكل هذه الروايات صحيحة ولا تعارض بينها وقوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾. الآية.

قال (ك): يأمر عباده سبحانه بإقامة الصلاة له وحده وإيتاء الزكاة لوجهه وهي الإحسان إلى المخلوقين ضعفائهم وفقرائهم سالكين طريق ما أمرهم به رسول الله ﷺ وترك ما زجرهم عنه ابتغاء مرضاته تعالى ورحمته.

قال المحقق القنوجي رحمه الله في تفسير هذه الآيات عند قوله تعالى: ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ وهذا هو شأن مقلدة المذاهب بعينه اليوم يعرضون عن إجابة الداعي إلى الله ورسوله وعن التحاكم إليهما، أي إلى كتابه وسنة رسوله ﷺ، ومضى إلى أن قال عند قوله تعالى: ﴿ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ وما أصدق هذه الآية على المقلدين في صنيعهم مع أهل القرآن وأصحاب الحديث وقال عند قوله تعالى: ﴿ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ فإن كان القاضي مقصرًا لا يعلم بأحكام الكتاب والسنة ولا يعقل حجج الله ومعاني كلامه وكلام رسوله بل كان جاهلاً جهلاً بسيطًا وهو من لا علم له بشيء من ذلك أو جهلاً مركبًا وهو من لا علم عنده بما ذكرنا ولكنه قد عرف بعض اجتهادات المجتهدين واطلع على شيء من علم الرأي فهذا في الحقيقة جاهل وإن اعتقد أنه يعلم بشيء من العلم فاعتقاده باطل فمن كان من القضاة هكذا فلا تجب الإجابة إليه لأنه ليس ممن يعلم بحكم الله ورسوله حتى يحكم بين المتخاصمين إليه بل هو من قضاة الطاغوت وحكام الباطل. فإن ما عرفه من علم الرأي إنما رخص في العمل به للمجتهد الذي هو منسوب إليه عند عدم الدليل من الكتاب والسنة

ولم يرخص فيه لغيره ممن يأتي بعده وإذا تقرر لديك هذا وفهمته حق فهمه علمت أن التقليد والانتساب إلى عالم من العلماء دون غيره والتعبد بجميع ما جاء به من رواية ورأي وإهمال ما عداه من أعظم ما حدث في هذه الملة الإسلامية من البدع المضلة والفواقر الموحشة فإنا لله وإنا إليه راجعون وقد أوضحت هذا في كتابي الجنة وأوضحه الشوكاني في القول المفيد وأدب الطلب وغيره في غيرهما لمن أراد أن يقف على حقيقة هذه البدعة التي طبقت الآفاق الإسلامية.

فصل

قال محمد تقي الدين: لم يبق لي ما أزيده في الرد على المقلدين المتعصبين للمذاهب أو الطرائق أو الأحزاب، ولكن بقي لي كلام مع السياسيين ودعاة العروبة والاشتراكية والمحاربين بزعمهم للرجعية فأقول لهم وبالله أستعين قد علمتم أن الله وعد الذين آمنوا بمحمد والقرآن وعلموا الصالحات أي صدقوا في إيمانهم وشفعوا القول بالعمل أن يجعلهم خلفاء الأرض يتصرفون فيها كيف يشاؤون فهم الحكام وهم العلماء وهم الأمناء على كنوز الأرض وثمرات الأعمال لا يد فوق يدهم واستمر ذلك من عهد النبوة إلى نهاية الحروب الصليبية وامتد بعضه إلى الحكم العثماني لكن ماذا حدث بعد ذلك زال الإيمان والعمل فذهب العز والنصر ويا أيها المسلمون ويا أيها العرب المسلمون ارجعوا إلى الإيمان والأعمال الصالحة والاتحاد على إتباع كتاب الله وسنة رسول الله ونزهوا أنفسكم من التعصب للأوطان وللأجناس وللفرق والمذاهب واجعلوا إلهكم واحدًا وارضوا بالله صاحبًا استضيؤوا بنور الكتاب وسنة النبي الكريم والأصحاب إذا شئتم إن يرد الله لكم ما كان لأسلافكم من العز والتمكين والنصر المبين ويكبت أعداءكم ألا تستحيون من الله ثم من الناس أن يجمع اليهود شملهم بعد أن تشتتوا آلاف السنين ثم يعمدوا إلى الأرض المقدسة التي أخرجهم الله منها بسبب ذنوبهم وتركهم رسولهم وكتابهم واختلافهم فيما بينهم فيغتصبوا منكم تلك الأرض اغتصابًا وعددهم بالنسبة إلى عددكم نحو ربع واحد في المائة أما أنتم أيها النصارى العرب فدعوا الكيد والدس والخداع لإضلال المسلمين وتشتيت شملهم ولا تكونوا كالذي قال اقتلوني ومالكًا فإن ذلك لا يشفي ما في صدوركم ولا يغني عنكم

إلا قليلا فإنكم دعوتم للتعصب للعروبة وأنتم أبعد الناس عنها فما لكم منها إلا الاسم فإنكم عاديتم الدين الذي به شرفتم وواليتم أعداء العرب وتسميتم بأسماء عجمية فما هذه العروبة التي تدعون إليها أهي عروبة محمد رسول الله ؟ كلا فإنكم تبغضونها وتحاربونها. أم هي عروبة أبي جهل وأبي لهب ؟ فهذه العروبة ليس فيها إلا الجهل والذل والخزي والشتاة وعبادة الأصنام ووأد البنات وأكل الميتة وعدم توريث الإناث والأنصاب والأزلام والميسر والقتل والنهب واستعباد الأخ لأخيه. أهذا هو البعث العربي ؟ كلا: والله بل هو الموت فإن قلتم إننا ما قمنا بهذه المكيدة إلا دفاعًا عن النفس لأن هؤلاء العرب الذين يدعون الإسلام بله العجم لم يبق لهم من الإسلام إلا اسمه وقد تعصبوا علينا وأهانونا قلنا كل واحد من الفريقين يرجع عن غيه واجتمعوا على الإنصاف.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴾ [النور: ٦٢-٦٤].

قال (ك): وهذا أيضًا أدب أرشد الله عباده المؤمنين إليه، فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول أمرهم كذلك بالاستئذان عند الانصراف، لاسيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه ثم أمر الله رسوله ﷺ إذا استأذنه أحد منهم في ذلك أن يأذن له إن شاء ولهذا قال سبحانه: ﴿ **فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ** ﴾ الآية. وقد روي أبو داوود عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا انتهى أحدكم إلى المجلس

فليسلم وإذا أراد أن يقوم فليسلم، فليست الأولى بأحق من الآخرة » . هكذا رواه النسائي والترمذي وقال حديث حسن.

وقوله تعالى: ﴿ **لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ** ﴾ إلى آخره. **قال (ك)** عن ابن عباس: كانوا يقولون: يا محمد يا أبا القاسم، فنهاهم عز وجل عن ذلك إعظامًا لنبيه ﷺ قال: فقولوا. يا نبي الله يا رسول الله، كما في قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ** ﴾. إلى قوله ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ** ﴾. الآية. فهذا كله من باب الأدب في مخاطبة النبي ﷺ والكلام معه وعنده، كما أمروا بتقديم الصدقة قبل مناجاته.

وقوله تعالى: ﴿ **قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا** ﴾ قال مقاتل بن حيان هم المنافقون كانت تثقل عليهم الخطبة يوم الجمعة فيلوذون ببعض أصحاب النبي ﷺ حتى يخرجوا من المسجد، وكان لا يصح للرجل أن يخرج من المسجد إلا بإذن النبي ﷺ في يوم الجمعة بعدما يأخذ في الخطبة.

وقوله تعالى: ﴿ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ** ﴾ أي عن أمر رسول الله ﷺ وهو منهاجه وسنته وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قبل، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائنًا من كان، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » أي فليخش من خالف سنة رسول الله ﷺ باطنًا وظاهرًا ﴿ **أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ** ﴾ في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة. ﴿ **أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ في الدنيا بقتل أو حد أو حبس أو نحو ذلك، كما روي الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد نارًا فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب اللائي يقعن في النار يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبنه، فيقتحمن فيها — قال — فذلك مثلي ومثلكم أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار، فتغلبوني وتقتحمون فيها » أخرجاه من حديث عبد الرزاق. وقوله تعالى: ﴿ **أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ الآية. **قال (ك)** يخبر تعالى أنه مالك السموات

والأرض وعالم الغيب والشهادة، وهو عالم بما العباد عاملون في سرهم وجهرهم، فقال: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ وقد للتحقيق كما قال قبلها ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾ وقال تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ ﴾.. فقوله تعالى: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي هو عالم به مشاهد له لا يعزب عنه مثقال ذرة. كقوله تعالى: ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جدًا.

وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ أي ويوم يرجع الخلائق إلى الله وهو يوم القيامة ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ﴾ أي يخبرهم بكل ما فعلوه في الدنيا صغيرًا كان أو كبيرًا كما قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾. ولهذا قال ههنا: ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

قال القنوجي في فتح البيان في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ ما نصه.

والآية تشمل كل من خالف أمر الله وأمر رسوله ويدخل فيها الجامدون على ضلالة التقليد من بعد ما تبين لهم الهدى وظهر الصواب من الخطأ.

قال المحقق سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب في كتابه تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، ما نصه: المتن ممزوج بالشرح.

باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرمه الله فقد اتخذهم أربابًا من دون الله.

لما كانت الطاعة من أنواع العبادة بل هي العبادة فإنها طاعة الله بامتثال ما أمر به على ألسنة رسله عليهم السلام. نبه المصنف رحمه الله تعالى بهذه الترجمة على وجوب اختصاص الخالق تبارك وتعالى بها وأنه لا يطاع أحد من الخلق إلا حيث كانت طاعته مندرجة تحت طاعة الله وإلا فلا تجب طاعة أحد من الخلق استقلالاً، والمقصود هنا الطاعة الخاصة في تحريم الحلال أو تحليل الحرام، فمن أطاع مخلوقًا في ذلك غير الرسول ﷺ فإنه لا ينطق عن

الهوى فهو مشرك كما بينه الله تعالى في قوله: ﴿ اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ ﴾ أي علماءهم ﴿ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وفسرها النبي ﷺ بطاعتهم في تحريم الحلال وتحليل الحرام كما سيأتي في حديث عدي.

فإن قيل: قد قال الله تعالى: ﴿ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ قيل هم العلماء، وقيل هم الأمراء وهما روايتان عن أحمد، قال ابن القيم: والتحقيق بأن الآية تعم الطائفتين.

قيل: إنما تجب طاعتهم إذا أمروا بطاعة الله وطاعة رسوله، فكان العلماء مبلغين لأمر الله وأمر رسوله والأمراء منفذين له فحينئذ تجب طاعتهم تبعًا لطاعة الله ورسوله كما قال ﷺ: « لا طاعة في معصية إنما الطاعة في المعروف » وقال: « على المرء المسلم السمع والطاعة ما لم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » حديثان صحيحان فليس في هذه الآية ما يخالف آية براءة.

قال: وقال ابن عباس: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء. أقول: قال رسول الله ﷺ وتقولون: قال أبو بكر وعمر.

(ش) قوله: يوشك بضم أوله وكسر الشين المعجمة. قال أبو السعادات أي: يقرب ويدنو ويسرع، وهذا الكلام قاله ابن عباس لمن ناظره في متعة الحج، وكان ابن عباس يأمر بها فاحتج عليه المناظر بنهى أبي بكر وعمر عنها. أي: هما أعلم منك وأحق بالاتباع فقال: هذا الكلام الصادر عن محض الإيمان وتجريد المتابعة للرسول ﷺ وإن خالفه من خالفه كائنًا من كان كما قال الشافعي: أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس كائنًا من كان فإذا كان هذا كلام ابن عباس لمن عارضه بأبي بكر وعمر وهما هما، فماذا تظنه يقول لمن يعارض سنن الرسول ﷺ بإمامه وصاحب مذهبه ينتسب إليه ؟ ويجعل قوله عيارًا على الكتاب والسنة فما وافقه قبله وما خالفه رده، أو تأوله فالله المستعان، وما أحسن ما قال بعض المتأخرين:

فما جاءهم فيه الدليل موافقا ... لما كان للآبا إليه ذهاب

رضــــوه وإلا قيـــل هــــذا مــــؤول فيركــــب للتأويـــل فيـــه صـــعاب

ولا ريب أن هذا داخل في قوله تعالى: ﴿ اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾. الآية.

قال المصنف، وقال أحمد بن حنبل: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأي سفيان والله تعالى يقول: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾، أتدري ما الفتنة ؟ الفتنة الشرك لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك.

(ش). هذا الكلام من أحمد رواه عنه الفضل بن زياد وأبو طالب. قال الفضل عن أحمد: نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرسول في ثلاثة وثلاثين موضعًا، ثم جعل يتلو ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ الآية وجعل يكررها ويقول: وما الفتنة إلا الشرك لعله إذا رد بعض قوله: أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيزيغ قلبه: فيهلك وجعل يتلو هذه الآية: ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ وقال أبو طالب عن أحمد وقيل له: إن قومًا يدعون الحديث ويذهبون إلى رأي سفيان، فقال: عجبت لقوم سمعوا الحديث وعرفوا الإسناد وصحته يدعونه ويذهبون إلى رأي سفيان وغيره، قال الله: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أتدري ما الفتنة الكفر قال الله تعالى: ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾، فيدعون الحديث عن رسول الله ﷺ وتغلبهم أهواؤهم إلى الرأي، ذكر ذلك شيخ الإسلام قلت: وكلام أحمد في ذم التقليد وإنكار تأليف كتب الرأي كثير مشهور.

قوله عرفوا الإسناد أي: إسناد الحديث وصحته أي صحة الإسناد دليل على صحة الحديث.

قوله يذهبون إلى رأي سفيان أي: الثوري الإمام الزاهد العابد الثقة الفقيه، وكان له أصحاب ومذهب مشهور فانقطع، ومراد أحمد الإنكار على من يعرف إسناد الحديث وصحته ثم بعد ذلك يقلد سفيان أو غيره، ويعتذر بالأعذار الباطلة إما بأن الأخذ بالحديث اجتهاد والاجتهاد انقطع منذ زمان، وإما بأن هذا الإمام الذي قلدته أعلم مني فهو لا يقول إلا بعلم ولا يترك هذا الحديث مثلاً إلا عن علم، وأما بأن ذلك اجتهاد ويشترط في المجتهد

أن يكون عالمًا بكتاب الله عالمًا بسنة رسول الله ﷺ ناسخ ذلك ومنسوخه وصحيح السنة وسقيمها عالمًا بوجوه الدلالات، عالمًا بالعربية والنحو والأصول، ونحو ذلك من الشروط التي لعلها لا توجد تامة في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما كما قاله المصنف ؟ فيقال له: هذا إن صح فمرادهم بذلك المجتهد المطلق، أما أن يكون ذلك شرطًا في جواز العمل بالكتاب والسنة فكذب على الله، وعلى رسول الله ﷺ وعلى أئمة العلماء، بل الفرض والحتم على المؤمن إذا بلغه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وعلم معنى ذلك في أي شيء كان أن يعمل به ولو خالفه من خالفه. فبذلك أمرنا ربنا تبارك وتعالى ونبينا ﷺ وأجمع على ذلك العلماء قاطبة إلا جهال المقلدين وجفاتهم، ومثل هؤلاء ليسوا من أهل العلم، كما حكى الإجماع على أنهم ليسوا من أهل العلم، أبو عمر بن عبد البر وغيره قال الله تعالى: ﴿ اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ﴾ فشهد تعالى لمن أطاع الرسول ﷺ بالهداية، وعند جفاة المقلدين أن من أطاعه ﷺ ليس بمهتد إنما المهتدي من عصاه، وعدل عن أقواله، ورغب عن سنته إلى مذهب أو شيخ ونحو ذلك، وقد وقع في هذا التقليد المحرم خلق كثير ممن يدعي الإسلام والمعرفة بالعلوم ويصنف التصانيف في الحديث والسنن ثم بعد ذلك تجده جامدًا على أحد هذه المذاهب يرى الخروج عنها من العظائم وفي كلام أحمد إشارة إلى أن التقليد قبل بلوغ الحجة لا يذم. إنما المذموم المنكر الحرام، الإقامة على ذلك بعد بلوغ الحجة، نعم وينكر الإعراض عن كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ والإقبال على تعلم الكتب المصنفة في الفقه استغناء بها عن الكتاب والسنة، بل إن قرؤوا شيئًا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فإنما يقرؤون تبركًا لا تعلمًا وتفقهًا. أو لكون بعض الواقفين وقف على من قرأ البخاري مثلاً ؛ فيقرؤونه لتحصيل الوظيفة لا لتحصيل الشريعة ؛ فهؤلاء من أحق الناس بدخولهم في قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴾. وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾.

فإن قلت: فماذا يجوز للإنسان من قراءة هذه الكتب المصنفة في المذاهب ؟ قيل: يجوز من ذلك قراءتها على سبيل الاستعانة بها على فهم الكتاب والسنة، وتصوير المسائل: فتكون من نوع الكتب الآلية أما إن تكون هي المقدمة على كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ الحاكمة بين الناس فيما اختلفوا فيه المدعو إلى التحاكم إليها دون التحاكم إلى الله والرسول ﷺ فلا ريب أن ذلك مناف للإيمان مضاد له كما قال تعالى: ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ فإذا كان التحاكم عند المشاجرة إليها دون الله أو رسوله إنما إذا قضى الله ورسوله أمرًا وجدت الحرج في نفسك، وإن قضى أهل ذلك الكتاب بأمر لم تجد حرجًا، ثم إن قضى الرسول ﷺ بأمر لم تسلم له، وإن قضوا بأمر سلمت له، فقد قسم الله تعالى سبحانه وهو أصدق القائلين بأجل مقسم به وهو نفسه تبارك وتعالى أنك لست بمؤمن والحالة هذه وبعد ذلك، فقد قال الله تعالى: ﴿ بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ على أن الأئمة الأربعة وغيرهم من أهل العلم، قد نهوا عن تقليدهم مع ظهور السنة، فكلام أحمد الذي ذكره المصنف كاف عن تكثير النقل عنه. وقال أبو حنيفة: إذا جاء الحديث عن الرسول فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن الصحابة فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن التابعين: فنحن رجال وهم رجال، وفي « روضة العلماء » سئل أبو حنيفة: إذا قلت قولاً وكتاب الله يخالفه. قال: اتركوا قولي لكتاب الله، قيل: إذا كان قول الرسول يخالفه قال اتركوا قولي للرسول ﷺ. قيل إذا كان قول الصحابة يخالفه قال اتركوا قولي لقول الصحابة فلم يقل: هذا الإمام ما يدعيه جفاة المقلدين له أنه لا يقول قولاً يخالف كتاب الله، حتى أنزلوه بمنزلة المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى وروي البيهقي في السنن عن الشافعي أنه قال: إذا قلت قولاً وكان عن النبي ﷺ قول يخالف قولي فما يصح من حديث رسول الله ﷺ أولى فلا تقلدوني. وقال الربيع: سمعت الشافعي يقول إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله ﷺ فقولوا بسنة رسول الله ﷺ ودعوا ما قلت وتواتر عنه أنه قال: إذا صح الحديث أي بخلاف قولي فاضربوا بقولي عرض الحائط وقال مالك كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ. وكلام الأئمة مثل هذا كثير، فخالف المقلدون ذلك وجمدوا على ما وجدوه

في الكتب المذهبية، سواء كان صوابًا أم خطأ مع أن كثيرًا من هذه الأقوال المنسوبة إلى الأئمة ليست أقوالاً لهم منصوصًا عليها، وإنما هي تفريعات ووجوه واحتمالات وقياس على أقوالهم، ولسنا نقول: إن الأئمة على خطأ بل هم إن شاء الله على هدى من ربهم، وقد قاموا بما أوجب الله عليهم من الإيمان بالرسول ﷺ ومتابعته ولكن العصمة منتفية عن غير الرسول، فهو الذي — لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى — فما العذر في إتباعهم وترك إتباع الذي لا ينطق عن الهوى ؟ » .

قوله: لعله أي: لعل الإنسان الذي تصح عنده سنة رسول الله ﷺ، قوله إذا رد بعض قول النبي ﷺ، قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك، هذا تنبيه على أن رد قول الرسول ﷺ سبب لزيغ القلب الذي هو سبب الهلاك في الدنيا والآخرة فإذا كانت إساءة الأدب معه في الخطاب سببًا لحبوط الأعمال كما قال تعالى: ﴿ **لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ** ﴾ فما ظنك برد أحكامه وسنته لقول أحد من الناس كائنًا من كان ؟ قال شيخ الإسلام: فإذا كان المخالف عن أمره قد حذر من الكفر والشرك ومن العذاب الأليم دل على أنه قد يكون مفضيا إلى الكفر والعذاب الأليم، ومعلوم أن إفضاءه إلى العذاب هو مجرد فعل المعصية، فإفضاؤه إلى الكفر إنما هو بما يقترن به من استخفاف بحق الأمر كما فعل إبليس لعنه الله. فإذا علمت أن المخالفة عن أمره ﷺ، سبب للفتنة، التي هي الشرك والعذاب الأليم في الدنيا والآخرة علمت أن من رد قوله وخالف أمره لقول أبي حنيفة، أو مالك أو غيرهما: لهم النصيب الكامل، والحظ الوافر من هذه الآية، وهذا الوعيد على مخالفة أمره ﷺ وقد استدل بهذه الآية، كثير من العلماء، على أن أصل الأمر للوجوب حتى يقوم دليل على استحبابه، قال عدي بن حاتم أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ** ﴾ الآية فقلت له: إنا لسنا نعبدهم. قال: « أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه فقلت بلى. قال: فتلك عبادتهم » رواه أحمد والترمذي وحسنه.

(ش): هذا الحديث قد روي من طرق فرواه ابن سعد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردوية، والبيهقي في السنن وفيه قصة اختصرها المصنف.

قوله: عن عدي بن حاتم أي الطائي المشهور وهو بن عبد الله بن سعد بن الحشرج بفتح المهملة وسكون المعجمة وآخره جيم، مات مشركًا وعدي يكنى أبا طريف بفتح المهملة صحابي شهير، حسن الإسلام، مات سنة ثمان وستين وله مائة وعشرون سنة ؟

قوله: فقلت: إنا لسنا نعبدهم ظن عدي أن العبادة المراد بها التقرب إليهم بأنواع العبادة، من السجود والذبح والنذر ونحو ذلك فقال: إنا لسنا نعبدهم، قوله: « أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه » إلى آخره ؟ صرح ﷺ في هذا الحديث بأن عبادة الأحبار والرهبان هي طاعتهم في تحريمهم الحلال وتحليل الحرام، وهو طاعتهم في خلاف حكم الله ورسوله.

قال المصنف رحمه الله وفيه تغيير الأحوال إلى هذه الغاية صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال ولاسيما الولاية، وعبادة الأحبار هي العلم والفقه. ثم تغيرت الحال إلى أن عبد من ليس من الصالحين. وعبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين.

قوله صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال، يشير إلى ما يعتقده كثير من الناس ممن ينتسب إلى الولاية من الضر والنفع، والعطاء والمنع، ويسمون ذلك الولاية والسر ونحو ذلك وهو الشرك.

قوله: وعبادة الأحبار هي العلم والفقه أي: هي التي تسمى اليوم العلم والفقه المؤلف على مذهب الأئمة ونحوهم فيطيعونهم في كل ما يطيعونك سواء وافق حكم الله أم خالفه، بل لا يعبؤون بما خالف ذلك من كتاب وسنة، بل يردون كلام الله وكلام رسوله لأقوال من قلدوه، ويصرحون بأنه لا يحتمل العمل بكتاب ولا سنة، وإنه لا يجوز تلقي العلم والهدي منهما، وإنما الفقه والهدى عندهم ما وجدوه في هذه الكتب، بل أعظم من ذلك وأطم رمي كثير منهم كلام الله ورسوله بأنه لا يفيد العلم ولا اليقين، من باب معرفة أسماء الله وصفاته وتوحيده، ويسمونها ظواهر لفظية، ويسمون ما وضعه الفلاسفة المشركون القواطع العقلية. ثم يقدمونها في باب الأسماء والصفات والتوحيد على ما جاء من عند الله،

ثم يرمون من خرج عن عبادة الأحبار والرهبان إلى طاعة رب العالمين، وطاعة رسوله وتحكيم ما أنزل الله في موارد النزاع بالبدعة أو الكفر.

وقوله: ثم تغيرت الأحوال إلى أن عبد من ليس من الصالحين. وذلك كاعتقادهم في كثير ممن ينتسب إلى الولاية من الفساق والمجاذيب، وقوله: وعبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين، وذلك كاعتقادهم العلم في أناس من جهلة المقلدين فيحسنون لهم البدع والشرك فيطيعونهم، ويظنون أنهم علماء مصلحون ﴿ **أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـكِن لاَّ يَشْعُرُونَ** ﴾.

فصل

قال محمد تقي الدين: قول الإمام أحمد رحمه الله لصاحبه الفضل بن زياد أتدري ما الفتنة؟ الفتنة الشرك لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه زيغ فيهلك من المعلوم. أن إتباع النبي ﷺ الذي هو آية الإيمان ناتج عن محبته وتعظيمه وهما لازمان للمتبع فإذا خالف شخص كلام النبي ﷺ متعمدًا فلا بد أن ينقص تعظيمه ومحبته من قلبه وإذا استمرت المخالفة استمر نقص المحبة والتعظيم حتى يزولا بالكلية وذلك هو الكفر فإن كل من خالفه الإنسان وكان في قلبه له تعظيم ومحبة كالوالد والوالدة والصديق والأمير لابد أن تنقص محبته وتعظيمه من قلبه وما بعد النقص إلا الزوال فإذا قلت لشخص من المخالفين لماذا لا تصلي صلاة رسول الله أو لماذا تخالف سنة رسول الله وهي في غاية الوضوح يغالطك ويقول الله يهدينا فإن شددت عليه غضب وتبرأ من سنة النبي أو تحيل في ردها وذلك هو طريق الكفر وما أحسن ما قال الشاعر:

تعصي الرسول وأنت تظهر حبه ... هذا محال في القياس بديع

لو كان حبك صادقًا لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

سورة الفرقان

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١].

قال (ك) يمدح الله تعالى نفسه الكريمة على ما نزل على رسوله الكريم من القرآن العظيم كما قال تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ ﴾. وقال ههنا: ﴿ تَبَارَكَ ﴾ وهو تفاعل من البركة المستقرة الثابتة الدائمة. ﴿ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ ﴾ نزل فعل من التكرر والتكثر لأن الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة، والقرآن نزل آيات وأحكامًا بعد أحكام وسورًا بعد سور وهذا أبلغ وأشد اعتناء بمن أنزل عليه، كما قال تعالى في هذه السورة: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢) وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾. ولهذا سماه الفرقان لأنه يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد والحلال والحرام.

وقوله تعالى: ﴿ عَلَى عَبْدِهِ ﴾ هذه صفة مدح وثناء لأنه أضاف عبوديته إلى ربه كقوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ وقوله تعالى: ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ كما قال ﷺ: « إني أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي فذكر منهن أن النبي: « كان يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » .

فصل

قال محمد تقي الدين: أرسل الله رسوله محمد ﷺ نذيرا لمن عصاه بالعذاب المهين في الدنيا والآخرة وبشيرا لمن أطاعه بالسعادة الأبدية وإنما يكون العذاب على قدر بلوغ الحجة وقيامها على المنذرين ولذلك نرى المسلمين في هذا الزمان أشد الناس شقاء وأعظمهم ذلة وهوانا وهذا الشقاء يعم أفرادهم وجماعاتهم وهو ملازم لهم في بلادهم وحين يخرجون منها ولا يزالون كذلك حتى يتوبوا من جرائمهم ويتبعوا كتاب الله وسنة رسوله ويجتمعوا عليهما ويستضيؤوا بنورهما ويتخلقوا بأخلاقهما ويعمروا بهما مساجدهم ومدارسهم ومحاكمهم ومؤتمراتهم ومجالسهم وقد أعذر من أنذر ولله عاقبة الأمور.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢٧-٣١].

قال: (ك) يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول، وما جاء به من عند الله من الحق البين الذي لا مرية فيه، وسلك طريقا آخر غير سبيل الرسول، فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم، وعض على يديه حسرة وأسفا، وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي معيط أو غيره من الأشقياء، فإنها عامة في كل ظالم، كما قال تعالى: ﴿ **يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ** ﴾. الآيتين. فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم ويعض على يديه قائلا ﴿ **يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً** (٢٧) **يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً** ﴾. يعني من صرفه عن الهدى وعدل به إلى طريق الضلال من دعاة الضلالة وسواء في ذلك أمية بن خلف وأخوه أبي بن خلف أو غيرهما ﴿ **لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ** ﴾. وهو القرآن ﴿ **بَعْدَ إِذْ جَاءنِي** ﴾. أي بعد بلوغه إلى أن قال الله تعالى: ﴿ **وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً** ﴾. أي يخذله عن الحق ويصرفه عنه ويستعمله في الباطل ويدعوه إليه.

وقوله تعالى: ﴿ **وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ...** ﴾ إلخ. قال (ك): يخبر الله تعالى عن رسوله ونبيه محمد ﷺ أنه قال: ﴿ **يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا** ﴾. وذلك أن المشركين إذا تلي عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام في غيره حتى لا يسمعوه، فهذا من هجرانه، وترك الإيمان به، وعدم تدبره أو ترك العمل به، والعدول عنه إلى غيره، كل ذلك من هجرانه أيضا، نسأله تعالى أن يجنبنا ما يسخطه: ويستعملنا في ما يرضيه من حفظ كتابه بفهمه والعمل بمقتضاه دائما على الوجه الذي يرضاه أنه سميع مجيب

كريم وهاب، وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي كما أن قومك عادوك لما دعوت إلى توحيد الله، كذلك فعل الأمم الماضية مع رسلهم فكان منهم أعداء لهم يصدون الناس عن الهدى، ولكن الله تعالى هو الهادي فلا يستطيع أحد أن يحول دون هدايته، ولذلك قال عز من قائل: ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾. لمن اتبع رسوله وآمن بكتابه وصدقه واتبعه فإن الله هاديه وناصره في الدنيا والآخرة والله غالب على أمره.

فصل

قال محمد تقي الدين: هذه الآيات تشمل كل من بلغته دعوة الرسول ﷺ وأعرض عنها سواء أكان من المكذبين أم من المنافقين الذين يقولون سمعنا وهم لا يسمعون أم من المقلدين المتعصبين الذين يقولون بلسان حالهم أو قالهم أو بهما معا، ما وافق قول إمامنا وأهل مذهبنا من سنة النبي ﷺ قبلناه وعملنا به وما خالفه رددناه إما بتأويل يحرف معناه أو ادعاء نسخ أو ضعف أو غير ذلك من وجوه الرد. وقوله: يا ليتني لم أتخذ فلانا خليلا. يصدق على كل مؤلف يخالف في تأليفه كتاب الله وسنة رسوله تعصبا لمقلده بفتح اللام.

قال الإمام المحقق سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب في كتابه تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ما نصه: المتن ممزوج بالشرح باب قول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ﴾ الآيات. (ش): لما كان التوحيد الذي هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله مشتملا على الإيمان بالرسول ﷺ مستلزما له، وذلك هو معنى الشهادتين، ولهذا جعلهما النبي ﷺ ركنا واحدا في قوله: « بني الإسلام على خمس شهادة: أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا » نبه في هذا الباب على ما تضمنه التوحيد واستلزمه من تحكيم الرسول ﷺ في موارد النزاع، إذ هذا هو مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله، ولازمها الذي لابد منه لكل مؤمن، فإن من عرف أن لا إله إلا الله فلابد من الانقياد لحكم الله والتسليم لأمره الذي جاء من عنده على يد رسوله محمد ﷺ فمن شهد أن لا إله إلا الله، ثم عدل إلى تحكيم غير الرسول

في موارد النزاع فقد كذب في شهادته، وإن شئت قلت: لما كان التوحيد مبنيا على الشهادتين، إذ لا تنفك إحداهما عن الأخرى لتلازمهما وكان ما تقدم من هذا الكتاب في معنى شهادة أن لا إله إلا الله التي تتضمن حق الله على عباده، نبه في هذا الباب على معنى شهادة أن محمد رسول الله، التي تتضمن حق الرسول ﷺ فإنها تتضمن أنه عبد لا يعبد، ورسول صادق لا يكذب، بل يطاع ويتبع؛ لأنه المبلغ عن الله تعالى: فله عليه الصلاة والسلام منصب الرسالة، والتبليغ عن الله والحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه: إذ هو لا يحكم إلا بحكم الله ومحبته أكثر من النفس، والأهل والمال والوطن شرط الإيمان وليس له من الإلهية شيء ؛ بل هو عبد الله ورسوله كما قال تعالى: ﴿ **وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّـهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا** ﴾. وقال ﷺ: « إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » ومن لوازم ذلك متابعته وتحكيمه في موارد النزاع، وترك التحاكم إلى غيره كالمنافقين الذين يدعون الإيمان به ويتحاكمون إلى غيره، وبهذا يتحقق العبد بكمال التوحيد وكمال المتابعة وذلك هو كمال سعادته، وهو معنى الشهادتين، إذا تبين هذا فمعنى الآية المترجم لها أن الله تبارك وتعالى أنكر على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله. وعلى الأنبياء قبله، وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله، كما ذكر المصنف في سبب نزولها قال ابن القيم: والطاغوت كل من تعدى به حده من الطغيان وهو مجاوزة الحد، فكل ما تحاكم إليه متنازعان غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فهو طاغوت إذ قد تعدى به حده، ومن هذا كل من عبد شيئًا دون الله فإنه عبد الطاغوت، وجاوز بمعبوده حده فأعطاه العبادة التي لا تنبغي له، كما أن من دعا إلى تحكيم غير الله تعالى ورسوله ﷺ فقد دعا إلى تحكيم الطاغوت، وتأمل تصديره سبحانه الآية منكرا لهذا التحكيم على من زعم أنه قد آمن بما أنزله الله على رسوله ﷺ وعلى من قبله ثم هو مع ذلك يدعو إلى تحكيم غير الله ورسوله ﷺ ويتحاكم إليه عند النزاع وفي ضمن قوله: « يزعمون » نفي لما زعموه من الإيمان، ولهذا لم يقل: ألم تر إلى الذين آمنوا. فإنهم لو كانوا أهل الإيمان حقيقة لم يريدوا أن يتحاكموا إلى غير الله تعالى ورسوله ﷺ، ولم يقل فيهم يزعمون فإن هذا إنما يقال غالبا لمن ادعى دعوى هو فيها كاذب أو منزل منزلة الكاذب، لمخالفته لموجبها وعمله بما ينافيها

قال (ك): والآية ذامة لمن عدل عن الكتاب والسنة وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل وهو المراد بالطاغوت ههنا.

وقوله تعالى: ﴿ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ ﴾. أي بالطاغوت وهو دليل على أن التحاكم إلى الطاغوت مناف للإيمان مضاد له، فلا يصح الإيمان إلا بالكفر به وترك التحاكم إليه فمن لم يكفر بالطاغوت لم يؤمن بالله وقوله ﴿ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا ﴾. أي: لأن إرادة التحاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من طاعة الشيطان، وهو إنما يدعو أحزابه ليكونوا من أصحاب السعير، وفي الآية دليل على أن ترك التحاكم إلى الطاغوت، الذي هو ما سوى الكتاب والسنة من الفرائض وأن المتحاكم إليه غير مؤمن بل ولا مسلم.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾. أي إذا دعو إلى التحاكم إلى ما أنزل الله وإلى الرسول أعرضوا إعراضا مستكبرين كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾. قال ابن القيم: هذا دليل على أن من دعي إلى تحكيم الكتاب والسنة، فلم يقبل، وأبي ذلك أنه من المنافقين، ويصدون هنا لازم لا متعد، هو بمعنى يعرضون، لا بمعنى يمنعون غيرهم، ولهذا أتى مصدره على صدود، ومصدر المتعدي صدا. فإذا كان المعرضون عن ذلك قد حكم الله سبحانه بنفاقهم، فكيف بمن زاد إلى إعراضه منع الناس من تحكيم الكتاب والسنة، والتحاكم إليهما بقوله وعمله وتصانيفه ؛ ثم يزعم مع ذلك أنه إنما أراد الإحسان والتوفيق. الإحسان في فعله ذلك أو التوفيق بين الطاغوت الذي حكمه، وبين الكتاب والسنة ؟ قلت: وهذا حال كثير ممن يدعي العلم والإيمان في هذه الأزمان، إذا قيل لهم: تعالوا نتحاكم إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيتهم يصدون وهم مستكبرون، ويعتذرون أنهم لا يعرفون ذلك، ولا يعقلون، بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥١، ٥٢].

قال (ك): يقول تعالى: ﴿ **وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا** ﴾. يدعوهم إلى الله عز وجل ولكنا خصصناك يا محمد بالبعثة إلى جميع الأرض وأمرناك أن تبلغهم هذا القرآن ﴿ **لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ** ﴾ كما قال تعالى: ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾. وفي الصحيحين: « بعثت إلى الأحمر والأسود » وفيهما: « وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » ولهذا قال تعالى: ﴿ **فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ** ﴾ يعني القرآن قاله ابن عباس ﴿ **جِهَادًا كَبِيرًا** ﴾ أي: غليظًا.

فصل

قال محمد تقي الدين: الكافرون بالقرآن وبيان النبي ﷺ للقرآن على نوعين أحدهما يجهر بالكفر والآخر يخفي الكفر ويظهر الإيمان ولكنه لا يقبل ما جاء به الرسول بل يتبع هواه فيقبل ما وافقه أو وافق مذهبه أو طريقته أو حزبه أو فرقته ويرد ما خالف ذلك بأنواع من الحيل والروغان والتدليس وقد أمر الله رسوله والمؤمنين به أن يجاهدوهم جهادًا كبيرًا ولا يكون متبعًا للنبي ﷺ حق الإتباع إلا من جاهدهم فنسأل الله أن يجعلنا من المجاهدين وأن يجعل النصر حليفنا ويهدينا صراطه المستقيم.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٥٦ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٥٦، ٥٧].

قال (ك): ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا** ﴾ أي بشيرًا للمؤمنين، ونذيرًا للكافرين لمن خالف أمره ﴿ **قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ** ﴾ أي على هذا البلاغ إنما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله تعلى: ﴿ **إِلاَّ مَن شَاء أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً** ﴾ أي طريقًا ومنهجًا يقتدى فيها بما جئت به.

فصل

قال محمد تقي الدين: أرسل الله رسوله محمدًا ﷺ مبشرًا للمتبعين له الذين لا يتخذون من دونه وليجة تعوقهم عن الإتباع لا مذهبًا ولا طريقة ولا حزبًا ولا قومية ولا اشتراكية

ولا شيوعية بل يعتقدون أن الله واحد في السماء هو ربهم وأنه بيده جميع أمورهم وأن محمدًا ﷺ واحد في الأرض هو إمامهم به يقتدون وبه يهتدون وبسنته وهديه يعملون وإذا سئلوا في قبورهم وقيل لكل منهم ما علمك بهذا الرجل يقول إن شاء الله هو محمد جاءنا بالبينات فآمنا به واتبعناه هو محمد هو محمد هو محمد فيقال له نم صالحًا قد علمنا إن كنت لموقنا به. ويفتح له باب إلى النار فيقال له هذا مقامك لو لم تتبع الرسول ثم يفتح له باب إلى الجنة فلا يزال يناله من نعيمها وبركاتها ما تقر به عينه حتى يبعثه الله والذي ينام هو جسمه أما روحه فإنها تتنعم في الجنة حرة طليقة حتى يردها الله إلى جسدها يوم القيامة نسأل الله أن يجعلنا منهم بمنه وكرمه.

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴾ [الفرقان: ٧٣].

قال (ك): وقوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا** ﴾ وهذه أيضًا من صفات المؤمنين قال الحسن: كم من رجل يقرؤها ويخر عليها أصم وأعمى قال ابن أبي حاتم عن عون قال: سألت الشعبي قلت: الرجل يرى القوم سجودًا ولم يسمع ما سجدوا، أيسجد معهم ؟ فتلا هذه الآية.. يعني لا يسجد معهم، لأنه لم يتدبر أمر السجود ولا ينبغي للمؤمن أن يكون أمعة بل يكون على بصيرة من أمره ويقين واضح بين، وقال مجاهد: قوله تعالى: ﴿ **لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا** ﴾ قال لم يسمعوا ولم يبصروا ولم يفقهوا شيئًا.

فصل

قال محمد تقي الدين: الإمعة: هو الغمر المقلد الذي لا يفكر بعقله ولا يميز الهدى من الضلال وإنما يتبع غيره بدون دليل ولا برهان قال ابن مسعود كنا نعد الإمعة في الجاهلية الذي يتبع القوم إذا دعوا إلى وليمة دون أن يكون هو مدعوا وهو فيكم المحقب دينه الرجال أي الذي يجعل دينه كالحقيبة ويضعه على رجل يقلده لا يعرف صوابه من خطئه

ويروى عن علي بن أبي طالب أنه كان كثيرًا ما ينشد:

إذا المعضلات تصدين لي كشفت حقائقها بالنظر
ولست بأمعة في الرجال أسائل هذا وذا ما الخبر

وقال بعض الناصحين:

ولا تكن أمعة الأقوام وقل بما عندك من أفهام

وقد أثنى الله على أصناف من الناس في هذه الآيات وجعل منهم الذين إذا ذكروا بآيات الله أي القرآن وبيانه من سنة الرسول ﷺ لم يعرضوا عنها إعراض الصم العمى بل يتدبرونها ويؤمنون بما دلت عليه ويعملون به والمقلد لمذهب أو شيخ طريقة لا يفكر إلا فيما يأمره به مذهبه أو شيخه ولا يعرض شيئًا من ذلك على كتاب الله ولا سنة رسول الله ﷺ لينظر أهو حق أم باطل ؟ لأن أئمة مذهبه وشيخ طريقته ليسوا معصومين من الخطأ فلابد أن توضع آراؤهم في الميزان فيأخذ ما وافق الحق منها ويطرح ما خالفه.

سورة الشعراء

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الشعراء: ٢-٦].

قال (ك): أي هذا القرآن الواضح الجلي الفاصل بين الحق والباطل، وقوله تعالى ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾ أي مهلك ﴿ نَّفْسَكَ ﴾ أي من شدة ما تحرص وتحزن عليهم ﴿ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ وهذه تسلية من الله تعالى لرسوله ﷺ كما قال تعالى: ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ لو نشاء لأنزلنا معجزة تضطرهم إلى الإيمان قهرًا، ولكن لا نريد إلا الإيمان الاختياري، ثم

قال تعالى: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ أي كلما جاءهم كتاب من السماء أعرض أكثر الناس عنه كقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾. وقال تعالى هنا: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون ﴾ أي فقد كذبوا بما جاءهم من الحق فسيعلمون ما سيحيق بهم.

فصل

قال محمد تقي الدين: في هذه الآيات فوائد:

الأولى: شدة حرص النبي ﷺ على هداية الناس وإيمانهم بالله ورسوله حتى كاد يقتل نفسه من شدة الغم والأسف.

الثانية: تسلية الله تعالى له وفي ضمنها تبشيره بأن تلك الحال التي كانت في مكة عند نزول سورة الشعراء لا تدوم وسيعقبها الفتح والنصر المبين فيدخل الناس في دين الله أفواجًا وتقر عين النبي ﷺ وأعين المؤمنين.

الثالثة: إعلام الله نبيه أن حكمته تعالى اقتضت ترك الاختيار للناس وعدم إجبارهم على الإيمان ليكون الثواب للمحسنين والعقاب للمسيئين.

الرابعة: إخبار الله تعالى عن المشركين أنهم كلما جاءتهم آية من آيات الله قابلوها بالإعراض وكلما نزل شيء من الوحي لم يستمعوا له وكذبوا رسول الله ﷺ واستهزؤوا به وبمن اتبعه.

الخامسة: أن عقاب الله لابد أن ينزل بهم عاجلاً أو آجلاً.

السادسة: أن كل من ترك العمل بآية أو حديث فهو داخل في الجملة في هذا الوعيد. قال رسول الله ﷺ ومن رغب عن سنتي فليس مني فالمقلد الذي يقدم قول إمامه أو بعض أهل مذهبه على كتاب الله أو حديث رسول الله ﷺ معرض في حكم المكذب فإن قلت وهل يوجد من يقدم رأيه أو رأي غيره على كتاب الله من مقلدة المذاهب ؟ أقول نعم المنتسبون إلى مذهب مالك في هذا الزمان يجعلون عدة المرأة المطلقة ثلاثة أشهر ولو كانت تحيض ويعللون ذلك بأن النساء في هذا الزمان ليس لهن دين يمنعهن من الكذب فلو وكلت الأمر إلى المرأة لكذبت وادعت أنها حاضت ثلاث حيضات فالصواب عندهم أن تكون عدتها

ثلاثة أشهر كاليائسة والصغيرة التي لم تحض فجمعوا بين وما فرق الله بينه وأعرضوا عن كتاب الله وحديث رسول الله وإجماع الصحابة وقد تقدم في الباب الثاني من سورة يونس ذكر أمثلة متعددة لمخالفة بعض أهل المذاهب للأدلة الشرعية تعصبًا لمذاهبهم نسأل الله العافية.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [الشعراء: ١٩٢-٢٠٤].

قال (ك): يخبر تعالى عن الكتاب الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ (وأنه) أي القرآن ﴿ **لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ الذي أوحاه إليك ﴿ **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ** ﴾ وهو جبريل عليه السلام ﴿ **عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ** ﴾ أي نزل به على قلبك سالمًا من الزيادة والنقص لتنذر به بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه، وتبشر به المؤمنين المتبعين له ﴿ **بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ** ﴾ أي أنزلنا القرآن باللسان العربي الفصيح الكامل الشامل ليكون واضحًا قاطعًا للعذر مقيمًا للحجة دليلاً إلى المحجة.

روي ابن أبي حاتم عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال: « بينما رسول الله ﷺ مع أصحابه في يوم [١] دجن إذ قال لهم: كيف ترون بواسقها [٢]؟ قالوا: ما أحسنها وأشد تراكمها قال: فكيف ترون قواعدها: قالوا ما أحسنها وأشد تمكنها، قال: فكيف ترون جريها ؟ قالوا ما

(١) في القاموس : الدجن كعتل اليوم الريان المظلم .
(٢) البواسق : جنس من النخل .

أحسنه وأشد سواده قال: فكيف ترون رحاها استدارت ؟ قالوا ما أحسنها وأشد استدارتها، قال: فكيف ترون برقها ؟ أوميضا أو خفقا أم يشق شقا ؟. قالوا بل يشق شقا. قال الحيا [١] الحيا إن شاء الله. قال: فقال رجل يا رسول الله، بأبي وأمي ما أفصحك، ما رأيت الذي هو أعرب منك قال: فقال: « حق لي وإنما أنزل القرآن بلساني » والله يقول: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ ﴾. إلى قوله: ﴿ مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾.

قال (ك): يقول تعالى: وإن ذكر هذا القرآن والتنويه به لموجود في كتب الأولين المأثورة عن أنبيائهم الذين بشروا به في قديم الدهر وحديثه، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك حتى قام آخرهم خطيبًا في ملئه بالبشارة بأحمد: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ والزبر جمع زبور وهو الكتاب، والزبور الكتاب الذي نزل على داوود عليه السلام ومعنى زبر الأولين كتب الأولين ثم قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي أو ليس يكفيهم من الشاهد الصادق على ذلك أن علماء بني إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها، والمراد العدول منهم الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد ﷺ ومبعثه كعبد الله بن سلام وغيره وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي أن قريشًا من شدة عنادهم وكفرهم بهذا القرآن: أنه لو نزل على رجل من الأعاجم ممن لا يدري من العربية كلمة وأنزل عليه هذا الكتاب ببيانه وفصاحته لا يؤمنون به كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾. وقوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾. إلى آخره.

---

(١) الحيا: المطر.

قال (ك): يقول تعالى: ﴿ **كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ** ﴾ أي كذلك أدخلنا التكذيب والكفر والجحود والعناد في قلوب المجرمين جزاء وفاقا لما كذبوا به أول مرة فسلكناه في قلوبهم عقابًا لهم وجعلناهم ﴿ **لا يُؤْمِنُونَ بِهِ** ﴾ أي بالحق الذي كفروا به ﴿ **حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ** ﴾ حين لا ينفع الظالمين معذرتهم ﴿ **فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً** ﴾ أي عذاب الله ﴿ **وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُون** ﴾ أي يتمنون لو يؤجلون ليعملوا في زعمهم بطاعة الله، فكل ظالم وفاجر وكافر إذا شاهد عقوبته ندم ندما شديدًا كما حصل لفرعون لعنه الله، ولكن ما ينفع الندم إذا أتى أمر الله.

وقوله تعالى: ﴿ **أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ** ﴾ إنكار عليهم وتهديد لهم، فقد كانوا يكذبون بالعذاب ويستبعدون وقوعه.

فصل

قال محمد تقي الدين: ذكر الله سبحانه وتعالى القول بأن القرآن تنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ ليكون من المنذرين المحذرين من عذاب الله لكل من خالفه ونبذه وراء ظهره وابتغى الهدي في غيره وقد جاء في حديث الحارث الأعور عن علي عن النبي ﷺ من تركه تجبرًا قصمه الله ومن ابتغى الهدي في غيره أضله الله ونحن اليوم نرى الشعوب التي سعد أسلافها به تتخبط في ظلمات الجهل وتتقلب في أنواع الشقاء وتلتمس حل مشاكلها من طرق مسدودة كالالتجاء إلى دول الشرق أو دول الغرب وهيهات هيهات أن تجد حلاً لمشاكلها ولا فرجًا لكربتها إلا في هذا القرآن وسنة من أنزله الله عليه وكذلك المقلدون يلتمسون العلم في كتب الفروع التي هي ظلمات بعضها فوق بعض ويتركون المورد العذب الصافي وهو كتاب الله وسنة رسوله الكريم نسأل الله أن يجعلهما شفاء لما في صدورنا من الجهل ويهدينا بهما صراطه المستقيم.

سورة النمل

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ طسٓ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ۝ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴾ [النمل: ١-٣].

قال (ك): قد تقدم الكلام في سورة البقرة على الحروف المقطعة في أوائل السور، وقوله تعالى ﴿ **تِلْكَ آيَاتُ** ﴾ أي هذه آيات ﴿ **الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾ أي بين واضح ﴿ **هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ أي هو بشارة وهدى لمن اتبعه وصدقه ﴿ **الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ** ﴾ أي يقيمون الصلاة المكتوبة ويؤتون الزكاة المفروضة وأيقنوا بالدار الآخرة والبعث بعد الموت والجزاء على الأعمال خيرها وشرها والجنة والنار كما قال تعالى: ﴿ **قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ** ﴾ الآية.

فصل

قال محمد تقي الدين: أخبرنا الله سبحانه أن آيات القرآن فيها هدى وبشرى فالهدى يمنع من الضلال في أمور الدين والدنيا والبشرى تدخل السرور والانشراح على قلوب أهل الإيمان وتظهر نضرتها على وجوههم كما قال النبي ﷺ. نضر الله أمرًا سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها فرب مبلغ أوعى من سامع وهذا الهدى وهذه البشرى خاصتان بالمؤمنين الذين يصدقون كل ما جاء به الرسول بقلوبهم ويعملون الصالحات بجوارحهم وأهمها إقامة الصلاة أي إكمالها وأداؤها كاملة مستوفية الشروط جامعة للآداب مطابقة لصلاة رسول الله ﷺ وهو القائل: صلوا كما رأيتموني أصلي وأعظم ركن بعد الصلاة الزكاة وهما متلازمتان لا تتم أحداهما بدون الأخرى ولذلك قرنهما الله تعالى في أكثر المواضع التي جرى ذكر أحداهما فيها ثم وصفهم سبحانه وتعالى بوصف آخر وهو أصل كل صفة وذلك إيقانهم المتجدد الذي لا ينقطع بالآخرة وهي دار الجزاء ولا شك أن جامع هذه الأوصاف يكون متبعًا للرسول لا مقلدًا ولا متمذهبًا ولا صاحب طريقة ولا حزب إلا حزب الله إلا أن حزب الله هم المفلحون.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [النمل: ٧٦-٨١].

قال (ك): يخبر الله تعالى عن كتابه العزيز وما اشتمل عليه من الهدى والبيان والفرقان أنه يقص على بني إسرائيل وهم حملة التوراة والإنجيل، ﴿ **أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** ﴾ كاختلافهم في عيسى فاليهود افتروا، والنصارى غلوا، فجاء القرآن بالقول الوسط الحق العدل أنه عبد من عباد الله وأنبيائه ورسله الكرام، عليهم أفضل الصلاة والسلام كما قال تعالى: ﴿ **ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ** ﴾ وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم** ﴾ أي يوم القيامة ﴿ **بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ** ﴾ أي في انتقامه ﴿ **الْعَلِيمُ** ﴾ بأفعال عباده وأقوالهم ﴿ **فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ﴾ أي في جميع أمورك وبلغ رسالة ربك ﴿ **إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ** ﴾ وإن خالفك الكافرون الذين لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية. ولهذا قال تعالى: ﴿ **إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى** ﴾ لأن حالهم في عدم سماع الحق يشبه حال الموتى الذين تعطل سمعهم بالموت ولهذا قال تعالى: ﴿ **وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ** (٨٠) **وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ أي إنما يستجيب لك من ينفعه سمعه وبصره الخاضع لله ولما جاء عنه على ألسنة الرسل الكرام على نبينا وعليهم أفضل الصلاة وأتم السلام.

فصل

قال محمد تقي الدين: قد أجاد الحافظ بن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآيات وغرضي أنا منها قوله تعالى ﴿ **وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ أن القرآن في هذا الزمان يقرأ ويحفظ

أكثر مما كان يقرأ ويحفظ في زمان النبي ﷺ والصحابة أضعافًا مضاعفة ولكن هل يحصل به من الهدى والرحمة ما كان يحصل به في ذلك الزمان ؟ الجواب لا ثم لا لأنه في ذلك الزمان كان تعلمه لله وقراءته لله مصحوبة بتدبر وخشوع يعمل به ويحكم به ويتأدب بأدبه وفي هذا الزمان عكس ذلك فالانتفاع بالقرآن كالانتفاع بالدواء إذا استعمل حسب ما وصف الطبيب وتجنب المريض ما نهاه عنه طبيبه من المأكولات والمشروبات نفعه الدواء وإذا استعمله على خلاف ذلك لا ينفعه بل يضره وقد جاء في الخبر. رب قارئ للقرآن والقرآن يلعنه وذلك واضح في الظالم الذي يقرأ القرآن فيقرأ فيه ﴿ **أَلاَ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ** ﴾ وفي الكاذب الذي يقرأ القرآن فيقرأ فيه ﴿ **ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ** ﴾ وفي الذي يقرأ القرآن ولا يأمر بمعروف ولا ينهي عن منكر فيقرأ فيه ﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ** ﴾. وقد قال النبي ﷺ: « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليلعننكم الله كما لعنهم » وفي الوقت الذي استولى المستعمرون على المغرب بأسره كان القرآن يختم في كل شهر آلاف المرات فلم ينفع المغاربة شيئًا بل هزموا شر هزيمة واستولى عليهم أعداؤهم واستمر استيلاؤهم عشرات السنين ولو كان القرآن يقرأ فيهم كما كان يقرأ في زمان النبي ﷺ وأصحابه لما قدر أولئك الأعداء أن يستولوا عليهم ومن ذلك نعلم أن القرآن يكون هدى ورحمة للمؤمنين الذين يتعلمونه لله ويعلمونه لله ويعملون به ويجعلونه إمامًا وحكمًا ويتأدبون بآدابه ويستضيؤون بنوره. وإلا كانوا كالذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ **كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ** ﴾ وهيهات هيهات لا ينظرون والمقلد مع القدرة على معرفة الدليل أو معرفته بالفعل والإعراض عنه لا ينال من هدى القرآن ورحمته شيئًا وكذلك المبتدع والحاكم الذي يحكم بخلاف ما في القرآن. فنيل الهدى والرحمة متوقف على الإيمان والعمل.

الباب الثالث

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل: ٩١-٩٣].

يخبر الله تعالى رسوله ويأمره أن يقول: ﴿ **إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ** ﴾. كما قال تعالى: ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَـكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ** ﴾. وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها، كما قال تعالى: ﴿ **فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ** ﴾ وقوله تعالى: ﴿ **الَّذِي حَرَّمَهَا** ﴾ أي هو الذي حرمها فصارت حرامًا شرعًا وقدرًا، كما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده ولا تلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يختلي خلاه » وقد ثبت في الصحاح والحسان والمسانيد من طرق جماعة تفيد القطع، كما هو مبين في موضعه من كتاب الأحكام، ولله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿ **وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ** ﴾ من باب عطف العام على الخاص، أي هو رب هذه البلدة ورب كل شيء ومليكه لا إله إلا هو ﴿ **وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ أي الموحدين المطيعين له، وقوله تعالى: ﴿ **وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ** ﴾ أي على الناس أبلغهم إياه ﴿ **فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ** ﴾ أي لي أسوة بالرسل الذين أنذروا قومهم وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة إليهم وحساب أممهم على الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿ **فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ** ﴾ وقوله تعالى: ﴿ **وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا** ﴾ أي لله الحمد الذي لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه، والإنذار إليه، كقوله تعالى: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ﴾. وقوله

تعالى: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أي بل هو شهيد على كل شيء. قال ابن أبي حاتم عن أبي هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: « يا أيها الناس لا يغترن أحدكم بالله، فإن الله لو كان غافلاً شيئًا لأغفل البعوضة والخردلة والذرة » وقد ذكر عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى أنه كان ينشد هذين البيتين إما له وإما لغيره:

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل خلوت ولكن قل علي رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفي عليه يغيب

فصل

قال محمد تقي الدين: محل الشاهد هنا هو قوله تعالى: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ﴾ وإما دلالتها على التوحيد فقد تقدمت في القسم الأول. والمراد بالإسلام هنا الانقياد لطاعة الله وحده لا شريك له والمراد بتلاوة القرآن العمل به وإتباع ما أنزل الله وعدم الخروج عنه وقد أنذر النبي ﷺ أمته وحذرهم من معصية الله ومخالفة القرآن والسنة فإن في خلافهما خزي الدنيا وعذاب الآخرة كما أن في إتباعهما سعادة الدنيا والآخرة والمقلد يمتنع من إتباعهما إلا عندما يوافقان مذهب إمامه الذي اتخذه إلهًا من دون الله يحلل ويحرم بقوله ويوالي ويعادي لأجله ونعوذ بالله من الخذلان.

سورة القصص

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٠].

قال (ك): أي إن لم يتبعوا الحق. ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ ﴾ بلا دليل ولا حجة ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ أي بغير حجة من كتاب الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾.

قال الإمام المحقق محمد صديق حسن القنوجي في كتابه الدين الخالص ج٣ ص٥٠ ما نصه: لا تقليد في الدين الإسلامي.

يشير إلى قول نبينا محمد ﷺ لو كان موسى حيًا ما وسعه إلا إتباعي، ولو كان موسى حيًا واتبعتموه وتركتموني لضللتم أنا حظكم من الأنبياء وأنتم حظي من الأمم.

وهذا الحديث نص قاطع وبرهان ساطع على رد التقليد، لأنه إذا لم يسع موسى النبي ﷺ إلا إتباعه ﷺ فمن ذاك الذي يجب تقليده وإتباعه في الدين ؟ وفي لفظه (البيضاء النقية) إشارة إلى أن أحكامها لا تحتاج إلى مزيد إيضاح بإلحاق الأقيسة والآراء، وضم التفاريع المبنية على الأهواء، لأنها إذا كانت محتاجة إلى ذلك، فلا يصح القصر عليها.

وإنما يستقيم إتباعها إذا ثبت كونها كاملة واضحة غير خفية، وهي كذلك ولله الحمد.

ويؤيده قوله تعالى: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا** ﴾.

فهذه الملة الحنيفية السمحة السهلة البيضاء النقية، أدلتها وافية كافية شافية لفصل جميع الخصومات وقطع المنازعات، وقضايا الحوادث الآتية، بعموماتها وخصوصاتها، لا ملجأ لعارفها إلى إدراك ما قرره أهل الرأي، وحرره أصحاب البدع والأهواء.

ولولا ذلك لما قال تعالى: ﴿ **فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ** ﴾. ثم قيده بقوله: ﴿ **إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾ فأفاد أن الرد عند التنازع إلى غيرهما مناف للإيمان، ولهذا قال: ﴿ **ذَلِكَ** ﴾ أي الرد ﴿ **خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً** ﴾.

إنك يا مسكين إذا تأملت في صنائع أهل الرأي والهوى أدركت أن كل آفة وقعت في الإسلام، وكل غربة جاءت فيه إنما نشأت من عدم الرد إلى الله ورسوله، والرد إلى الأحبار والرهبان، وتقديم أقوالهم على الآيات البينات والأحاديث الصحيحات، بنوع من التحريف والتأويل والانتحال، اللهم وفقنا لصالح الأعمال، وجنبنا عما يهلكنا في الحال، أو في المآل.

وفي حديث جابر أن عمر بن الخطاب ﷺ أتي رسول الله ﷺ بنسخة من التوراة، فسكت، فجعل يقرأ ووجه الرسول ﷺ يتغير، فقال أبو بكر: ثكلتك الثواكل أما ترى ما بوجه رسول الله ﷺ ؟ فنظر (عمر) إلى وجه رسول الله ﷺ فقال: أعوذ بالله من غضب الله

وغضب رسوله، رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيًا » .

فقال رسول الله ﷺ: « والذي نفس محمد بيده، لو بدا لكم موسى فاتبعتموه وتركتموني، لضللتم عن سواء السبيل، ولو كان حيًا وأدرك نبوتي؛ اتبعني » رواه الدارمي.

وهذا أوضح من الأول، وفيه القضاء بالضلال على من تبع غير رسول الله ﷺ ولو كان في أعلى مرتبة من النبوة، فكيف بإتباع من ليس بنبي، ولا برسول ؟ بل من آحاد الأمة، وهو متعبد بكتاب الله وسنة رسوله كغيره من العباد، مثل أئمة المذاهب الأربعة وغيرهم من الأحبار والرهبان، وهذا يفيد أن تقليد الرجال، وإتباع القيل والقال، ضلال وجهل ووبال، ولا يجوز لأحد أن يقلد أحدًا في شيء، حتى يوافق قوله قول الرسول المعصوم من الخطأ.

فيكون إتباعه له في الحقيقة إتباع الدليل، لا تقليد ذلك الإمام الجليل، وحيث أن أكثر الناس الجهلة، لا يعلمون الفرق بين التقليد والإتباع، يطعنون في العاملين بالحديث على قبول الدليل الذي ذكره أحد من أئمة الحديث وفقه السنة، ولا يدرون أن بين قبول الرأي وقبول الرواية بونا بعيدًا، ومن لم يفرق بينهما، فليس أهلاً للخطاب والله أعلم بالصواب.

قال محمد تقي الدين: لقد أجاد هذا الإمام الجليل في الرد على المقلدين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا كل حزب بما لديهم فرحون.

سورة العنكبوت

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

قال (ك): يقول تعالى آمرًا رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن وهو قراءته وإبلاغه للناس ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ** ﴾ يعني أن الصلاة تشتمل على شيئين على ترك الفواحش والمنكرات أي مواظبتها تحمل على ترك ذلك، وقد جاء في الحديث من رواية عمران وابن عباس مرفوعًا « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بعدًا » .

وقال ابن جرير بسنده عن عبد الله بن ربيعة قال: قال لي ابن عباس هل تدري ما قوله تعالى ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ قال قلت نعم قال فما هو ؟ قلت التسبيح والتحميد والتكبير في الصلاة وقراءة القرآن ونحو ذلك، قال لقد قلت قولاً عجيبًا وما هو كذلك ولكنه إنما يقول ذكر الله إياكم عندما أمر به أو نهي عنه إذا ذكرتموه أكبر من ذكركم إياه، وقد روي هذا من غير وجه عن ابن عباس وغيره.

والله يعلم ما تصنعون: أي يعلم كل ما تفعلونه وسوف يجزيكم عليه إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر ومن ذلك تلاوة القرآن والعمل به وتبليغه وإقامة الصلاة وأداؤها على الوجه الأكمل المطابق لفعل النبي ﷺ لقوله وصلوا كما رأيتموني أصلي.

فصل

قال محمد تقي الدين: أمر الله سبحانه نبيه محمدًا ﷺ بتلاوة القرآن وبيانه للناس كما تقدم في قوله تعالى ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾. وأمره بإتباعه في قوله سبحانه ﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ وأمره بالتمسك به في قوله ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾. وأمره بالحكم به في قوله: ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ وأمر الناس كلهم بإتباع القرآن فقال: ﴿ اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ وإتباع القرآن مع بيان الرسول ﷺ وهو السنة شرط في سعادة الدنيا والآخرة ومن لم يتبعه كان شقيًا في الدنيا والآخرة إذا بلغه وقامت عليه الحجة وهناك أمور كثيرة تحول دون إتباعه منها الجهل والغفلة وعدم الإيمان أو ضعفه ومنها إتباع الرؤساء المضلين ومنها التقليد والمذهب واتخاذ الطرائق المضلة ورفقاء السوء والأحزاب الناكبة عن الصراط المستقيم فالسعيد الموفق هو الذي يرضى بالغربة ويتمسك بالقرآن والسنة ويأمر أهله بذلك كما قال تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ ولا يبالي بضلال الناس ولو بقي وحده والهدي بيد الله.

قال المحقق القنوجي في الدين الخالص ج٣ ص٦٠ ما نصه:

وخطيرة اليوم بدعة التقليد فإنه منذ أحدثه الأقوام، نزع الله منهم سنة الإتباع الذي أمروا به، ثم لم يعدها إليهم إلى الآن ولا عبرة بشرذمة قليلة من القبائل الشاذة الفاذة، فإن الحكم للأكثر وللأكثر حكم الكل.

ولاشك أن المقلدين أكثر والمحدثين أقل ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ ولا تعجبك كثرة الخبث.

وعن ابن مسعود. ﷺ قال: « من كان مستنًا: أي يريد السلوك على الصراط السوي وسواء السبيل والطريق القويم والهدي المستقيم – فليستن بمن قد مات » أي يقتدي بالميتين على الإسلام والعلم والعمل فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة.

قال في « شرحه » هذا القول قاله ابن مسعود في زمانه للتابعين، ونصحهم، وأراد بمن مات، الصحابة، وبالحي، أهل زمنه غير الصحابة « أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا أفضل هذه الأمة » ممن سواهم وأبرها قلوبًا، وأعمقها علمًا أي أكثرها غورًا من جهة العلم النافع، وأدقها فهمًا في إتباع الكتاب والسنة « وأقلها تكلفًا » أي تصنعًا ورياء وسمعة ومراعاة للرسوم والعادات المتعارفة بين الناس، قال تعالى في رسوله ﷺ ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾.

اختارهم الله لصحبة نبيه، ولإقامة دينه، وهذا يدل على أفضليتهم وأكمليتهم، لأن الله لما اصطفاهم من بين الخلق أجمعين، وجعلهم أصحاب نبيه ﷺ على أنهم أفضل الخلائق، وأخيار الأمة، وجواهر نفوسهم أليق وأحرى بانعكاس أنوار الهداية والإيمان كما قال تعالى في القرآن ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ وقد وردت أحاديث في اصطفاء الصحابة واختيارهم على من سواهم، لصحبة نبيه ﷺ.

فالويل كل الويل لمن يسبهم ويشتمهم، ولا يعرف فضلهم، كالرافضة ومن ضاهاهم في هذه الصفة الملعونة.

« فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم على أثرهم » أي في العلم النافع والعمل الصالح وإخلاص التوحيد ومحض الإتباع السديد. « وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم » لأنهم كانوا أتباع الرسول الكريم، في كل نقير وقطمير،

وحقير وجليل ووضيع وعظيم « رواه رزين » .

وفي هذا الحديث دليل على إيثار آثار الصحابة والتمسك بأخلاقهم المرضية وسيرهم على السنة الصحيحة المأثورة، ولاشك أنهم أحق بذلك بعد الاعتصام بأدلة الكتاب والسنة. ثم الأمثل فالأمثل.

والتمسك غير التقليد لغة واصطلاحًا، وكذلك الاقتداء، ولهذا قال تعالى لرسوله ﷺ ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾.

ولم أقف على قول لعالم يعتمد عليه، أنه فسر هذه الألفاظ بالتقليد، بل فيه إشارة إلى ترك تقليد الرجال، لأن ابن مسعود حصر التمسك فيهم، ولم يرشد إلى التمسك بمن بعدهم من أئمة الأمة، فخرج بذلك تقليدات الأئمة الأربعة الفقهاء، الكائنين بعد عصر الصحابة ولهذا نهى الأربعة المذكورون عن تقليدهم، وتقليد غيرهم، لاسيما أبو حنيفة.

كيف، وهو يقتدي بروايات ابن مسعود، في كثير من فتاواه، ولا ينبغي له أن يخالفه في هذه الفتوى.

ولهذا روي عنه رحمه الله تعالى أنه قال: ما جاء عن الصحابة فعلى الرأس والعين، وما جاء عن التابعين زاحمناهم، فإنهم رجال، ونحن رجال.

وهذا القول من ذلك الإمام أدل دليل على ترك التقليد، وإرشاد منه لغيره إليه، وهو اللائق بإمامته، بل هذا من علامات إمامة الأئمة، وعلى هذا درج سلف هذه الأمة وأئمتها قاطبة ولم يخالفهم أحد إلا من لا يعتد به ولا يلتفت إليه، من أفراخ الرأي، وأبناء البدع، وأصحاب والجدل وأرباب الجهل، ومقلدة دينهم الأحبار والرهبان، عافانا الله من ذلك.

وعن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: « إني فرطكم على الحوض » (الفرط) بفتحتين الفارط المتقدم إلى المنزل لإصلاح الحياض والدلاء والأرشية، أي أنا سابقكم المهيء لكم « من مر على شرب » من الحوض. « ومن شرب لم يظمأ أبدًا، ليردن على أقوام أعرفهم ويعرفونني » قيل: لعلهم الذين قال فيهم أصحابي: « ثم يحال بيني وبينهم فأقول: سحقًا سحقا لمن غير بعدي » أي بعدًا أو هلاكًا « متفق عليه » .

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ: « أن أناسًا من أصحابي يؤخذ بهم ذات الشمال » فأقول: « أصيحابي أصيحابي » على صيغة جمع القلة والتصغير، لقلة عددهم « فيقول » : أي الله سبحانه: « إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم » .

« فأقول كما قال العبد الصالح: أي عيسى عليه السلام معتذرًا « وكنت عليهم شهيدًا ما دمت فيهم — إلى قوله — العزيز الحكيم » متفق عليه.

وتمام الآية: ﴿ **فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** (١١٧) **إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾.

قال في « أشعة اللمعات » قالوا: ليس المراد بهذا خواص الأصحاب، لأنا نعلم — يقينا — أنه لم يرتد أحد منهم بعد النبي ﷺ إلا قوم من جفاة العرب من أصحاب « مسيلمة الكذاب » و « الأعور العنسي » أو بعض مؤلفة القلوب الذين لم تكن لهم بصيرة بالدين ولا قوة في الإيمان.

أو المراد بالردة: خروج عن حد الاستقامة في بعض الحقوق، وإصلاح السريرة في بعض الأمور، ورعاية أهل البيت في التأدب معهم للابتلاء بالدنيا والفتن، لأن النبي ﷺ قال: « لا أخاف عليكم الكفر وعبادة الأوثان، إنما أخاف عليكم الدنيا وآفاتها » كذا قالوا، لا رجوعهم عن دين الإسلام، انتهى.

وبالجملة قد دل الحديث على نفي علم الغيب عنه ﷺ لقوله: « لا تدري » ودل على وقوع الأحداث بعده ﷺ، لأن الحديث الثاني زاده إيضاحًا بقوله: « أصيحابي » وحيث أن كل من رأى النبي ﷺ لحظة، وأسلم، يطلق عليه لفظ « الصاحب » صح أن بعض من كان صاحبًا بهذه الصفة أحدث شيئًا بعد النبي ﷺ لعدم رسوخه في الإسلام، وهذا خاص بمثل هؤلاء الأصيحاب.

ومن عمم الحديث فيهم فقد غلط غلطًا بينًا، لأن نفس الحديث يرد عليه مراده هذا، كالرافضة قاتلهم الله، فإنهم تعلقوا بهذا الحديث في إثبات ردة أكابر الصحابة، لاسيما الراشدين منهم، ولا حجة في ذلك، والحديث دل أيضًا على الدعاء على أهل الإحداث وهو ضد الإتباع، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

ودل الاستشهاد في الحديث الثاني بقول العبد الصالح المذكور، على أن عيسى عليه السلام كان عبد ولم يكن يعلم الغيب.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبي » أي امتنع من قبول ما جئت به، كأهل البدع، من التقليد وغيره، فإنهم أبوا أن يتبعوا الكتاب والسنة، وتمسكوا في مقابلته — بالتفريعات المحدثة، والتخريجات المبتدعة — واتخذوها دينًا « قيل: ومن أبى؟ قال: من أطاعني » بإتباع سنتي والاعتصام بكتاب الله « دخل الجنة، ومن عصاني » ولم يعمل بما جئت به من القرآن والحديث « فقد أبى » رواه البخاري.

قال في الترجمة: أي عصاني بإيثار البدعة وإتباع هوى النفس، فقد عصى ولا يدخل الجنة. اهـ.

وهذا ظاهر في عدم دخول المبتدعة الجنة، وفي ذلك من الوعيد ما لا يقدر قدره ؟

وبهذا تقرر أن الابتداع عصيان للرسول، كما أن الإتباع طاعة له عليه السلام، وقد قال تعالى: ﴿ **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ** ﴾.

وفي حديث أنس مرفوعًا في قصة ثلاث رهط: « أما والله، إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني » متفق عليه.

أي من أعرض عن سنتي استهانة، وزهدًا، فليس من أشياعي، وكل من لا يتبع السنة فإنه مستهين بها زاهد فيها.

سورة الروم

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ۝ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم: ٥٨-٦٠].

قال (ك): يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أي قد بينا لهم الحق ووضحناه لهم وضربنا لهم فيه الأمثال ليستبينوا الحق ويتبعوه ﴿ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ ﴾ أي لو رأوا آية كانت باقتراحهم أو غيره لا يؤمنون بها ويعتقدون أنها سحر وباطل كما قالوا في انشقاق القمر ونحوه كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ ولهذا قال ههنا ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أي اصبر على مخالفتهم وعنادهم فإن الله تعالى منجز لك ما وعدك من نصره إياك عليهم وجعله العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة ﴿ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ ﴾ أي بل أثبت على ما بعثك الله به فإنه الحق الذي لا مرية فيه ولا تعدل عنه وليس فيما سواه هدى يتبع بل الحق كله منحصر فيه قال سعيد عن قتادة نادى رجل من الخوارج عليًّا ﷺ وهو في صلاة الغداة فقال: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ فأنصت له علي حتى فهم ما قاله فأجابه وهو في الصلاة ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ ﴾ رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم.

فصل

قال محمد تقي الدين: تقدم في الأبواب السابقة أن القرآن سبب السعادة في الدنيا والآخرة لكل من بلغه واعتقد صدقه وعمل به وبيانه في سنة الرسول ﷺ ومن أعرض عنه فهو خاسر في الدنيا والآخرة.

قال القنوجي في الدين الخالص:

عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير، أصاب أرضًا، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله به الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان، لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه

في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » متفق عليه.

والأجادب: الأراضي الصلبة المنخفضة التي تمسك الماء.

« والكلأ » بالكاف واللام المفتوحتين مهموزًا هو على زنة جبل، يقع على الرطب واليابس. و « العشب » بالضم الرطب و « القيعان » جمع « قاع » وهي الأرض المستوية.

ذكر في هذا الحديث أن الناس قسمان منتفع بدينه وغير منتفع به وكذلك الأرض على قسمين منتفعة بالماء، وغير منتفعة به، والمنتفعة نوعان: منبت، وغير منبت.

وكذلك المنتفع بالدين على صنفين أحدهما: عالم عابد، متفقه، متفهم معلم كالطائفة الطيبة من الأرض التي قبلت الماء وأنبتت الكلأ ونفع الله بها الناس، والثاني: عالم معلم غير متعبد بالنوافل لم يتفقه فيما جمع من العلم كالأرض الجدبة التي أمسكت الماء وانتفع به الناس.

وأما من لم يرفع رأسه، ولم يلتفت إلى العلم قطعًا، أو التفت ولم يعمل به مطلقًا ولم يعلم أحدًا، سواء دخل في الدين أو لم يدخل، وبقي كافرًا، فهو كالقاع لم يمسك ماء، ولم ينبت كلأ، هذا خلاصة ما ذكره شراح صحيح البخاري.

قال في الترجمة، ويمكن أن يقال: أن القسم الأول عبارة عمن تعلم واجتهد، واستنبط المعاني والنكات والأسرار وشرح وبين كالفقهاء المجتهدين، والعلماء المتقين المحققين فإنهم كالأرض المنبتة للكلأ النابت من الأرض وثمراتها ونتائجها.

ومصداق القيعان طوائف أهل البدعة والمحدثات من سائر الفرق الإسلامية الماضية، والحاضرة، والآتية إلى قيام الساعة فإنهم لم يرفعوا رؤوسهم بالهدى والعلم، ولم يقبلوا هدى الله الذي أرسل به رسوله ﷺ إليهم، بل قدموا بدعهم على السنن، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ولا شيء أشق عليهم من تلاوة آية من كتاب أو ذكر حديث صحيح، عند المناظرة في المسائل والأحكام وإذا حررت لهم رواية، من كتب الرأي، وصحف الفقه وذكرت قولاً لإمام، برقت أساريرهم، وهذا كما قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ** ﴾ وما أجمع هذا الحديث للفوائد الكثيرة.

وبالتأمل فيه تظهر الفوائد الغزيرة لمن رزقه الله فهما صحيحا، وقلبًا سليمًا، وألقى السمع وهو شهيد.

وعن أبي رافع قال: قال رسول الله ﷺ: « لا أُلْفِيَنَّ أحدكم، - أي: لا أجدن - متكئًا على أريكته. - أي: سريره المزين بالحلل والأثواب - يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه - وهي الأوامر والنواهي المدونة في الكتب الستة وغيرها من دواوين الحديث ومسانيد الأخبار - فيقول: لا أدري. ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه » رواه أحمد وأبو داوود، والترمذي وابن ماجه، والبيهقي في « دلائل النبوة » قال في (المرقاة) المعنى لا يجوز الإعراض عن حديثه ﷺ لأن المعرض عنه، معرض عن القرآن اهـ.

وقال في « الأشعة » أخبر رسول الله ﷺ عن حال بعض أهل الجهل والفراغ والتكبر أنه يتقاعد ويتكاسل عن العمل بالحديث في الأمر الذي لا يوجد حكمه في القرآن، ويظن أن الأحكام تنحصر في القرآن فقط وهو جاهل بأن أكثر الأحكام في الأحاديث، وليس في الكتاب.

وكما أن القرآن حجة، فكذلك الحديث أيضًا حجة وكما أن الرسول ﷺ أعطي القرآن فكذلك أعطي أيضًا الأحاديث فكلاهما وحي كما في حديث المقداد بن معد يكرب يرفعه: « ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله » الحديث. رواه أبو داوود، وروي الدارمي نحوه، وكذلك ابن ماجه.

قال: المماثلة هي في كونهما وحيًا، فكما أن القرآن وحي منزل من الله تعالى فكذلك الأحاديث وحي من الله الحق تعالى.

والشبعان كناية عن بلادة العقل وسوء الفهم، لأن الشبع والشره للطعام سبب لذلك، أو كناية عن الكبر والحماقة التي يوجبها التنعم والترفه اهـ.

قلت: قصر التمسك على الكتاب العزيز شعبة من الخروج ونوع من النفاق والخارجية هم القائلون في مقابلة على عليه السلام: ﴿ **إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ** ﴾ أي لا نقبل شيئًا إلا ما

في القرآن والمراد بهذا إنكار الحديث، والفرار عن إتباعه، فمن لم يقبل السنة، واقتصر على القرآن، ففيه شائبة، بل شيمة الخارجية بلا تفاوت، ولا يصح إيمان أحد حتى يتبع السنن كما يتبع القرآن كيف وقد جاءنا بهذه من جاء بالقرآن ولم نعلم القرآن إلا ببيان الرسول، فإذا لم يقبل أحد بيانه ﷺ فإنه غير قابل للقرآن أيضًا.

سورة السجدة

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [السجدة: ٢، ٣].

قال (ك): أي لاشك فيه ولا مرية أنه منزل ﴿ **مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾. ثم قال تعالى مخبرًا عن المشركين ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ** ﴾ أي اختلقه من تلقاء نفسه ﴿ **بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ** ﴾ أي يتبعون الحق.

فصل

قال محمد تقي الدين: القرآن حق أنزله الله على قلب محمد ﷺ لينذر به العرب والعجم والإنس والجن. وكل من قلبه واتبعه صار من المهتدين إلى طرق السعادة في الدنيا والآخرة وكل من رده كله أو رد بعضه فقد خاب وخسر في الدارين وهذه سبعمائة مليون من المدعين للإسلام خائبون خاسرون وهذا أكبر شاهد ثم قال المحقق القنوجي في ج٣ ص٦٩: واللذين يجب الأخذ بهما جميعًا ولا يؤخذ بغيرهما فإن أصل الأصول الإسلامية، هو هذان الأصلان لا ثالث لهما ولا رابع، وإنما يستأنس بالإجماع وبالقياس للمتابعة والشهادة لا إنهما أصلان مستقلان يبنى عليهما شيء من أحكام الإسلام، فإنه لم يقل بذلك أحد ممن يعتد به من علماء الإسلام، والله أعلم.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « من أكل طيبًا وعمل في سنة، وأمن الناس بوائقه دخل الجنة » .

« البائقة » الداهية، والمراد هنا، الشرور.

والمعنى من أكل الحلال، واجتنب الحرام، وعمل على وفق الحديث والقرآن، والناس من شره في أمان، فهو مستحق لدخول الجنان.

فقال رجل: يا رسول الله، إن هذا اليوم لكثير في الناس، قال وسيكون في قرون بعدي، المراد بالقرن، أهل العصر، وكلما بعد عصر من زمان النبي ﷺ كان الصلحاء فيه أقل ممن قبلهم ولهذا قال: « خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم » والمراد بقوله: « سيكون زمان، العالم بالحديث من غرباء الإسلام » ، وفيه أخبار بأن الخير لا ينقطع من أمته ﷺ مطلقًا وإن تفاوت بالقلة والكثرة، وإنه يكون في آخر الزمان جماعة تقوم على طريقة التقوى والسنة المطهرة كما في الترجمة.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « إنكم في زمان من ترك منكم عشر ما أمر به هلك، وعوقب عليه ثم يأتي زمان من عمل منهم بعشر ما أمر به نجا » . رواه الترمذي، أي نجا من العذاب وأثيب عليه، وقال في « المرقاة » ما أمر به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ لا يجوز صرف هذا القول إلى عموم المأمورات، لأنه عرف أن مسلمًا لا يعذر فيما يهمل من الفرض الذي تعلق بخاصة نفسه.

والمراد « بهلك » أن الدين اليوم عزيز، والحق ظاهر، وفي أنصاره كثرة، فالترك يكون تقصيرًا منكم فلا يعذر أحد منكم في التهاون، ثم يأتي زمان يضعف فيه الإسلام من عمل منهم بعشر ما أمر به نجا، لانتفاء تلك المعاني المذكورة، انتهى.

والحاصل أن قليل العمل في زمان كثير الفتن، يوجب النجاة.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ [السجدة: ٢٢].

قال (ك): أي لا أظلم ممن ذكره الله بآياته وبينها له ووضحها ثم بعد ذلك تركها وجحدها وأعرض عنها وتناساها كأنه لا يعرفها، قال قتادة إياكم والإعراض عن ذكر الله

فإن من أعرض عن ذكره فقد اغتر أكبر الغرة وأعوز أشد العوز، ولهذا قال تعالى متهددًا لمن فعل ذلك ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾. أي سأنتقم ممن فعل ذلك أشد الانتقام.

فصل

قال محمد تقي الدين: والمقلدون يدخلون في هؤلاء دخولاً بينًا فكل من أعرض عن إتباع الكتاب والسنة داخل في هذا الوعيد دخولاً أوليًا ويسمى مجرمًا شرعًا ويكون متعرضًا لانتقام الله تعالى كما ترى في أهل هذا الزمان نسأل الله العافية.

سورة الأحزاب

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴾ [الأحزاب: ٦].

قال (ك): قد علم الله تعالى شفقة رسوله ﷺ على أمته ونصحه لهم فجعله أولى بهم من أنفسهم وحكمه فيهم مقدمًا على اختيارهم لأنفسهم كما قال تعالى ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾. وفي الصحيح: « والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين » ، وفي الصحيح أيضًا أن عمر ﷺ قال: يا رسول الله، والله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال ﷺ: « لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك » . فقال يا رسول الله: والله لأنت أحب إلي من كل شيء حتى من نفسي، فقال ﷺ: « الآن يا عمر » ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ وقال البخاري في هذه الآية الكريمة بسنده عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: « ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة ؛ اقرؤوا إن شئتم ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ فأيما مؤمن ترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا وإن ترك دينًا أو ضياعًا

فليأتني فأنا مولاه » .

وقوله تعالى: ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ أي في الحرمة والاحترام، والتوقير والإكرام والإعظام، ولكن لا تجوز الخلوة بهن ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع، وإن سمي بعض العلماء بناتهن أخوات المؤمنين كما هو منصوص عن الشافعي رحمه الله عنه في المختصر، وهو من باب إطلاق العبارة لا إثبات الحكم.

وقوله تعالى: ﴿ وَأُوْلُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ أي في حكم الله ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ ﴾ أي القرابات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمؤاخاة التي كانت بينهم وقوله تعالى ﴿ إِلاَّ أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا ﴾ أي ذهب الميراث وبقي النصر والبر والصلة والإحسان والوصية، وقوله تعالى: ﴿ كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ أي هذا الحكم وهو أن أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض حكم من الله مقدر مكتوب في الكتاب الأول الذي لا يبدل ولا يغير، قاله مجاهد وغير واحد وإن كان تعالى قد شرع خلافه في وقت لما له في ذلك من الحكمة البالغة وهو يعلم أنه سينسخه إلى ما هو جار في قدره الأزلي وقضائه القدري الشرعي والله أعلم.

فصل

قال محمد تقي الدين: هاتان الآيتان وما جاء في تفسيرهما يحتم على كل مسلم إتباع الكتاب والسنة وترك الرأي والتقليد إلا بقدر الضرورة قال المحقق القنوجي رحمه الله في ج٤ ص١٠٨، « باب في رد بدعات التقليد » وقال تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾. المجيء بالنون في الفعلين، لقصد الإخبار عن سائر الموحدين، وفيه إشعار على التزام جماعة السنة وإطلاق العبادة والاستعانة، لقصد التعميم، ليتناول ترك كل معبود، ومستعان به واستحسنه الزمخشري، أفادت الآية الشريفة تخصيص العبادة لله، والاستعانة بالله، وترك التقليد، لأن التقليد العرفي المصطلح عليه، إذا تأملت فيه، وجدته نوعًا من أنواع العبادة لغير الله، والاستعانة بغيره سبحانه وتعالى، لكونه إتباعًا للهوى، ومن اتبع هواه فقد اتخذه معبودًا له.

قال تعالى: ﴿ **أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ** ﴾ وإطلاق « الهوى » على التقليد، مشعر بكونه من أبواب الشرك، المخالف للتوحيد، ولهذا جزم ابن حزم رحمه الله بكون التقليد شركًا وأنه حرام على الإطلاق.

فهذه الآية الكريمة، كما دلت على التوحيد ونفي الشرك فهكذا دلت بالإشارة إلى نفي التقليد.

ويالله للعجب من أقوام يقرؤون هذه الآية في سورة الفاتحة، كل يوم خمس مرات فصاعدًا، في كل صلاة، ويقرون بتخصيص العبادة لله والاستعانة به ثم يشركون خارج الصلوات، ويقلدون في الشرائع الأموات، ولا يخطر ببالهم إن ذلك يقع منهم موقع الكذب بين يدي الله سبحانه، فما أعظم إثم ذلك !! أعاذنا الله مما هنالك.

وهذه أول آية في القرآن الشريف ترد الشرك والتقليد.

والثانية: قوله تعالى في هذه السورة: ﴿ **اهدِنَا الصِّرَاطَ الُمستَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ** ﴾.

والصراط المستقيم هو إتباع القرآن والحديث، في كل نقير وقطمير، وحقير وجليل وصغير وكبير.

ومن ترك اتباعهما وقلد الناس — أي ناس كانوا — فقد بعد عن الصراط المستقيم والتنصيص على أن صراط المسلمين هو المشهود عليه بالاستقامة على آكد وجه وأبلغه. بحيث لا يذهب الوهم عند ذكره إلا إليه.

وهذا يرشدك إلى أن المطيع لله ولرسوله. هو الذي يتبع الكتاب العزيز والسنة المطهرة، دون من يطيع الأحبار والرهبان.

وفيه أن ذلك إنما يحصل بطاعة الله، أي طاعة كتابه وطاعة الرسول « أي إتباعه » ومفهومه أنه لا يحصل لمن قلد غيرهما، فالآية الشريفة حاملة لهم على سؤال إتباع الكتاب والسنة، ومشيرة إلى ترك التقليد. وكذا ما بعدها وهو قوله سبحانه: ﴿ **غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ** ﴾ لأن المراد بهم، اليهود والنصارى: كما ورد بذلك الحديث.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

قال (ك): هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه عز وجل صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين ولهذا قال تعالى للذين قلقوا وتضجروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ أي هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ﷺ.

فصل

قال محمد تقي الدين: كل مسلم يجب عليه أن يقتدى بالنبي ﷺ وهذا معنى الأسوة فإن كان عالمًا بالكتاب والسنة لم يحل له أن يعمل ويفتي بغيرهما وإن كان جاهلاً وجب عليه أن يسأل العلماء عنهما فإذا اتخذ إمامًا ومذهبًا بدلاً من الكتاب والسنة فقد خرج عن طاعة الله ورسوله وأشرك بالله وعبد معه غيره لأنه جعل له الحكم وكما أن الصلاة والدعاء والذبح والنذر والاستغاثة والحج والصدقة والحلف والتوكل والرجاء والخوف والرغبة وما جرى مجراها لا يكون شيء من ذلك إلا لله فكذلك الحكم وهو التحليل والتحريم والإيجاب والكراهة والاستحباب والإباحة هذه الأحكام خاصة بالله وحده ومن جعل شيئًا منها لغير الله فقد اتخذه إلهًا من دون الله راجع حديث عدي بن حاتم في سورة التوبة عند قوله تعالى: ﴿ اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾. فاتخاذهم الأحبار وهم العلماء والرهبان وهم العباد أربابًا إنما ذلك لأنهم جعلوا لهم التحليل والتحريم ولم يعبدوهم بصلاة ولا غيرها وعبدوا المسيح بالصلاة والسجود والدعاء فسوى الله تعالى بين العبادتين فلا فرق بين الصلاة وجعل الحكم، كل ذلك شرك وأخبر الله تعالى في هذه الآية أن الذين يقتدون برسول الله ﷺ ويتبعونه هم الذين يرجون الله واليوم الآخر ويذكرون الله كثيرًا ومن اتخذ

لنفسه إمامًا غير النبي ﷺ وكتابًا غير كتاب الله وحزبًا غير أصحاب رسول الله ﷺ يسميهم أهل مذهبه فتلك علامة على أنه لا يرجو الله واليوم الآخر ولا يذكر الله كثيرًا وقوله تعالى أسوة حسنة أي تأس حسن وهو الإتباع التام في كل شيء من أمور الدين فإن كان يقتدي بالنبي ﷺ فيما يوافق مذهبه أو قول إمامه ويتحيل على رد ما خالفه إما بالتحريف وإما بادعاء الضعف أو النسخ أو يدعي أن إمامه قد أحاط بجميع مسائل الكتاب والسنة لا يغفل ولا ينسى ولا يجهل شيئًا فما ترك ذلك الحديث إلا لعلة فقد ضل ضلالاً بعيدًا اهـ.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

قال (ك) هذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد ههنا ولا رأى ولا قول كما قال تبارك وتعالى: ﴿ **فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا** ﴾ وفي الحديث: والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به ولهذا شدد في خلاف ذلك فقال: ﴿ **وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُّبِينًا** ﴾ كقوله تعالى: ﴿ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾.

فصل

قال محمد تقي الدين: هذه الآية من أعظم الحجج على المقلدين والمتمذهبين وأصحاب الطرائق والأحزاب التي ينتسب أفرادها إلى الإسلام هؤلاء إذا خالفوا حكمًا واحدًا مما حكم الله ورسوله به فلا عجب إذا غلبت خمسة عشر مليونًا وهو عدد اليهود في الدنيا كلها سبعمائة مليون يدعون الإسلام ويحكمون بغير ما أنزل الله علانية وقد بان لهم البرهان في الهزائم المتوالية عليهم وفي ذلتهم وهوانهم على الناس لو كانوا يعقلون فنسأل الله أن يبصرهم من العمي ويهديهم من الضلال. انتهى.


الفهرس

فهرس الكتاب